

رِجَالٌ مَا رَكِبُوا

الكتاب
الشاب
٢٠١

الجزء الأول



ترجموا إلى الإنجليزية: وليم مارسدن

ترجموا إلى العربية: عبد العزيز جاويد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠٢

الشيخ/ عبد العزيز توفيق جاويد

شيخ المترجمين - القاهرة

رحلات مارکو پولو

رحلات مارکو پولو

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام
و. سمير سرحان
رئيسة مجلس الإدارة

رئيس التحرير
لمسعى المطيعي
مدير التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفني
محمد قطب
الإخراج الفني
لمياء محرم

مكتبة
شيخ المترجمين
عبد العزيز توفيق جاويد

رحلات ماركو بولو

الجزء الأول

ترجمها إلى الإنجليزية
وليم مارسدن

ترجمها إلى العربية
عبد العزيز جاويد

الطبعة الثانية



الهيئة العامة للكتاب

١٩٩٥

الصفحة	الموضوع
٩٥	الفصل التاسع عشر
٨٦	الفصل العشرون
٨٧	الفصل الحادي والعشرون
٨٩	الفصل الثاني والعشرون
٩٣	الفصل الثالث والعشرون
٨٤	الفصل الرابع والعشرون
٩٦	الفصل الخامس والعشرون
٩٧	الفصل السادس والعشرون
١٠١	الفصل السابع والعشرون
١٠٢	الفصل الثامن والعشرون
١٠٤	الفصل التاسع والعشرون
١٠٦	الفصل الثلاثون
١٠٧	الفصل الحادي والثلاثون
١٠٩	الفصل الثاني والثلاثون
١١٠	الفصل الثالث والثلاثون
١١١	الفصل الرابع والثلاثون
١١٢	الفصل الخامس والثلاثون
١١٤	الفصل السادس والثلاثون
١١٧	الفصل السابع والثلاثون
١٢١	الفصل الثامن والثلاثون
١٢٤	الفصل التاسع والثلاثون
١٢٦	الفصل الأربعون
١٢٧	الفصل الحادي والأربعون
١٢٩	الفصل الثاني والأربعون
١٣٠	الفصل الثالث والأربعون
١٣١	الفصل الرابع والأربعون
١٣٣	الفصل الخامس والأربعون
١٣٦	الفصل السادس والأربعون

الموضوع	الصفحة
الفصل السابع والأربعون	١٢٨
الفصل الثامن والأربعون	١٤١
الفصل التاسع والأربعون	١٤٣
الفصل الخمسون	١٤٦
الفصل الحادى والخمسون	١٤٨
الفصل الثانى والخمسون	١٥٠
الفصل الثالث والخمسون	١٥٣
الفصل الرابع والخمسون	١٥٤
الفصل الخامس والخمسون	١٥٦
الفصل السادس والخمسون	١٥٨
الفصل السابع والخمسون	١٦٠
هوامش الفصل الأول	١٦٧
هوامش الفصل الثانى	١٨٤
هوامش الفصل الثالث	١٨٦
هوامش الفصل الرابع	١٨٨
هوامش الفصل الخامس	١٩١
هوامش الفصل السادس	١٩٥
هوامش الفصل السابع	١٩٧
هوامش الفصل الثامن	١٩٩
هوامش الفصل التاسع	٢٠٠
هوامش الفصل العاشر	٢٠٢
هوامش الفصل الحادى عشر	٢٠٣
هوامش الفصل الثانى عشر	٢٠٤
هوامش الفصل الثالث عشر	٢٠٨
هوامش الفصل الرابع عشر	٢٠٩
هوامش الفصل الخامس عشر	٢١١
هوامش الفصل السادس عشر	٢١٧
هوامش الفصل السابع عشر	٢٢١

الصفحة	الموضوع
٢٢	هوامش الفصل التاسع عشر
٢٥	هوامش الفصل العشرين
٢٦	هوامش الفصل الحادى والعشرين
٢٨	هوامش الفصل الثانى والعشرين
٣١	هوامش الفصل الثالث والعشرين
٣٣	هوامش الفصل الرابع والعشرين
٣٥	هوامش الفصل الخامس والعشرين
٣٦	هوامش الفصل السادس والعشرين
٣٩	هوامش الفصل السابع والعشرين
٤١	هوامش الفصل الثامن والعشرين
٤	هوامش الفصل التاسع والعشرين
٦	هوامش الفصل الثلاثين
٧	هوامش الفصل الحادى والثلاثين
٩	هوامش الفصل الثانى والثلاثين
٠	هوامش الفصل الثالث والثلاثين
١	هوامش الفصل الرابع والثلاثين
٣	هوامش الفصل الخامس والثلاثين
٤	هوامش الفصل السادس والثلاثين
٦	هوامش الفصل السابع والثلاثين
	هوامش الفصل الثامن والثلاثين
٢	هوامش الفصل التاسع والثلاثين
٤	هوامش الفصل الأربعين
٥	هوامش الفصل الحادى والأربعين
٨	هوامش الفصل الثانى والأربعين
١	هوامش الفصل الثالث والأربعين
٠	هوامش الفصل الرابع والأربعين
٢	هوامش الفصل الخامس والأربعين
	هوامش الفصل السادس والأربعين

الصفحة	الموضوع
٢٧٨	• • • • • هوامش الفصل السابع والأربعين
٢٨٢	• • • • • هوامش الفصل الثامن والأربعين
٢٨٤	• • • • • هوامش الفصل التاسع والأربعين
٢٨٦	• • • • • هوامش الفصل الخمسين
٢٨٨	• • • • • هوامش الفصل الحادى والخمسين
٢٩٠	• • • • • هوامش الفصل الثانى والخمسين
٢٩٤	• • • • • هوامش الفصل الثالث والخمسين
٢٩٥	• • • • • هوامش الفصل الرابع والخمسين
٢٩٧	• • • • • هوامش الفصل الخامس والخمسين
٢٩٩	• • • • • هوامش الفصل السادس والخمسين
٣٠٠	• • • • • هوامش الفصل السابع والخمسين

مقدمة الطبعة العربية الثانية

الرحلة من أجمل المتعات ، فيها يستمتع الجسم بالحركة والعين بالمناظر الجديدة جميلها وخبيثها والعقل بالخبرة والمعرفة والمشاهدة ، فان لم تتيسر الرحلة ففي كتب الرحالين متعة أى متعة ولكنها تحمل أرج الماضى ورفيف مالا يمكن مشاهدته ان كان قديما ، ومالا يتيسر الالمام به ان كان بعيدا . من هنا أقبل الناس على الرحلات عملا وقراءة ، فالسعادة فى الحالين واحدة ، وما أعظم العرب وأوسع عقلياتهم حين أقبل ابن جبير وابن بطوطة يسرحان فى الدنيا ويدونان ما يشاهدان من أنماط الأخلاق المعجبة وغرائب العادات غير المألوفة وأنواع السلوك وطرائق الحياة والأطعمة والملبس ! كانوا رجالا بلغوا من توقد الذكاء الغاية والنهاية ومن دقة الملاحظة ما لا حد له ولا نزال نطالعهم بين القدماء ونترقب كل حديث من صفوفهم مثل محمد ثابت وأنيس منصور فنلتهم ما سطره التهاما .

وماركو بولو يأخذ بأعنة جيانا فى قرون المغول الأولى ، ويتولج بنا فى أرض الروم والروس والترك حتى يدق أبواب الصين . وهناك يدخل على الامبراطور ولا يزال واقفا بين يديه يلهينا بأفانين سحره وحسن تصويره ، فهو الفاتح الثقافى للصين أمام عقليتنا المتوثبة المتعطشة لكل

جديد • ان ماركو بولو هو فاتح بلاد الصين وليست البارجة الأوروبية ، لأنه على عكس الاستعمار أدخلنا دخلة حميدة ، وأنزلنا بين ظهراني الشعب نؤاكلة ونعائشه ونماشيه ، وأجلسنا الى جوار الامبراطور وفي قصره الفاخر وسراجه الضخم المتراعى المصنوع من الفراء الثمين • يالها معرفة حميمة وصداقة وثيقة وأخوة في الانسانية والحضارة والمدنية ! •

لقد منح المرحوم الأستاذ صلاح عبد الصبور (رئيس هيئة الكتاب الأسبق) العربية منحة جميلة حين كلفني بنقل هذا الكتاب الى العربية ، وتجاوز فيه كل الروتين المتحجر ، فلا فاحص لفحص صلاحية الكتاب للترجمة ، حيث قال رحمه الله وهو المثقف القدير حين عرضت عليه ترجمة الكتاب وعجبت أنه لم يحله الى فاحص : « وهل يحتاج ماركو بولو الى فاحص !؟ » •

ومن المعلوم أن ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤) رحالة بندقى ، ولد من عائلة نبيلة ، وكان والده وعمه غائبين ساعة مولده فى مهمة تجارية فى بلاد الصين ، حيث طلب منهما قوبلاى خان العودة اليه • فعادا اليه ١٢٧١ أخذين معهما ماركو فسافرا بطريق الموصل ، بغداد ، وخراسان واليامير ، وكشغر ويرقند وخوشان ولوينور وصحراء جوبى وتانجوت وشانجتو ، وبلغوا بلاط الخان فى ١٢٧٥ ، وأرسل الخان ماركو مبعوثا الى يوشان ، وپورما وقره قورم وكوشين صين والهند ، وظل ثلاث سنوات يعمل حاكما ليانجتشو • وأخيرا غادرت الأسرة بلاد الصين فى حاشية أميرة مغولية ، وعادوا بطريق سومطرة والهند وفارس الى البندقية وبلغوها فى ١٢٩٥ • وأصبح ماركو فى ١٢٩٨ ربانا لسفينة فى الأسطول الموجه على جنوا ، وأخذ أسيرا بعد هزيمة البندقية فى جورزولا • وبينما هو فى أسره أملى بيانا عن أسفاره على روستيكيانو من بيزا ، وترجم هذا العمل الى لغات كثيرة

ونشره في انجلترا مارسدن (١٨١٨) و ت . رايت (١٨٣٤)
و . مواري (١٨٤٤) والسير يول (١٨٧١) ثم راجعه
وزاد فيه كورديار (١٩٠٣) ، كما راجعه مارسدن لمكتبة
افريمان .

وقد أسعدني حقا أن تعيد هيئة الكتاب طبع هذا الكتاب
الذي أترك للقارئ الحكم على قدره بعد مطالعته اياه .

عبد العزيز توفيق جاويد
مصر الجديدة
نوفمبر ١٩٩٤

مقدمة

ولد ماركو بولو ، موضوع هذه المذكرات ، بمدينة البندقية (فينيسيا) فى عام ١٩٥٤ . وكان ابنا لنيقولو بولو ، وهو من أبناء العائلات النبيلة بتلك المدينة ، وكان شريكا بأحد البيوت التجارية ، المشتغلة بالتجارة مع القسطنطينية . وفى عام ١٢٦٠ خرج نيقولو بولو هذا بصحبة شريكه الأصغر وهو شقيقه مافيو ، وعبر البوكسين (البحر الأسود) فى مغامرة تجارية الى بلاد القرم -

فتكللت مغامرتهما بالنجاح ، ولكنهما لم يتمكنوا من العودة الى قاعدتهما بسبب نشوب حرب أشبهما التتار على الطريق الذى جاء منه ، ونظرا لأنهما لم يستطيعا العودة مضيا الى الأمام ، مجتازين الصحراء المؤدية الى بخارى فأقاما بها ثلاث سنوات - وفى نهاية السنة الثالثة (وهى الخامسة فى رحلتها) - أشار عليهما بعضهم بزيارة الخان الأعظم قبلاى ، « وهو قبلاى خان » الذى ورد اسمه فى قصيدة كولريدج . وكان فريق من مبعوثى الخان الأعظم على وشك العودة الى كاثاى ، ومن ثم انضم الشقيقان الى تلك الجماعة ، فسارا قدما فى رحلتها « شمالا ثم شمالا بشرق » أمد عام كامل ، قبل الوصول الى بلاط الخان بمدينة كاثاى وأحسن الخان استقبالهما ووجه اليهما أسئلة كثيرة عن الحياة فى أوروبا ، وبخاصة عن الأباطرة والبابا والكنيسة و « جميع ما يجرى فى روما » . ثم أرسلهما الخان بعد ذلك الى أوروبا فى سفارة الى البابا ، ليطلبوا من قداسته مائة « مبشر ليدخلوا أهل كاثاى فى دين المسيحية » . كما طلب كذلك شيئا من الزيت

المقدس من قنديل الناوروس المقدس . واستغرقت رحلة عودة الشقيقين (من كاثى الى عكا) ثلاث سنوات . وعند وصول الرحالتين الى عكا تبينا أن البابا قد مات . فقررا بناء على ذلك العودة الى وطنيهما البندقية ، لكى ينتظرا هناك حتى يتم انتخاب البابا الجديد فوصلا الى البندقية فى ١٢٦٩ ، ليجدا أن زوجة نيقولو توفيت أثناء غيبة زوجها وكان ابنه ماركو - رحالتنا - يناهز آنذاك الخامسة عشرة ولعله أمضى طفولته بمنزل أحد أخواله بالبندقية .

أقام نيقولو ومافيو بولو بالبندقية حولين كاملين ، ينتظران أن ينتخب للكنيسة بابا . ولكن لما لم تبد أية بارقة لذلك ، عولا على العودة الى الخان الأعظم ليخبراه - وقد أعذرا - كيف أن بعثتهما أخفقت فانطلقا تبعا لذلك ثانية (فى ١٢٧١) وفى صحبتهما ماركو ، وقد بلغ آنذاك السابعة عشرة . وحصل فى عكا على خطاب من مندوب بابوى يوضح كيف حدث أن الرسالة لم يتهيا لها أن تسلم . وحصل فعلا على بعض من الزيت المقدس ، وبدا صار فى إمكانهما المضى فى رحلتهم . ولكنهما لم يكادا يمضيان غير بعيد فى رحلتهم حتى استدعاهما الى عكا ثانية المندوب البابوى السورى سالف الذكر ، الذى سمع من فوره أنه انتخب بابا . على أن البابا الجديد لم يرسل مائة من المرسلين (المبشرين) كما طلب قبلاى ، بل عين بدلا من ذلك راهبين من الوعاظ وصحبا آل بولو حتى أرمينية ، حيث سمع بشائعات عن الحرب فعادا أدراجهما فرقا وواصل آل بولو رحلتهم مدة ثلاث سنوات ونصف ، حتى بلغوا بلاط الخار (من شانجتو ، غير بعيد من بيكين) - فى منتصف عام ١٢٧٥ واستقبلهم الخان « بالتكريم والتلطف » وبالغ فى الحفاو بماركو ، الذى كان آنذاك « شابا فتيا » ولم يمض زمر طويل تعلم فيه ماركو لغة التتار وعاداتهم حتى استخدمه الخار فى الوظائف العامة ، حيث أرسله مديرا زائرا لعدة ولايات

همجية نائية ولاحظ ماركو ببالغ العناية العادات العجيبة لتلك الولايات ، وأبهج صدر الخان بما رواه له عنها . ولعل ماركو زار في إحدى تلك الرحلات بعض الولايات الجنوبية ببلاد الهند . وبعد انقضاء ما يقرب من سبعة عشر عاما قضوها مكرمين في خدمة قبلاى ، أخذ الحنين الى العودة الى البندقية يغالب البنادقة الثلاثة .

فلقد صاروا من الأثرياء ، وأصبح قبلاى شيخا هرما ، وكانوا يدركون ان وفاة قبلاى ، ربما أدت الى حرمانهم من جميع تلك المساعدات العامة التى كانوا يتوقعون بها وحدها التغلب على مالا حصر له من الصعوبات التى ستواجههم فى أثناء رحلة العودة الطويلة . بيد أن قبلاى أبى أن يسمح لهم بمغادرة البلاط ، بل لقد « بدا عليه الاستياء من ذلك الطلب » . على أنه تصادف فى ذلك الحين أن أرغون خان فارس أرسل سفراءه الى قبلاى ليخطبوا له إحدى الفتيات « من بين أقرباء زوجته المتوفاة ، وكانت الفتاة ، وهى غانية بارعة الجمال فى السابعة عشرة من عمرها ، على وشك مرافقة السفراء الى بلاد فارس ، ولكن الطرق البرية العادية الى فارس كانت محفوفة بالمخاطر ، بسبب بعض الحروب الناشئة بين التتار . ولذا صار من الضرورى لها أن تسافر الى فارس بطريق البحر . والتمس المبعوثون من قبلاى أن يأذن للبنادقة الثلاثة بمرافقتهم فى السفن . بوصفهم أشخاصا ذوى مهارة كبيرة فى فنون الملاحة » . وقبل قبلاى التماسهم ، وان عن غير كبير ارتياح . فجهز أسطولا فاخرا من السفن ، وأرسل البنادقة الثلاثة مع الفرس ، بمد أن منحهم أولا ، اللوحة الذهبية أو ضمان سلامة المرور ، وهى التى تمكنهم من التزود بما يلزمهم أثناء الطريق . فأبحروا من إحدى المرافئ الصينية فى أوائل عام ١٢٩٢ .

واستغرقت الرحلة الى فارس زهاء السنتين ، خسرت
الحملة اثناعش مائة رجل . فلما ان وصلوا الى فارس
وجدوا الخان قد مات ولذا ، سلمت الغادة الحسنة الى ابنه
فتلقاها بقبول حسن . ومنح البنادقة ضمان سلامة المرور
في بلاد فارس ، بل الحق انه ارسلهم في طريقهم بصحبة
جند من الراكبة ، ما كانوا ليستطيعوا عبور تلك البلاد
بدونهم أثناء الأيام المضطربة . وبينما هم سائرون بمطاياهم
في طريقهم ، سمعوا ان مولاهم قبلاى الشيخ لقي منيه .
ومالبتوا حتى وصلوا الى البندقية سالمين في وقت ما من
عام ١٢٩٥ .

وتروى عن وصولهم الى وطنهم بعض اقاصيل عجيبة ،
اذ يقال ان اقاربهم لم يعرفوهم ، ولا غرابة في ذلك ، اذ انهم
عادوا في ثياب تترية رثة وهم لا يكادون يستطيعون التحدث
بلغتهم الأصلية . ولم يقرر اقرباؤهم الاعتراف بهم الا بعد
ان فتقوا الخياطة في ملابسهم الرثة كاشفين بذلك عما
يخبئونه من جواهر في بطائنها . (وفي امكان من يشدون
في صحة هذه الحكاية كتاريخ أن يقرءوها على انها قصة
رمزية) غير أن ماركو بولو لم يطل الاقامة بين أهله واقربائه .
وكانت البندقية في حرب مع جنوة ولما كانت أسرة بولو من
الأسر الغنية فقد طلب اليها اعداد سفينة للقتال ، وكان
ذلك حتى قبل عودة الرحالة من الاقطار الآسيوية ، وأقلع
ماركو بولو بهذه السفينة قائدا وربانا ضمن الأسطول الذي
خرج بقيادة أندريا واندولو ، الذي هزمه الجنويون قبالة
كرزولا في السابع من سبتمبر ١٢٩٦ ، وحمل ماركو بولو
أسيرا الى جنوة ، حيث بقى بها رغم الجهود التي بذلت
لافتدائه ، لمدة ثلاث سنوات تقريبا ويرجح أنه أملى أثناءها
كتابه بلغة فرنسية ركيكة جدا على شخص اسمه رستكيان
من بيترا ، وهو رفيق له في السجن . ثم عاد الى البندقية

فى خلال عام ١٢٩٩ ، والأرجح أنه تزوج بعد ذلك بمسدة .
قصيرة •

ولا يعرف الا القليل من حياته بعد عودته من السجن •
غير انا نعرف ان القوم اطلقوا عليه كنية « المليونى » بسرة
ما كان يرويه من حداثات مدهشة عن ابهة قبلاى وفخامته •
ولكن نظرا لثرائه وذيوع صيته ، فان تلك الكنية المنطوية على
الاستخفاف ربما كانت تنطوى على المجاملة الى حد ما • وقد
اكتشف الكولونيل بولى المحرر الكبير لكتاب ماركو بولو انه
قام بكفالة أحد مهرى الخمر ، وأنه أعطى نسخة من كتابه
لنبيل فرنسى ، وأنه قاضى وكيلا بالعمولة (قوموسيونجى)
على نصف الأرباح فى صفقة مقدار من المسك • وظن بعض
الناس حيناً من الدهر أنه هو نفسه ماركو بولو الذى قصر
فى (١٣٠٢) فى تكليف سباك (سمكرى) المدينة بتفقد
أنبوبة المياه التى لديه • فقد نقل وزر هذه الخطيئة فى
الأونة الأخيرة الى رجل آخر يحمل نفس الاسم ، وهو رجل
« كان يجهل الأمر الصادر بشأن ذلك الموضوع » • وفى اليوم
التاسع من يناير ١٣٢٤ ، كتب وصيته وقد شعر بأنه يزداد
كل يوم ضعفا ، ولا تزال وصيته هذه باقية الى اليوم •
فجعل الوصاية على تركته فى زوجته دوناتا وبناته الثلاث
اللواتى ترك لهن الشطر الأعظم من أملاكه • ولم يلبث أن
مات بعد قليل من انجاز هذه الوصية • ودفن بالبندقية
خارج باب كنيسة سان لورنزو ، وان كان الموضع المضبوط
للقبر غير معروف • ولا نعرف للرجل صورة يقطع بصحتها ،
ولكنه ، شأن كولبس ، توجد له صور كثيرة من نسج الخيال ،
يرجع تاريخ أحسنها الى القرن السابع عشر •

ولم يقابل كتاب ماركو بولو بالتصديق من معاصريه •
فان الرحالة الذين يشاهدون العجائب ، حتى فى أيامنا هذه
(ولا شك أن اسم بروس مكتشف النيل الأزرق سينظر على
كل بال) فلما صدق حكاياتهم ، أولئك الذين أتيح لهم بعد

أن بقوا فى عقر دارهم ، الحصول على جميع نتائج ثمار فضيلهم . فعندما عاد ماركو بولو من الشرق ، وهو ديار مجهولة تغشاها سحائب الابهام وتمتلىء بالفخامة وصنوف الرعب ، لم يستطع أن يبوح بالحقيقة كلها ، فاضطر أن يروى قصته باقتضاب خشية ألا يجد من يصدقه . ولقى كتابه بين الناس فى الشطر الأخير من العصور الوسطى سرواجا أقل من ترهات وخزعبلات السير جون ماندفيل . ذلك أن ماركو بولو انما يتحدث عما رأى ، فأما جامع حكايات ماندفيل فانه عندما لا يسرق مباشرة من بلينى والراهب أودوريك وغيرهما ، يتحدث عما قد يتوقع شخص جاهل أن يراه ، وما يجب على كل حال أن يقرأ عنه ، وذلك أنه مما يسعد الناس دائما أن يقرهم الغير على رأى يرونه ، مهما ضعف أساس ذلك الرأى . وأكبر شاهد على ضآلة ما لقيه ماركو بولو من تصديق ، أن خريطة آسيا لم تعدل نتيجة لمكتشفاته الا بعد خمسين عاما من وفاته .

وكتابه من أعظم كتب الأسفار . فانه حتى فى هذه الأيام ، وقد انقضت عليه أكثر من ستة قرون ، لا يزال المرجع الرئيسى الثقة فيما يتعلق بأجزاء من آسيا الوسطى والامبراطورية الصينية المترامية الأطراف . أجل، من العسير فى بعض الأحيان تتبع بغض تجولاته ، كما أن من الصعب التعرف على بعض الأماكن التى زارها ، وان أدت جهود الكولونيل بول الى ايضاح معظم الصعوبات وتأكيد معظم البيانات العجيبة التى وردت به . وسيظل كتاب ماركو بولو بالغ الروعة عظيم القيمة لدى كل من الجغرافى والمؤرخ والباحث فى الحياة الآسيوية على السواء . فأما عند القارئ العام فان السحر الأكبر للكتاب يكمن فى طابع الرومانسى .

ويعد التجوال بين الغرباء وتناول خبزهم وطعامهم الى جوار نيران المخيمات فى النصف الآخر من العالم من الأمور الرومانسية . فان فعل ذلك ينطوى على الطابع الرومانسى .

وان بالغ فى تقدير الرومانسية من خلقت فيهم حياتهم
الراكدة تذوقا وميلا كاذبا للفعالية والحركة . وقد جاس
ماركو بولو خلال ديار قوم غرباء ، ولكن الباب مفتوح امام
أى امرئ « أوتى الشجاعة والقدرة على الحركة » أن يحذو
حذوه . والتجوال فى حد ذاته ، ان هو الا ضرب من الاستمتاع
الذاتى فان هو لم يضيف شيئا الى مخزون المعرفة البشرية ، أو
ان هو لم يهيئ لآخرين أن يمتلكوا بأخيلتهم بعض أجزاء من
العالم ، فانه يكون عندئذ عادة ضارة ، ذلك أن اختيار المعرفة
— أى تكديس الحقائق والوقائع لا يكون انجازا نبيلًا الا عند
تلك القلة التى تملك تلك « الكيمياء » التى تحول مثل
ذلك الصلصال اللازب الى ذهب سماوى سرمدى . وربما ظن
بعض الناس أن الكثير من الرحالة منحوا قراءهم ممتلكات
خيالية ضخمة ، ولكن الممتلكات الخيالية لا تقاس بالأميال
والفراسخ ، كما أن سكان ذلك القطر لا يكتبون بيانات عما
لديهم من البهائم والطيور ، اذ أن الرحالة العجيب هو وحده
الذى يبصر الشئ العجيب ، كما أنه لم يبصر العجائب فى
تاريخ العالم كله الا خمسة رحالة فقط — فأما من عداهم
فقد أبصروا الطير والبهائم والأنهار والقفار — فأما الرحالة
الخمسة فهم : هيرودوت (أبو التاريخ) وجاسيار وملكيور —
وبالتأزار وماركو بولو نفسه . ووجه العجب فى ماركو بولو
هو هذا : أنه خلق آسيا خلقا للعقل الأربى .

وعندما ذهب ماركو بولو الى الشرق كانت آسيا الوسطى
بأكملها وهى الشديدة الامتلاء بالأبهة والفخامة ، والبالغة
العجيج بما حوت من أمم وملوك ، أشبه شئ بحلم يطيف
بعقول الناس . فلم يكن الأوربيون يمسون الا حافة الشرق
وحدها . فهناك فى عكا وفى بيزنطة وفى المدن المنهمكة فى
العمل على البحر الأسود — كان تجار أوربا يقايضون الأجنبى
الغريب على أفانين الحرير والجوهر والبلاسم الثمينة التى

تجمل عبر الصحراء بتكاليف باهظة على ظهور القوافل من أرض المجهول ، وكان تصور الناس عامة للشرق يستفي من الكتاب المقدس ، ومما يرويه الصليبيون الشيوخ من حكايات ، ومن كتب التجار . وكل ما كان الناس يعرفونه عن الشرق هو أنه غامض خفى وأن الرب (يعنى السيد المسيح) ولد فيه . أما ماركو بولو الذى يكاد يكون أول أوربي شاهد الشرق ، فقد شهدته بكل ما حوى من عجب ، وبدرجة أوفى وأكمل من أى رجل آخر شاهده حتى يومنا هذا . والصورة التى وضعها لنا عن الشرق هى نفس الصورة التى نكونها فى عقولنا عندما نكرر بأفواهنا كلمتى « بلاد الشرق » ونستسلم تماما للصورة الخيالية التى يستثيرها ذلك الرمز . وربما يحدث ذات يوم – أن العقل الغربى سيعاود الرجوع الى ماركو بولو للتعرف على صورة آسيا بعد أن تتأمر ككائى بزمن طويل .

ومن العسير أن يقرأ المرء ماركو بولو كما يقرأ الوقائع التاريخية ، إذ الحق أن الانسان يقرأه قراءته للقصص الرومانسى ، أى كما يقرأ مثلا قصة أمسية القديس مرقس – أو قصة « البئر عند نهاية العالم » فالشرق الذى يكتب عنه هو شرق قصص الرومانسى وليس شرق « الهندى المتجلنز » – بما له من مصيف فى سملا ومن بعثات الى التبت ومن برقيات « لرويتز » . ففى « شرق » القصص الرومانسى تنمو شجرة « الشمس أو الشجرة الجافة » – التى مر بها ماركو بولو ، وهى ضرب من الصوى أو علامات الطريق عند نهاية الصحراء المترامية وينمو على تلك الشجرة تفاح الشمس والقمر ، وفى ظلها اقتتل دارا والاسكندر وتلك هى الوقائع المهمة عن تلك الشجرة فيما يروى ماركو بولو ونحن المحدثين ، الذين لا يهتمون بأية شجرة بمجرد أن يتمكنوا من التمتة باسمها اللاتينى ، قد فقدنا كل عجب حين ضاع ايماننا .

وقد كان العصر الوسيط ، كدأب عصرنا هذا تماما .
حافلا بالحديث عن الفردوس الأرضى . وربما كان كل
الفرق اننا تقدمنا ، بحيث اصبحنا نتكلم عنه كامكان
اجتماعى ، بدلا من اعتباره حقيقة جغرافية . ويحلوننا ان
نظن ان البنادقة القدماء انطلقوا شرقا فى رحلتهم الشهيرة
وهم لا يكادون يصدقون أنهم سيبلغونه ، مثلما فعل كولبس
(بعد ذلك بقرنين) حيث لم يكذب يتوقع أن يشهد أرضا
«تتوهج فيها الأزهار الذهبية على أشجارها الى أبد الأبدى» .
والحق أنهم لم يجدوا الفردوس الأرضى ، ولكنهم رأوا أبهات
قبلاى وهو من أغنى ملوك الأرض بأسيا ، وان المرء ليحس
بوجود قبلاى فى القصة من أولها لآخرها ، مثلها أن النبىذ
الأحمر اذ يصب فى كأس من الماء - يمتزج به وينتشر فيه
أو مثلما ان السعوط يشد الجواهر فى قلادة ولن يكون الخيال
صحيا الا متى تفكر المرء فى الملكى أو القدسى من الأشياء .
وسيجد القارئ فى قبلاى من الروعة القدر الكافى للمء
معبد عقله بالمجد الشامخ واذن ، فنحن فيما نفكر فى ماركو
بولو ، فائنا فى الواقع انما نفكر فى قبلاى ، وبغض النظر
عن العجيب الرومانتيكى الذى يحيط به ، فانه شخصية
نبيلة ، جديرة منا بالتأمل . فهو أشبه شىء بأحد ملوك
القصص الرومانسى وكان ابداع صورته على ذلك النحو فى
هذا الكتاب واجبا محتما حقا ومما يملؤنا بالفخر والتوقير
لتلك الموهبة الشعرية أن نتفكر كيف أن هذا الملك
- « ملك الملوك » ، وحاكم العدد الوفور من المدن - والعدد
الموفور من البساتين ، والوفرة الكثيرة من برك السمك
ما كان ليصبح الا اسما أجوف أو خيالا تغطيه الرمال ، لو لم
يستقبل بترحاب رحالين تعلوهما الوعشاء ، وفدا عليه ذات
صباح من غياهب المجهول ، بعد تجوال طال فى أقطار
الأرض . ولعله دار بخلده وهو يودعهما (نفس الفكرة التى
دارت بخلد ذلك الملك الذى تذكره القصيدة من أنه ربما

جاء وقت لا يتذكره الناس « الا بهذا الشيء وحده دون غيره »
بعد أن يتجرد من كل أمجاده ويرقد صامتا وقد تغطى وجهه
بالقناع الذهبى فى ظلمة القبر الساجى - عندما خفق
المصباح الذى طالما ظل مضيئا خففته الأخيرة ثم انطفأ ومات.
وأضحى رمادا .

ديسمبر ١٩٠٧

جون ميسفيلد

التعريف بطبعات الكتاب

أملى ماركو بولو - وهو فى الأسر - قصة رحلاته على زميل له فى السجن استنسخت مخطوطاته على يد أفراد آخرين مع اختلافات كثيرة ، ولا تزال باقية لدينا الى اليوم حوالى مائة نسخة من الرحلات تختلف لغة ما بين فرنسية وإيطالية ولاتينية وليس بينها اثنتان متفقتان بالضبط . وصدرت الطبعة المبكرة لأول محرر لأعمال ماركو بولو وهو راموسيو - فى سنة ١٥٥٩ - وقام مارسدن بترجمة انجليزية لهذه الطبعة الايطالية فى سنة ١٨١٨ ، وقال الكولونيل السير هنرى بول - الذى صار فيما بعد خيرا متخصصا فى « ماركو بولو » وهو الذى يشير اليه المستر جون ميسفيلد فى مقدمته ، فى التمهيد الأول الذى صدر به عمله : - « لقد ظلت نسخة مارسدن النسخة المثالية السليمة المترجمة . » فهى والحق يقال عمل رجل حصيف واسع العلم سليم التفكير . » وفى ١٨٥٤ أعد توماس رايت اصدارة اعتمدت على ترجمة مارسدن خصيصا لمكتبة بون ، بها فصول اضافية ، واختصار للهوامش الأصلية ، وهذه الطبعة الصادرة فى مكتبة افرى مان انما هى اعادة طبق الأصل لطبعة مكتبة بون - وقال رايت فى ثنايا مقدمته ما نصه : « ان هوامش مارسدن مطولة الى حد ما » ، « كما أن شطرا طيبا منها لا يتكون الا من تكرارات لبيانات واسناد تؤيد امكان تصديق ما أورده ماركو بولو . » ولما كانت هذه المسألة مفهومة الآن بصورة أعم منها فى عهد مارسدن ، لم تعد لهذه التأييدات أية

ضرورة الآن . ومع هذا فانتى عندما قمت بمقابلة هذه الترجمة على الطبقات الجديدة للنص (فى لغات مختلفة) ، وجدت أن من المرغوب فيه تنقيحها تنقيحا عاما . . ومن ثم فان الفصول الاضافية مترجمة عن النص الفرنسى القديم . وصدرت ترجمة بول لأول مرة فى مجلدين فى ١٩٧١ حاوية لهوامش وصور : كما صدرت الطبعة الثانية المنقحة فى ١٨٧٥ وصدرت الثالثة بتنقيح هنرى كورديار فى ١٩٥٣ ، ثم صدر مجلد آخر الهوامش فى سنة ١٩٢٠ من عمل هنرى كورديار .

مارس ١٩٤٥

وصف الرحلات.

لم يكن البولوان الكبيران ينويان عندما غادرا القسطنطينية في ١٢٦٠ ، تجاوز الحدود الشمالية للبحر الأسود كثيرا - فنزلا أولا بثغر صولدايا « ببلاد القرم » وكانت عند ذاك مدينة تجارية مهمة - ومن صولدايا سارا شمالا وشمالا شرقيا بشرق الى ساره - أو سارا ، وهى مدينة ضخمة على نهر الفولجا كان يقيم بها الملوك كامبوسكان - ثم الى بولجارا أو بول فار التى أقاما بها قرابة السنة .

حتى اذا سارا جنوبا لمسافة قصيرة الى بوكاكا وهى مدينة أخرى على الفولجا ، رحلا الى الجنوب الشرقى رأسا ، عبر الطرف الشمالى لبحر قزوين ، فى مسيرتهم الى بخارى التى دامت ستين يوما ، وفيها أقاما ثلاث سنين ومن بخارى انطلقا مع رجال الخان الأعظم شمالا الى مدينة أوترار ، ثم مضيا عنها فى اتجاه شمالى شرقى الى بلاد الخان قرب بكين - وفى رحلة العودة ، بلغا ساحل البحر عند لياس بأرمينية . ومن لياس ذهبوا الى عكا ، ومنها الى نيجردبونت برومانيا ، ومن نيجردبونت الى البندقية ، التى مكثا بها قرابة السنتين .

وفى المرحلة الثانية الى الشرق ، التى صحبهما فيها ماركو بولو الصغير ، أبحرا رأسا من البندقية الى عكا قرب نهاية عام ١٢٧١ . وقاموا برحلة قصيرة جنوبا الى بيت المقدس ، طلبا للزيت المقدس ، ثم عادوا بعد ذلك الى عكا ، التماسا للخطابات من المندوب البابوى* حتى اذا غادروا عكا

تقدموا حتى لياس بأرمينية ، ومن هناك استدعاهم اليه
 ثانية البابا المنتخب حديثا * وعندما انطلقوا للمرة الثانية
 عادوا أدراجهم الى لياس ، وكانت في ذلك الحين مدينة
 عظيمة - تباع فيها الأفادية والقماش المقصب ، ويبدأ منها
 في العادة التجار المتجهون شرقا وشدوا الرحال من لياس
 شمالا حتى دخلوا تركمانيا ، مارين بقاساريا وسيفاس ، حتى
 أرزنجان ، حيث كان السكان ينسجون قماش البقرم الجاسي
 اللازم لتجليد الكتب - فاذا هم عبروا جبل أرارات الذي
 يقال ان فلك نوح استوت عليه ، سمعوا حكايات عن حقول
 النفط في باكو ومن هنا رحلوا الى الجنوب الشرقي ، في
 معاذة نهر دجلة الى يانداس ، ومن يانداس يبدو أنهم قاموا
 برحلة لا ضرورة لها الى الخليج الفارسي * وهنا يتركنا الكتاب
 نظن أنهم رحلوا بطريق نوريز تبريز (في العراق الفارسي)
 فيزد فكرمان الى ثغر هرمز (أرمز) كأنما انتووا ركوب
 البحر من هناك * على أنهم قد كانوا ليتقدموا أسرع كثيرا لو
 أنهم اتبعوا طريق الدجلة حتى البصرة ، ولو أنهم ركبوا
 منها سفينة على الخليج وأقلعوا بطريق كايس أو كيس الى
 هرمز * وبعد أن زاروا هرمز عادوا الى كرمان بطريق
 آخر ، ثم مضوا قدما فوق صحراء كرمان المالحة الرهيبة ،
 مخترفين خراسان الى بالاكشان ويرجح أن رحلتهم توقفت
 في بالاكشان بسبب مرض ماركو الذي يتحدث عن أنه أقام
 هناك زهاء السنة يوما ما ، لاسترجاع عافيته * وعندما غادروا
 بالاكشان تقدموا عبر جبال البامير العالية الى قشغر ، ثم في
 اتجاه جنوبي شرقي بطريق خوتان - ولم تكن دفنت بعد
 تحت الرمال - الى صحراء جوبي * وتشيع عن صحراء
 جوبي - كما تشيع عن الصحراوات جميعا - شائعات السوء
 بأنها « مسكن للأرواح الشريرة التي لا تبرح تلاحق الرحالة
 باللهو والضحك حتى توردهم موارد التلف » ، وعبر آل بولو
 صحراء جوبي في مدة الثلاثين يوما المعتادة ، متوقفين كل

ليلة الى جوار البرك نصف المالحة أو نصف العذبة التي تجعل
القيام بالرحلة ممكنا ، وما ليتوا وقد عبروا الصحراء ، حتى
دخلوا الصين سريعا . ولعلمهم اقاموا في شان شاو ، وهي من
أوائل المدن الصينية التي زاروها ، ما يقارب السنة ، « بسبب
مشاغلهم » ولكن المرجح أن هذه الإقامة حدثت فيما بعد ،
وهم في خدمة قبلاى وعندئذ عبروا ولاية شن سى - الى ولاية
شان سى - الى آن وصلوا في النهاية الى كاي ينج فو ، التي
أقام بها قبلاى حديقة مسراته الصيفية .

وفي رحلة العودة أقلع آل بولو من مدينة زيتوم بولاية
فوكييهن . وسارت السفينة ملازمة للشاطئ الصيني ،
(تجنباً لحاجزى براناس وبراسل المرجانيين) ، وعبرت
خليج نتيكين (تونج كنج) الى تشامبا في جنوب شرق كمبوديا .
ولعلمهم بعد أن غادروا تشامبا أقاموا ببورنيو إقامة قصيرة ،
ولكن الأرجح أنهم أقلعوا رأساً الى جزيرة بنتانج عند قمم
مضيق ملقة (ملقا) فالى سومطرة ، حيث تعطل الأسطول
خمسة أشهر بسبب هبوب الرياح الموسمية المضادة . ويبدو
أن السفن انتظرت تغير الرياح الموسمية في مرفأ على الشاطئ
الشمالى الشرقى لمملكة سومطرة ، حتى اذا واتتهم ريح مروا
أمام جزر فيقوبار واندامان ، ثم وجهوا مجرى السفينة
سيلان - ثم انطلقوا عبر البحر الى ساحل كورومانديل وربما
لزموا ساحل بدراناس فى اتجاههم شمالاً حتى ليبانام . وعند
ساحل بمباى يبدو أنهم احتضنوا الشاطئ جهد امكانهم
حتى مدينة سورات فيما يحتمل ، وهي تقع فى خليج كامباى ،
على أنه من المحتمل بالمثل أن تكون أوصاف هذه الأماكن نقلت
عن أقاصيص الملاحين ، وأن الأسطول خرج بعيداً فى عرض
البحر مجابها لجأته تجنباً لقراصنة الشواطئ .

ويطيل ماركو بولو الحديث عن مدينة عدن وعن مدن
تقع على سواحل بلاد العرب ، ولكن المرجح أن الأسطول لم يرس
عليها قط - وكل ما نعرفه يقينا هو أنهم وصلوا الى هرمز ،

على الخليج الفارسي ثم توجهوا في داخل البلاد الى خراسان -
وعند مغادرتهم خراسان سافروا بها مخترقين بلاد فارس
وأرمينية الكبرى ، حتى بلغوا ترابيزون على البحر الأسود
(البوكسين) ومن هناك ركبوا السفن وأقلموا بحرا الى
البحرديقة وطنهم بعد أن رسوا أولا بالقسطنطينية ثم
نجرو بونت . « وكان ذلك في عام ١٢٩٥ مع تجدد المسيح » .

جون ميسفيلد

تمهيد

أيها الأباطرة والملوك والأدواق والمراكيز واللوردات والفرسان وكل من شاء من الناس معرفة تنوعات الأنجناس البشرية ، فضلا عن تنوعات الممالك والولايات والأقاليم بكل أجزاء بلاد الشرق * * اقرءوا هذا الكتاب من أوله لاخره فستجدون فيه أعظم وأعجب خصائص الشعوب ولا سيما شعوب أرمينية وفارس والهند وبلاد التتار على ما تروى بأشكالها المتعددة فى هذا العمل الذى وضعه ماركو بولو ، وهو مواطن عالم حكيم من البندقية يبين فيه بوضوح ما شاهد بنفسه من أشياء وما سمع من غيره من أشياء ، ذلك أن هذا الكتاب سيكون كتابا رائده الصدق - وينبغى أن يعلم اذن أنه منذ خلق آدم الى يومنا هذا ، لم ير انسان وثنيا كان أم مسلما أم مسيحيا أم من أية ملة أخرى ، ومهما يكن جنسه أو جيله ، ولا استعلم عن مثل هذا العدد الضخم وذلك النوع من الأشياء العظيمة ، مثلما رأى واستعلم ماركو بولو سالف الذكر وهو الذى اذ رغب فى دخيلة أفكاره أن الأشياء التى قد رأى وقد سمع تعلن على الملأ بواسطة العمل الحالى من أجل مصلحة أولئك الذين لم يستطيعوا مشاهدتها بأعينهم - فانه هو نفسه وقد كان فى عام ١٢٩٥ من أعوام سيدنا (المسيح) سجيناً بمدينة جنوة - جعل الأشياء التى يحتويها العمل الحالى تكتب على يد السيد/ستييجيلو - وهو مواطن من بيزا - كان معه نزيلا بنفس السجن فى جنوة كما أنه قسمه أقساما ثلاثة *

الفصل الأول

قسم ١ - ينبغي أن يكون معلوما لدى القارئ انه حدث،
فى الوقت الذى كان فيه بالدوين الثانى امبراطورا على
القسطنطينية (١) يوم كان يقيم مأمورا يمثل دوج البندقية
بها (٢) وفى عام سيدنا الرب ١٢٥٠ (٣) ، أن اعتلى نيقولو
يولو - والد ماركو المذكور ، ومعه مافيو شقيق نيقولو -
وهما رجلان محترمان واسعا المعرفة ، متن سفينة يملكانها ،
ومعهما شحنة غنية ومتنوعة من مختلف البضائع حتى بلغا
القسطنطينية سالمين * *

وبعد البحث بندبر وروية فيما ينبغي عمله رأيا أن خير
ما يحتمل أن يعود عليهما بتحسين رأسمالهما ، هو أن يواصلا
رحلتهم فى بحر البوكسين أو البحر الأسود (٤) واقتناحا
بهذا الرأى اشتريا كثيرا من الجواهر البديعة الفسالية
الثلثم (٥) حتى اذا غادرا القسطنطينية ، أبحرا فى ذلك
البحر الى ميناء يسمى صولدايا ، ومنها سافرا على ظهور
الخيول لمدة عدة أيام حتى بلغا بلاط أمير قوى ببلاد التتار
الغربية اسمه بركة (٦) *

وكان يسكن فى مدينتى بلجارا وايارا (٧) ، وهو من أشد
من عرف بين قبائل التتار حتى آنذاك * * من الأمراء تحررا
وتمدينا * فأبدى ارتياحا كثيرا لوصول الرهاين * *
واستقبلهما بمظاهر الحفاوة والتكريم * وفى مقابل
ما غمرهما به من مجاملة ، فانهما عندما وضعا بين يديه
الجواهر التى أحضراها معهما وأدركا أن جمالها قد سره ،
عرضا عليه قبولها * وملاء ما فى هذا السلوك من جانب

الأخوين من ساحة وأريحية بالاعجاب ولم يشأ أن يبزاه في الكرم - فلم يكتف بأن يأمر بأن يدفع اليهما ضعف قيمة الجواهر ، بل قدم اليهما فوق ذلك عدة هدايا نفيسة .

فلما ان قضى الاخوان سنة كاملة فى ديار هذا الأمير ، راودهما الحنين الى زيارة مسقط رأسهما ثانية ، ولكن عاقهما نشوب الحرب فجأة بين أميرها وأمير آخر يسمى آلاءو (Alau) وكان حاكما على التتار الشرقيين (٨) ونشبت بين جيشيهما معركة دموية شرسة ، انتصر فيها آلاءو ، وكانت عاقبة ذلك أن أصبحت الطرق غير مأمونة على الرحالة فلم يستطع الأخوان محاولة العودة بالطريق التى جاء منها ، وأشار عليهما بعضهم أن الوسيلة العملية الوحيدة للوصول الى القسطنطينية هى المضى أماما فى اتجاه الشرق ، فى طريق غير مطروق ، بحيث يدوران حول ممتلكات بركة وتبعها لذلك ، اتخذوا طريقهما الى مدينة تدعى « أوكاكا » (٩) - وهى تقع على تخوم مملكة التتار الغربيين - حتى اذا غادرا ذلك المكان وزادا تقدما الى الأمام ، عبرا نهر دجلة (١٠) أحد أنهار الفردوس الأربعة حتى وصلا الى صحراء امتدادها رحلة سبعة عشر يوما (١١) ، فلم يجدا فيها مدينة ولا حصنا ولا أى بناء ذى قيمة ، وكل ما وجداه هو تثار معهم قطعانهم يسكنون خياما فى منبسط الوادى - حتى اذا قطعوا هذه الشقة ، بلغوا فى النهاية مدينة حسنة البنيان تسمى نجارا (١٢) ، تقع بولاية بهذا الاسم ، وتتبع الممتلكات الفارسية ، كما أنها أجمل مدينة فى تلك المملكة ويحكمها أمير اسمه براق - وهنا عجزا عن التقدم خطوة الى الأمام فألبأهما ذلك الى التريث ثلاث سنوات .

وتصادف وهذان الاخوان فى نجارا، أن ظهر بها شخص (١٣) له اعتباره ومكانته أوتى مواهب رفيعة وكان يتقدم فى

طريقه كسفير من آلاعو سالف الذكر الى الخان الأعظم ،
 الرئيس الأعلى للتتار جميعا ، والمسمى قبلاى (١٤) والذي
 يقع مقر حكمه عند الطرف الأقصى للقارة فى اتجاه بين
 الشمال الشرقى والشرق (١٥) . ولما تصادف أنه لم تتج له
 من قبل فرصة لقاء أى واحد من سكان ايطاليا ، وان تاق الى
 ذلك ، فقد سره كثيرا أن يقابل هذين الأخوين ويتحدث
 اليهما ، خاصة وقد اتقنا آنئذ لغة التتار ، وبعد أن اختلط
 بهما لمدة عدة أيام - ووجد أخلاقهما مرضية له ، اقترح
 عليهما أن يصحبا ليمثلا بين يدى الخان الأعظم الذى لا بد
 أنه سيسر بظهورهما فى بلاطه ، الذى لم يزره حتى آنذاك
 أى فرد من بلادهما . مضيفا الى ذلك تأكيدات من عنده
 بأنهما سيلقيان حسن الاستقبال ويكافآن بأحسن الهبات .
 ونظرا لاقتناعهم التام أن محاولتهما العودة الى بلادهما
 ستعرضهما لأفدح المخاطر ، فانهما وافقا على هذا الاقتراح
 واذا سلما نفسيهما لرعاية القوى القاهر ، فانهما انطلقا
 فى رحلتهم بين حاشية السفير - يسهر على خدمتهما عدة
 خدم مسيحيين أحضراهم معهما من البندقية . وامتد الطريق
 الذى سلكاه أولا بين الشمال الشرقى والشمال ، وانقضت
 سنة كاملة قبل أن يتمكننا من الوصول الى المقر الامبراطورى ،
 وذلك نتيجة للتأخيرات غير العادية التى - نجمت عن الثلوج
 وفيضان الأنهار ، وهو ما اضطرهما الى الانتظار حتى ذاب
 الثلج وحتى انخفضت الفيضانات . وقد لحظا أثناء مسيرهما
 فى رحلتهم أشياء كثيرة جديدة بالاعجاب ، ولكنها حذفت
 هنا نظرا لأنها ستوصف بقلم ماركو بولو ، فى سياق
 قسم (٢) : ولما قدم الرحالان الى حضرة الخان الأعظم
 قبلاى تلقاهما بالتعطف والتنازل والبشاشة التى يتحلى بها
 خلقه ، ونظرا لأنهما كانا أول من ظهر بتلك البلاد من
 اللاتين ، فقد أقيمت لهما المآدب وشرفا بآيات تكريم أخرى .
 وانخرط الامبراطور بتعطف فى الحديث معهما فاستفسر

استفسارات جادة حول موضوع القسم الغربى من العالم كما سألهما عن امبراطور الرومان (١٦) وعن غيره من الملوك والامراء المسيحيين . وأراد أن يتلقى المعلومات عن المكانة النسبية لكل منهم وامتداد ممتلكاتهم والطريقة التى يقيم بها ميزان العدل فى ممالكهم واماراتهم العديدة ، وكيف تصرفهم وسلوكهم أثناء الحرب ، وسألهما فوق كل شيء أسئلة تتعلق بوجه خاص بالبابا وشئون الكنيسة وما لدى المسيحيين من العبادات الدينية والمذاهب ، ولما كانا من الحصفاء الواسعى العلم فانهما قدما اجابات مناسبة حول هذه المسائل جميعا ، ولما كانا يجيدان لغة التتار : (المغول أو المغل) على أحسن وجه ، فانهما كانا يعبران عن نفسيهما دوما بأوفق عبارة ، بحيث ان الخان الأعظم ، وقد وضعهما موضع التقدير الكبير ، كثيرا ما كان يأمر بادخالهما عليه .

حتى اذا حصل منهما على جميع المعلومات التى قدمها اليه الاخوان بعقل راجح لبيب ، عثر عما يخالجه من الرضى التام ، وبعد أن رسم فى خلدته خطة استخدامهما سفيرين له لدى البابا ، بعد استشارة وزرائه فى الموضوع - اقترح عليهما فى رجاء كله تल्प ورقة - أن يصحبا أحد رجاله المدعو خوجاتال فى بعثة الى الكرسي البابوى بروما . وأبلغهما أن هدفه من ذلك هو أن يقدم الى قداسته التماسا أن يرسل اليه فئة من رجال العلم ، أوتوا المعرفة التامة بمبادئ الديانة المسيحية ، فضلا عن الفنون السبعة وتأهلوا بالقدرة على ان يثبتوا لعلماء ممتلكاته بالجدل المقنع والحجة العادلة ، أن العقيدة التى يعتنقها المسيحيون تفوق ، وتقوم على صدق أوضح من كل عقيدة خلافا ، وأن آلهة التتار والأوثان التى تعبد فى منازلهم ان هى الا أرواح شريرة ، وأنهم فضلا عن سكان الشرق جملة ، واقعون تحت تأثير الخطأ بتوقيعهم اياها كآلهة ، وعلاوة على هذا فانه أشار الى ما سيخالجه من سرور ان هما عند العودة جلبا معهما من بيت المقدس ، شيئا من الزيت

المقدس من المصباح الذى لا يبرح متقددا على الدوام فوق ناووس السيد يسوع المسيح ، الذى اعترف بأنه يكن له اجلالا وانه يعده (الرب) (١٧) الحق . وما ان سمعا هذه الاوامر تلقى اليهما من قم الخان الأعظم ، حتى خرا ساجدين بخضوع أمامه على الارض ، معبرين عن تقبلهما عن طيب خاطر واستعدادهما الفورى ، أن ينفذا بأقصى ما يستطيعان الارادة الملكية مهما تكن . وعند ذلك أمر بأن تكتب كتب باسمه باللغة التترية الى بابا روما وسلمهما اياها فى أيديهما وأصدر أوامره أيضا أن يسلم لوحة من الذهب عليها الطغراء (١٨) الامبراطورى ، طبقا للعادة المرعية التى أسسها جلالته ، وبفضلها ينقل الشخص الذى يعملها - ومعه حاشيته بأكملها ويحرسون بسلام من محطة يريد الى أخرى بواسطة محافظى (حكام) - جميع الأماكن داخل الممتلكات الامبراطورية ، كما يحق لهم أثناء مدة اقامتهم بأية مدينة أو قلعة أو بلدة أو قرية التزود بما يلزمهم من مؤن والحصول على كل ما يوفر لهم أسباب الراحة .

حتى اذا تم تكليفهما بهذا الشرف ، استأذنا الخان الأعظم فى السفر ، وانطلقا فى رحلتهم ولكنهما لم يكادا يتقدمان فى رحلتهم أكثر من عشرين يوما ، حتى أصيب الموظف المسمى خوجاتال رفيق رحلتهم بمرض خطير بالمدينة المسماة ألاو (١٩) وفى هذه الملمة استقر العزم بعد استشارة كل من حضر وبموافقة الرجل نفسه ، على وجوب تركهما له ، وبمواصلتهما رحلتهم أفادا فائدة جوهرية من تزودهما باللوحه الملكية ، التى وجهت اليهما الاهتمام فى كل مكان مرافيه .

ودفعت عنهما جميع نفقاتهما وزودا بالحراس . على أنه رغم هذه المزايا ، فناهيك بضخامة الصعوبات التى اضطررا الى ملاقاتها ، بسبب البرد القارس والثلج والجليد وفيضان الأنهار ، بحيث أن أصبح تقدمهما مضجرا لا محالة ،

وانقضت سنوات ثلاث قبل أن يتمكننا من بلوغ مرفأ على البحر في ارمينيا الصغرى يسمى لاياسوس (٢٠) - ورحلا من هناك بحرا ، فوصلا الى عكا (٢١) في شهر أبريل ١٢٦٩ وهناك علما ببالغ الكدر - ان البابا كلمنت الرابع توفى من زمن قريب (٢٢) - وكان يقيم في عكا (٢٣) قاصد رسولى (مندوب بابوى) عينه البابا اسمه نيبالدو ده فسكوئنتى وفى بياتشيزا ، فأبلغناه بالأمر الذى يحمله من الخان الأعظم لبلاد التتار فنصحهما بكافة الوسائل بالانتظار حتى يتم انتخاب بابا تان ، حتى اذا تم ذلك ، واصلا القيام بسفارتهما - فوافقا على هذه المشورة - وعولا على الاستفادة من فترة الانتظار بالقيام بزيارة لأسرتيهما فى البندقية - وبناء على ذلك ركبا من عكا سفينة متجهة الى نجروبولنت ، ومنها واصلا السفر الى البندقية وهناك وجد نيقولو بولو أن زوجته التى تركها حبلى عند رحيله ، قد ماتت ، بعد أن وضعت له ابنا اسمه «ماركو» وبلغ عمره الآن تسعة عشر عاما (٢٤) وذلك هو ماركو الذى وضع الكتاب الحالى والذى سيروى فيه قصة جميع تلك الأمور التى كان لها شاهد عيان -

قسم (٢) وفى الحين نفسه حالت عوائق كثيرة دون انتخاب بابا جديد، حتى لقد اضطرا أن يمكثا سنتين بالبندقية وهما ينتظران على الدوام اتمام تلك العملية (٢٥) وعندما ساورهما فى نهاية الأمر خوف من أن يستاء الخان الأعظم من تأخرهما، أو يظن أنهما لا ينويان معاودة زيارة بلاده ، رايأ من الحكمة العودة الى عكا - وفى هذه المرة اصطحبا معهما الصغير ماركو بولو - وقام الثلاثة بزيارة بيت المقدس بموافقة من المندوب البابوى وهناك تزودوا بشيء من الزيت الخاص بقنديل الناووس المقدس - طبقا لتعليمات الخان الأعظم وما كان أن حصلوا على رسائله الموجهة الى ذلك الأمير التى تشهد بما أبدوا من اخلاص فى تنفيذ ما أمرهم به ،

والتي توضح له أن بابا الكنيسة المسيحية لم ينتخب بعد، حتى تقدموا الى مرفا لابسوس انف الذخر على انهم ما كادوا يرحلون حتى تلقى المندوب البابوي رسلا من ايطاليا ، أرسلهم مجمع الكرادلة - يعلنون اليه ارتقاءه هو نفسه للكرسى البابوي * وعندئذ اتخذ اسم جريجورى العاشر (٢٦) - واذا رأى أنه أصبح فى مركز يؤهله تماما للاستجابة لرغبات العاهل التتارى ، فانه سارع بارسال بعض الرسائل الى ملوك أرمينية (٢٧) ، مبلغا أباه نبأ انتخابه ، وملتصا ، ان كان السفيران اللذان كانا فى طريقهما الى بلاط الخان الأعظم لم يبرحا بعد مملكته ، أن يصدر الأوامر بعودتهما فورا * ووجدتهما هذه الرسائل مقيمين بعد فى أرمينية ، فعجلا تلبية لدعوته بالعودة ثانية الى عكا ومن أجل ذلك زودهما الملك بغليون مسلح - مرسلا فى الحين نفسه سفيرا من قبله لتقديم تهانيه للحبر ذى السيادة * -

وعند وصولهما استقبلهما قداسته استقبالا ممتازا وبادر بإرسالهما توا برسائل بابوية مع راهبين من « هيئة الوعاظ » ، تصادف وجودهما فى نفس المكان ، وهما رجلان جمعا بين التبحر فى الأدب والعلم فضلا عن التعمق فى اللاهوت وكان اسم أحدهما مزا (الراهب) نيقولودا فينشزا والآخر مرا (الراهب) جيلمو واتريبول ، فمنحهما الرخصة والسلطة لرسم القسس والأساقفة ولنح النحلة بكامل ما يستطيع هو فعله بشخصه * ثم حملهما أيضا هدايا ثمينة ، بينها عدة زهريات بديعة من خالص البلور ، ليقدماها باسمه الى الخان الأعظم ، المكتملة ببركاته * وبعد أن استأذناه ، عادا فسارا بسفينتهما الى ميناء لابسوس (٢٨) ، حيث نزلا ثم تقدما منها الى اقليم أرمينية وهناك علما بأن سلطان (سلعنان) بابل المسمى بالبندقدارى ، غزا البلاد الأرمينية بجيش عرمرم وانه اجتاح البلاد وأحالتها خرابا الى حد كبير (٢٩) - وداخل الرعب الراهبين لهذه الروايات وخشيا

على حياتهما من المهالك - فقررا عدم مواصلة السير ، وسلمنا
للبنادفة الرسائل والهدايا التي حملهما اياها البابا ووضعنا
نفسيهما تحت حماية عميد فرسان المعبد (٣٠) وعادا معه الى
الساحل مباشرة - وعبر نيقولو ومافيو وماركو ، وهم الدين
لا ترهبهم المخاطر ولا الصعاب (لطول ما تمرسوا بها) -
حدود ارمينية ، وواصلوا رحلتهم وبعد عبور صحراوات
يمتد فيها السير عدة أيام واجتياز شعاب ضيقة خطرة كثيرة ،
تقدموا مليا فى اتجاه بين الشمال - الشرقى والشمال ، حتى
حصلوا فى النهاية على معلومات عن الخان الاعظم ، الذى
جعل مقر حكمه آنذاك بمدينة ضخمة وفخمة تسمى كلييه
من فو (٣١) - واستغرقت رحلتهم بكاملها الى هذا المكان
مالا يقل عن ثلاث سنوات ونصف السنة ولكن تقدمهم فى
أثناء شهور الشتاء لا يكاد يذكر (٣٢) - ولأن الخان الأعظم
تلقى اخطارا باقترابهم من بلاده - وهم بعد على بعد كبير -
ولادراكه بمدى ما قاسوه من تعب شديد ، فانه أرسل اليهم
من يستقبلهم على مسافة رحيل أربعين يوما ، وأصدر أوامره
بأن يعد لهم فى كل مكان يمرون به كل ما يلزم راحتهم فبهذه
الوسائل ، وبركات الله عليهم نقلوا فى أمان الى البلاط
الملكى .

قسم (٤) واستقبلهم الخان الأعظم عند وصولهما بكل
عطف وتكريم وحوله مجموعة كاملة من كبار القواد
والموظفين - حتى اذا اقتربا من شخصه ، قدما اليه احترامهما
بان يخرأ أمامه على الأرض ساجدين فأمرهما على الفور
بالنهوض ، وبأن يقصا عليه الظروف التى أحاطت بهما فى
رحلاتهما ، مع جميع ما جرى أثناء مفاوضاتهما مع قداسة
البابا - والى حديثهما الذى روياء بالتسلسل المنتظم للأحداث ،
وقدماه بلغة سهلة واضحة ، أصفى الامبراطور فى صمت
وانتباه - وعندئذ وضعت بين يديه رسائل البابا جريجورى
وهداياه - وعندما قرئت عليه الرسائل ، أنعم بالاطراء الكثير
على ولاءسفيريه وحميتهما وشدة جدهما وتلقى بالتوقير الواجب

الزيت المجلوب من القبر المقدس ، ثم أصدر تعليماته بالاحتفاظ به بعناية ملؤها التقوى - وعندما لحظ وجود ماركو بولو واستفسر عن يكون أجابه نيقولو : « انه خادمك وابنى » . وعندها أجاب الخان الأعظم : « مرحبا به ومسرة بمقدمه » وأمر به فضم الى قائمة أتباع الشرف فى حاشيته . وأقام لمناسبة عودتهم وليمة كبيرة حملت بالابتهاجات والتفاريح . ولم يبرح الاخوان المذكوران ومعهما ماركو يلقون ما أقاموا فى بلاط الخان الأعظم من التكريم ما يكاد يفوق ما يلقاه رجال بلاطه أنفسهم ، ووضع ماركو موضع الاحترام والتقدير الكبير من كل من ينتسب الى البلاط ، ولم يمض طويل زمن حتى تعلم آداب التتار وأعرافهم وأخذ بها نفسه ، وحقق أربع لغات مختلفة تمكن منها قراءة وكتابة (٣٣) . ولما وجده مولاه صاحب مواهب على هذا النحو رغب فى أن يضع مواهبه - بتولى الأعمال - موضع الاختبار ، وبعث به فى مهمة هامة للدولة الى مدينة تسمى كارازان (٣٤) ، تقع على بعد رحلة ستة أشهر من المقر الامبراطورى وفى تلك المناسبة تصرف بحكمة وحصافة بالغة فى تدبير الشئون التى وكلت اليه بحيث أصبحت خدماته موضع القبول الكبير . وعمد ماركو من جانبه ، وقد أدرك أن الخان كان يجد متعة كبيرة فى الاستماع الى كل ما هو طريف حول أعراف الشعوب وعاداتها والامام بالظروف العجيبة للأقطار النائية الى أن يحاول حيثما ذهب ، الحصول على معلومات صحيحة حول تلك الموضوعات وتدوين الملاحظات حول كل ما رأى وما سمع ، لكى يشبع ما طبع عليه مولاه من حب الاستطلاع . وخلاصة القول أنه تمكن أثناء السنوات السبع عشرة (٣٥) التى قضاها فى خدمته من جعل نفسه عظيم النفع ، حتى أصبح يستخدم فى مهام سرية تحتاج الى ثقة خاصة بكل أرجاء الامبراطورية وما يتبعها من دول .

وكان فى بعض الاحيان يسافر ايضا على حسابه الخاص ، ولكن ذلك كان دائما برضاء الخان الاعظم وباقرار من سلطته ومشيتته ، ففى تلك الظروف آتحت لماركو بولو فرصة لاكتساب معرفة بأشياء كثيرة لا حصر لها ، اما عن طريق مشاهداته الخاصة أو مما جمعه من الآخرين ، وهى أشياء ظلت حتى زمانه مجهولة - عن الاصقاع الشرقية من العالم ، أشياء دونها بقلمه بجد وانتظام ، كما سيتجلى ذلك فى « سياق » الكتاب وحصل بهذه الوسيلة على قدر كبير من التكريم والتشريف أثار غيرة موظفى البلاط الآخرين -

قسم (٥) الآن وقد اقام هؤلاء البنادقة تلك السنوات الكثيرة فى البلاط الامبراطورى، وحققوا فى ابان تلك الفترة ثروة طائلة ، قوامها الجواهر النفيسة والذهب الابريز فانهم أحسوا برغبة ملحة فى زيارة وطنهم الأصلي - ومهما يبلغ من اكرامهم وتدليلهم على يد الماهل الأكبر، فان تلك العاطفة كانت متسلطة دوما على عقولهم ثم ازدادت تلك الرغبة الحاحا وصارت شغلهم الشاغل ، كلما قلبوا الفكر حول شيخوخة الخان الأعظم الذى لو حدثت وفاته قبل رحيلهم عن البلاط ، لحرموا من تلك المساعدة العامة (الحكومية) التى يستطيعون بها وحدها التغلب على ما يقابلهم فى رحلتهم الشديدة الطول من صعوبات لا حصر لها ولا عد ، وأن يبلغوا ديارهم سالمين وهو أمر يحق لهم عقلا أن يؤملوا حدوثه لو تم فى أيام حياته وبفضل مرضاته - وبناء على هذا انتهز نيقلو بولو فرصة ذات يوم وقد لحظ عليه انشراحا أكثر من المعتاد ، فانطرح عند قدميه والتمس منه باسمه واسم عائلته أن يحظوا باذن كريم من جلالته بالرحيل - ولكنه بدلا من ابداء الاستعداد لقبول ذلك الملتمس بدا عليه - الاستياء من الالتماس ، وسأل عن الدافع الذى يمكن أن يراودهم حتى يرغبوا فى تعريض أنفسهم لجميع المتاعب والمخاطر التى سيتعرضون لها فى رحلة قد يفقدون فيها حياتهم قال :

فان كان غرضهم الغنم والكسب ، فانه لعل استعداد
لاعطائهم ضعف أى قدر امتلكوه ، وأن يعمرهم بالتشريف الى
أقصى مدى يرغبونه ولكنه نتيجة للاحترام الذى يكنه لهم ،
لايد له من رفض ملتسمهم رفضا باتا .

وتصادف أنه ماتت قرب تلك المدة الملكة بولجانا (٣٦)،
زوجة ارغون (٣٧) عاهل بلاد الهند ، وعلى سبيل الرغبة
الآخيرة (التى تركتها أيضا بشكل مستند كتابي) - ناشدت
زوجها ألا تخلفها أية امرأة أخرى فى عرشه وعاطفته لا تكون
سليلة من حرائر أسرتها التى كانت تقيم آنذاك فى ممتلكات
الخان الأعظم (٣٨)، بقطر كاثاى (٣٩) - واذ رغب أرغون فى
الاستجابة لهذا الرجاء الجاد ، فانه أرسل ثلاثة من أشrafه ،
وهم رجال من الحصفاء المتزنين كانت أسماؤهم بولاتيا
وأبوسكا وجوزا (٤٠) - تحيط بهم حاشية كثيرة العدد ،
ليكونوا سفراء الى الخان الأعظم ، مع مناشدته أن يتلقى
على يديه عذراء تكون زوجة له من بين أقرباء ملكته
المتوفاة - وقوبل الالتماس بقبول حسن ، ووقع الاختيار
تحت اشراف جلالته على أنسة فى السابعة عشرة من عمرها
بارعة الجمال فائقة التهذيب - اسمها كوجاتين (٤١)، وافق
عليها السفراء ملء قلوبهم عندما عرضت عليهم ،
حتى اذا تمت جميع الاستعدادات لرحيلهم ، وعينت
لمصاحبتهم حاشية كبيرة من الأتباع تشريفًا للزوجة المقبلة
للملك أرغون تلقوا من الخان الأعظم وداعا كريما ،
وخرجوا من رحلة العودة فى نفس الطريق التى منها جاءوا
على أنهم بعد مسيرة ثمانية أشهر حيل بينهم وبين التقدم
اذ سد الطرق أمامهم ، اندلاع الحروب من جديد بين أفراد
القتار (٤٢) ، فأكروهوا على الرغم منهم الى اتخاذ اجراءات
العودة الى بلاط الخان الأعظم ، وعرضوا عليه المعوقات
التى اعترضت سبيلهم . .

وتصادف أن عاد ماركو بولو قرب وقت رجوعهم الى
القصر من رحلة قام بها مع بضع سفن تحت امرته ، الى
بعض أجزاء الهند الشرقية (٤٣) ، وأبلغ الخان الأعظم -
الانبياء التى أتى بها فيما يتعلق بالأقطار التى زارها مع
تبيان الظروف التى أحاطت برحلته البحرية ، التى قال عنها
انها تمت فى تلك البحار بالسلامة التامة . وما كادت هذه
الملحوظة الأخيرة تطرق مسامع السفراء الثلاثة ، الذين
كانوا فى أشد القلق مدة ثلاث سنوات - حتى عقدوا لقاء
مع بنادقتنا ، فوجدوهم لا يقلون عنهم رغبة فى العودة لزيارة
بلادهم . وتم الاتفاق بينهم أن يلتمس الأولون ومعهم
ملكتهم الصغيرة - المشول بين يدي الخان الأعظم - وأن
يعرضوا عليه مدى الراحة والأمن اللذين ستنتم فى ظلهم
عودتهم بحرا الى مملكة مولاها وذلك بينما ستكون الرحلة
أقل نفقة من الرحلة برا (٤٤) - كما تتم فى زمن أقصر .
وذلك طبقا لخبرة ماركو بولو ، الذى أبحر فى الآونة الأخيرة
بتلك الأرجاء . فلو رأوا من جلالته ميلا الى الموافقة على
استخدامهم طريقة الانتقال البحرى تلك ، فان عليهم عندئذ
أن يحثوه على السماح للأوربيين الثلاثة بمرافقتهم فى
رحلتهم لما هم عليه من مهارة فائقة فى شئون الملاحة ، حتى
يصلوا الى ممتلكات الملك أرغون . وبدأت على وجه الخان
الأعظم عند تلقيه هذا الالتماس علائم الاستياء البالغ وذلك
لشدة عزوفه عن الافتراق عن البنادقة . غير أنه قد أحس
مع ذلك أنه لا يجمل به الا أن يوافق ولم يسعه الا الاذعان
للمتمسهم . ولولا أنه وجد نفسه ملزما بحكم أهمية هذه
الحالة الخاصة والحاحها ، لما استطاعوا الحصول منه بأى
وجه آخر على الاذن لهم بالانسحاب من خدمته . ومع ذلك
فانه أرسل اليهم وخاطبهم فى قدر كبير من الرفق والتنازل،
مؤكدًا لهم تقديره ومطالبها اياهم بأن يعدوه بالعودة اليه
مرة ثانية ، بعد قضاء مدة فى أوروبا والاقامة مع عائلتهم.

ردحا من الزمن . وأمر بهم - وهذا الهدف أمامه رأى العين -
 فزودوا باللوحة الذهبية (أو النوط الملكي) - التى تحمل
 امره بحصولهم على وسائل الارتحال المجانية وكفالة سلامة
 الامن لهم فى كل ارجاء ممتلكاته ، وتزويدهم بكل ما يلزمهم
 من مؤن لانفسهم وأتباعهم ، ثم أعطاهم بالمثل الحق فى
 التصرف بصفتهم سفراء لدى البابا ، وملوك فرنسا وأسبانيا
 وغيرهم من الأمراء المسيحيين (٤٥) .

وفى الحين نفسه - أعدت العدة لتجهيز أربع عشرة
 سفينة ، لكل منها أربع ساريات ولكل منها القدرة على
 الاقلاع بتسعة قلوب (٤٦) ، ويحتاج بناؤها وتزويدها
 بالأشعة والصواري الى وصف مسهب ، ولكنه ، رغبة فى
 عدم الاطالة ألغى مؤقتا . وكان بين هذه السفن أربع او
 خمس على الأقل عليها بحارة عدتهم مائتان وخمسون او
 مائتان وستون . وفى تلك السفن نزل السفراء وقد وضعوا
 الملكة فى حمايتهم ومعهم نيقولو ومافيو وماركو بولو ،
 وبعد ما استأذنوا أولا فى السفر من الخان الأعظم الذى
 أهداهم كثيرا من أحجار الياقوت ، فضلا عن جواهر أخرى
 نفيسة كثيرة ذات قيمة عظيمة ، ثم أصدر توجيهاته كذلك بأن
 تزود السفن بالخزين والمؤن الكافية لمدة سنتين (٤٧) .

ق ٦ - وبعد رحلة دامت ثلاثة أشهر وصلوا الى جزيرة
 تقع على اتجاه جنوبى ، تسمى جاوة (٤٨) ، وفيها شاهدوا
 أشياء متنوعة جديدة بالالتفات ، وستكون موضع الملاحظة
 فى سياق الكتاب . وبانطلاقهم من ذلك المكان استغرقوا ثمانية
 عشر شهرا فى البحار الهندية قبل أن يتمكنوا من بلوغ المكان
 الذى يقصدونه ببلاد الملك أرغون (٤٩) ، وفى أثناء هذا
 الجزء من رحلتهم أيضا ، أتاحت لهم فرصة لاحظوا فيها
 كثيرا من الأشياء ، ستروى بالمثل فيما بعد . على أنه ربما
 جاز هنا أن نذكر أنه بين يوم رحيلهم ويوم وصولهم لقى

منيته من بين ملاحى السفن وغيرهم ممن نزلوا فيها ما يقارب ستمائة رجل ، كما أنه لم يعيش بعد الرحلة من السفراء الثلاثة سوى واحد هو المسمى جوزا ، وذلك بينما لم يمت من بين جميع السيدات وحاشية الاناث الا واحدة فقط (٥٠) .

وعند رسوهم على الشاطئ أبلغوا أن الملك أرغون أدركته المنية قبل ذلك بقليل (٥١) ، وأن حكم البلاد كان يدبر شئونه ، باسم ولده الذى كان لايزال شابا يافعا ، شخص اسمه كى آكاتوا (٥٢) - وأبدوا رغبتهم فى الحصول منه على التعليمات التى ينبغى اتباعها حول طريقة التصرف فى الأميرة ، التى نقلوها الى هذا المكان بأمر الملك الراحل وكان جوابه أنه ينبغى لهم تقديم السيدة الى قاسان (٥٣) ، ابن أرغون الذى كان عند ذلك فى مكان ما ، على حدود فارس ، يستمد اسمه من الشجرة الجافة (Arbor Secco) (٥٤) - يحتشد عنده جيش عدته ستون ألف رجل بقصد حراسة بعض ممرات معينة من غارات العدو (٥٥) . فتقدموا لوضع ذلك موضع التنفيذ حتى اذا فعلوه ، عادوا أدراجهم الى مقر حكم كى آكاتوا ، لأن الطريق الذى يتحتم سلوكه فيما بعد يقع فى ذلك الاتجاه (٥٦) . على أنهم أخذوا الى الراحة هنا مدة تسعة أشهر (٥٧) - وعندما استأذنوه فى السفر زودهم بأربع لوحات ذهبية وطول كل منها ذراع وعرضها خمس بوصات وتزن ثلاث أو أربع ماركات من الذهب (يعادل وزن كل مارك منها ثمانى أوقيات) (٥٨) - وقد بدأ مافيه من نقوش باستنزال بركات القوى القاهر على الخان الأعظم (٥٩) - والدعاء له بأن يصون اسمه مكللا بالتوقير الى أعوام كثيرة والانداز بعقوبة الموت ومصادرة الممتلكات لكل من يأبى الخضوع للأمر الرسمى ، ثم مضت اللوحة توجه التعليمات بأنه ينبغى أن يعامل السفراء الثلاثة بوصفهم ممثليه ، فى كل أقطار ممتلكاته ، قاصيها ودانيها .

بالتكريم الوافى وأن تسدد جميع نفقاتهم ، وأن يزودوا بما يلزم من حرس وقد تم الاذعان لذلك كله ، وخرج لحمايتهم من أماكن كثيرة حرس عدته مائتا راكب . هذا الى انه لم يكن فى الامكان الاستغناء عن هذا الاحتياط ، نظرا لأن حكم كى اكاتو كان مكروها من الشعب ، وكان الناس ميالين الى توجيه الالهات اليه بل والانزلاق الى الاعتداءات، وهو مالم يكونوا ليجرؤوا على محاولته تحت حكم ملكهم الاصلى(٦٠) - وتلقى رجالونا فى أثناء رحلتهم نبأ عن الحان الأعظم قبلاى بأنه رحل عن هذه الدنيا(٦١) ، وهو نبأ وضع حدا نهائيا لأى احتمال فى المستقبل لعودتهم لزيارة تلك الأقاليم . وواصلوا المضى فى طريقهم الأسمى المقصود حتى وصلوا أخيرا الى مدينة تراييزون ومنها استأنفوا السفر الى القسطنطينية ثم الى نجروبونت (٦٢) وأخيرا الى البندقية التى وصلوا اليها ، مستمتعين بالصحة والثراء العريض فى عام ١٢٩٥ . وبهذه المناسبة رفعوا صلوات الشكر الى الله العلى الذى تفضل فأراحهم بنعمته من تلك المتاعب المرهقة بعد ما حفظهم من مهالك لا عداد لها - ويمكن اعتبار البيان السابق فصلا تمهيدا ، الغرض منه أن يلم القارئ بالفرص التى أتاحت لماركو بولو لاكتساب معرفة بالأشياء التى يصف، أثناء اقامة دامت مثل تلك المدة الطويلة من السنين فى الأجزاء الشرقية من العالم .

الفصل الثانى

عن ارمينية الصغرى - وعن ميناء
لاياسوس - وعن تخوم الولاية •

يجمل بنا ، حين نشرع فى وصف الأقطار التى زارها
ماركو بولو فى آسيا ، وما بها من الأشياء الجديدة بالملاحظة
التى استرعت نظره فيها ، أن نذكر أن علينا أن نفرق بين
أرمينيتين اثنتين : الصغرى والكبرى (١) • و يقيم ملك
أرمينية الصغرى بمدينة تسمى سباستوز (٢) ، ويحكم
بلاده مراعىا الدقة فى العدالة • وتكثر بها المدن والأماكن
المحصنة والقلاع ، كما أنها تزخر بكل ضروريات الحياة ،
فضلا عن كل ما يساهم فى وسائل الراحة والجمام • فالصيد
بنوعيه ، البهائم والطير ، كثير موفور • على انه ينبغى ان
يقال مع ذلك أن هواء ذلك القطر ليس صحيا تماما • وكان
أعيانها فى الأزمان السالفة ، جندا محنكة خبراء لهم قدرهم
وشجاعتهم ، على أنهم أصبحوا اليوم من كبار المدمنين ومن
الجبلاء التافهين • وتقع على ساحل البحر مدينة اسمها
لاياسوس (٣) ، وهى مكان تدور فيه تجارة ضخمة • ويكثر
التجار من ارتياد مينائها ، قادمين من البندقية وجنوة ومن
أماكن أخرى كثيرة ، وهم يتجرون فى التوابل وفى العقاقير
المختلفة الأنواع ، وفى منسوجات الحرير والصوف ، وغير
ذلك من السلع الثمينة • والعادة أن من يبتغون السفر فى
داخلية بلاد المشرق (٤) Levant يقصدون ابتداء الى ثغر

لاياسوس ذاك • وحدود أرمينية الصغرى هي فى الجنوب
أرض الميعاد التى يحتلها الآن العرب المسلمون Saracens (٥) ،
وتحدها فى الشمال كارامانيا ، التى يسكنها التركمان •
وتقع فى اتجاه الشمال الشرقى مدن قيصرية ، وسيفاستا (٦) ،
ومدن أخرى كثيرة خاضعة للتتار ، كما يحدها من الجهة
الغربية ، البحر الذى يمتد الى شواطئ بلاد المسيحية •

الفصل الثالث

عن مقاطعة تركمانيا ، حيث توجد
مدن كوجنى وقيصرية وسيفاستا ،
وعن تجارنها •

يمكن تقسيم سكان تركمانيا (١) الى ثلاث طبقات •
والتركمان ، الذين يبجلون محمدا ويتبعون شرعته ، شعب
فظ غليظ ، خفيض الذكاء • وكانوا يسكنون بين الجبال ،
وفى مواطن وعرة عسيرة الولوج ، وكل همهم العشور على
مرعى طيب لماشيتهم ، وذلك لانهم يعتمدون فى طعامهم
اعتمادا مطلقا على الغذاء الحيوانى • ولديهم هنا سلالة
ممتازة من الخيل تسمى بالخيل التركى ، كما أن لديهم بغالا
بديعة تباع بأسعار عالية (٢) • فأما الطبقات الأخرى فتتألف
من الروم والأرمنيين ، الذين يسكنون فى المدن والأماكن
الحصينة ، ويكتسبون معاشهم من التجارة والصناعة •
وتصنع هنا أحسن وأجمل أنواع البسط (السجاجيد) ، كما
تصنع كذلك الحراير المصبغة بالأرجوان وغيره من الألوان
الزاهية • ومن بين مدنها قونية أو كوني وقيصرية وسيفاستا ،
والأخيرة هى التى نال فيها القديس بليز تاج الشهادة (٣)
وهى جميعا خاضعة للخان الأعظم امبراطور التتار الشرقيين ،
الذى يعين عليها الولاة (٤) • وسنتحدث الآن عن أرمينية
الكبرى •

الفصل الرابع

عن أرمينية الكبرى ، التي بها
 من أرزنجان وأرجيرون ودارزيز -
 وعن قلعة بايبورث - وعن انجبل
 الذي استقر عليه ملك نوح - وعن
 تخوم الولاية - وعن نبع عجيب من
 الزيت .

ان أرمينية الكبرى ولاية متسعة ، تقع عند مدخلها مدينة
 اسمها أرزنجان (١) ، تقوم بها صناعة نسيج قطنى رفيع
 جدا يسمى البومبازين (٢) ، فضلا عن أنسجة أخرى كثيرة
 وعجيبة ، قد يمل القارئ من تعدادها . وبها أجمل وأبدع
 حمامات المياه الساخنة ، التابعة من الأرض ، والتي ليس
 لها ضريب فى أى مكان آخر (٣) ومعظم أهلها من الأرمنيين
 الوطنيين ، ولكنهم تحت سيادة التتار . وتضم الولاية مدنا
 كثيرة ، ولكن أرزنجان أهمها جميعا ، كما أنها مقر كرسي
 كبير أساقفة ، وتتلوها فى الأهمية مدينتا أرجيرون (٤)
 ودارزيز (٥) . وهى ولاية مترامية الأطراف ، كما أنها
 تصبح فى فصل الصيف مستقرا لجزء من جيش التتار
 الشرقيين ، بسبب الكلا الطيب الذى تقدمه لماشيتهم . حتى
 اذا اقترب الشتاء اضطروا الى تغيير مكانهم ، ومرد ذلك أنه
 يسقط بها ثلج كثيف جدا ، لا يسمح للخيل بالحصول على
 قوتها ، ولذا فانهم يتقدمون نحو الجنوب التماسا للدفع
 والأعلاف . ويوجد داخل قلعة اسمها بايبورث (٦) وهى قلعة
 تلتقى بها أثناء ذهابك من ترابيزون الى توريس ، منجم
 غنى بالفضة (٧) ويقوم فى الجزء الأوسط من أرمينية جبل

شاهق الارتفاع بالغ الضخامة ، وهو الذى استوت عليه ،
 فيما يقال ، فلك نوح - فهو لهذا السبب يسمى جبل
 الفلك (٨) - ولا يمدن الدوران حول محيط قاعدته فى اقل
 من يومين - والصعود عليه يتعذر بسبب ما يتراكم عليه
 قرب القمة من الثلوج ، التى لا تذوب أبدا ، بل تواصل
 الزيادة مع كل هطول جديد لها - ومع هذا ، فالمناطق
 السفلى منه قرب السهل ، يعود ذوبان الثلج عليها بخصوبة
 التربة ، كما ينبت نباتا هو من الوفرة بحيث تجد بسببه
 جميع الماشية التى تتجمع هناك صيفا من المناطق المجاورة ،
 مرعى وزادا لا ينضب أبدا (٩) ، وتتأخم أرمينية من الجنوب
 الغربى منطقتا الموصل وماردين ، اللتين ستنصفهما بعد ،
 فضلا عن نواح أخرى كثيرة لا يتسع المقام لتفصيل فيها -
 وتقع زورزانيا الى الشمال ، وهى التى يوجد قرب تخومها
 نبع من الزيت يخرج مقدارا يبلغ من ضخامته أن يشكل
 أحمالا لكثرة كبيرة من الابل (١٠) وهو لا يستخدم من أجل
 أغراض الطعام ، ولكنه يستخدم دهانا للأمراض الجلدية
 فى الانسان والبهائم ، فضلا عن بعض علل أخرى ، وهو
 صالح أيضا للاحتراق - وهم لا يستخدمون فى المنطقة
 المجاورة أى زيت آخر فى مصابيحهم ، ويتوافد الناس من
 مناطق بعيدة للحصول عليه -

الفصل الخامس

عن ولاية زورزانيا وحدودها -
وعن الممر الذى اعام فيه الاسكندر
يوأية الحديد - وعن الظروب
المعجزية المحيطه بينوع فى تقليس *

يلقب الملك فى زورزانيا (١) بلقب « داود الملك »
David Melik (٢) * ويخضع جزء من القطر للتتار ، كما
أن الجزء الآخر ظل فى قبضة أمراة الوطنيين ، بسبب
ما يقوم فيه من قلاع منيعة * وهى تقع بين بحرين ، يسمى
أحدهما الواقع فى الجهة الشمالية (الفرية) باسم البحر
الأعظم (وهو اليوكسين أو الأسود) ، كما يسمى البحر
الأخر الواقع فى الجهة الشرقية ، باسم بحر أبابكو
(قزوين) (٣) * ومحيط هذا البحر الثانى ألفان وثمانئة
من الأميال ، وهو يشبه فى طبيعته احدى البحيرات ، اذ لا
اتصال بينه وبين أى بحر آخر ، وبه جزر كثيرة ، بها المدن
والقلاع الرشيقة ، التى منها ما يسكنه قوم فروا أمام التترى
الأعظم ، عندما حول مملكة أو ولاية فارس (٤) خرابا يبابا،
ولادوا بهذه الجزر أو بصياصى الجبال المنيعة حيث رجوا
أن يجدوا الأمن والسلامة * وبعض الجزر غير مزروعة *
على أن هذا البحر ينتج كميات موفورة من السمك وبخاصة
من الحفشى والسلمون ، عند مصبات الأنهار ، فضلا عن
أسماك أخرى من نوع ضخم (٥) * والشجر المنتشر بالبلاد
هو شجرة البقس (٦) * وبلغنى أن ملوك البلاد كانوا
يولدون فى الأزمنة الخوالى وقد وسمت كتفهم اليمنى برسم
نسر (٧) * والناس هناك قوم أقوياء البنية ، وبخارة شجعان ،

ورماة محتكون وجند ذوو جلد فى النزال • وهم مسيحيون ، يتبعون شعائر الخنيسه اليونانيه ، ولذنههم يصرون شعورهم على طريقه رجال الدين العربيين • وتلك هى الولايه ، النى لم يسقط الاسكندر الاكبر اختراقها ، عندما حاول التقدم شمالا ، وكان ذلك بسبب ضيق أحد الممرات وما يكتنفه من صعوبات ، فهو اذ يضربه البحر بأمواجه من ناحيه ، ويحده من الجانب الآخر جبال عاليه وغابات على امتداد اربعة أميال ، فان بضعة قليلة من الرجال كانت قادرة على الدفاع عنه ولو اجتمع عليها العالم أجمع • ولما خابت آمال الاسكندر فى هذه المحاوله ، امر ببناء حائط ضخم عند مدخل الممر ، وحصنها بالابراج ، ليمنع من يسكنون وراءها من الحاق المضايقه به • وحصل الممر ، نتيجة لقوته غير المألوفه ، على اسم البوايه الحديدية (٨) ويشاع عن الاسكندر انه حصر التتار بين جبليين • ومع ذلك فليس من الصواب تسمية هذا الشعب باسم التتر ، لانهم لم يكونوا فى ذلك الزمان من التتار ، بل من جنس يسمى الكوماني (٩) ، مع خليط من أمم أخرى • وتقوم فى هذه الولايه مدن وقلاع كثيره ، وحاجيات الحياه الضرورية موفوره بها ، وتنتج البلاد قدرا عظيما من الحرير ، وبها صناعة لنوع من القز المغزول بالقصب (خيوط الذهب) (١٠) • وهنا توجد نسور ذات حجم ضخم ، من نوع يسمى بالأفيجى -- (١١) • ويكسب الكافه من السكان معاشهم على الجملة بالتجاره والعمل اليدوى • وحالت طبيعه الاقليم الجبلية ، بما لها من خنادق ضيقه وحصينه ، دون تمكن التتار من اتمام الفتح الكامل لها • ويقال انه تحدث الظروف الاعجازية التالية بدير للرهبان مسمى على اسم القديس لوناردو ، اذ توجد هناك بحيره ملحه ، محيط ساحلها مسيره أربعة أيام ، وتقع الكنيسه على حافتها ولا يبدو السمك بها الا فى اليوم الأول من أيام الصوم الكبير ، ومنذ ذلك الوقت حتى ليله عيد الفصح ، يوجد بوفرة هائلة ، على أنه يعود لا يرى فى يوم عيد الفصح

ابدا ، ولا فى باقى ايام السنة • وهى تسمى بحيرة
 جيلوتشالات (١٢) • وتصب فى بحر ابادوانف الدحر ،
 الذى تحف به الجبال ، والانهار العظيمة : هرديل (١١) ،
 وحيحون وكور وراز ، وكثير غيرها • وقد بدا التجار
 الجنويون فى السفر فيه فى الآونة الأخيرة ، فهم يجلبون منه
 نوع الحرير المسمى بالغلى ghellie (١٤) وتوجد بهذه
 الولاية مدينة جميلة اسمها تفليس (١٥) تحيط بها الضواحي
 وكثير من المراكز المحصنة • ويسكنها مسيحيون من الأرمن
 والكرج ، كما يسكنها بعض المسلمين واليهود (١٦) ، ولكن
 الطائفتين الأخيرتين ليستا ذواتا عدد كبير • وتدور بها
 صناعات الحرير وغيره من السلع • وسكانها رعايا ملك التتار
 العظيم (١٧) ومع أننا لا نتحدث الا عن عدد قليل من المدن
 الكبرى بكل ولاية ، فانه ينبغى لنا أن نفهم أن هناك مدنا
 أخرى كثيرة ، ليس من الضرورى ذكرها بالذات ، ما لم
 يتصادف أن تحتوى شيئا يسترعى الأنظار • على أنه لابد من
 وصف تلك أيضا لو دعت الضرورة الى ذلك • والآن وقد
 تحدثنا عن المدن المتاخمة لأرمينية من الشمال ، فاننا سنذكر
 الآن ما يقع منها فى الجنوب والشرق •

الفصل السادس

عن ولاية الموصل وما بها من
سكان متنوعين - عن الشعب المسمى
بالكرد - وعن تجارة هذه البلاد •

الموصل ولاية ضخمة (١) ، تسكنها أخلاط شتى من
الشعوب لها أوصافها المختلفة ، وتؤمن طائفة منها بالنبي
محمد وتسمى العرب (٢) • وأما الآخرون فيعتنقون الدين
المسيحي ، ولكن ليس طبقا لقوانين الكنيسة (الكاثوليكية)
التي يختلفون عنها في كثير من الحالات ، ويسمون بالنساطرة
واليعاقبة والأرمن ، ولديهم بطريق ، يسمونه الجاكوليت
وهو الذى يرسم كبرى الأساقفة ، ورؤساء الأديرة ويرسلهم
الى جميع أصقاع الهند والى القاهرة وبلد اش (بغداد) ،
والى جميع الأماكن التى يسكنها مسيحيون ، على نفس الشاكلة
التي يتبعها بابا الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) • وجميع
الأنسجة الذهبية والحريرية التى نسميها بالموسلين (٤) هى
من صنع الموصل ، كما أن جميع التجار الذين ينعتون
«موسولينى» ، والذين يحملون الأفاوية والعقاير ، بمقادير
ضخمة من اقليم الى اقليم ، ينتمون الى تلك الولاية • ويسكن
الأجزاء الجبلية جنس من الناس يسمى بالأكراد ، بعضهم
مسيحيون من النساطرة أو اليعاقبة ، وبعضهم الآخر من
المسلمين • وجميعهم قوم لا مبدأ لهم ، صناعتهم سلب

التجار (٥) والى جوار هذه المقاطعة مكانان يسميان موس
Mus وماردين(٦) ينتج بهما القطن بوفرة عظيمة ، ومنه
يجهزون القماش المسمى البوكاسينى ، فضلا عن منسوجات
أخرى كثيرة . والسكان قوم من الصناع والتجار وهم جميعا
من رعايا ملك التتار . وسنتحدث الآن عن مدينة بلدش
(بغداد) .

الفصل السابع

عن المدينة العظيمة بلد داش أو
باجانت (بغداد) ، التي كانت تسمى
قديمًا بابل - وعن الملاحه منها
بأسارا (البصره) ، الواقعة فيما
يسمى ببصر الهند ، ولكنه في
الحقيقه الخليج الفارسي - وعن
مختلف العلوم التي تدرس بتلك
المدينه .

ان بلد اش مدينة كبيرة ، وكانت فيما سبق المقر الرسمي
للخليفة (١) ، أو الحبر الأعظم لجميع المسلمين ، شأن البابا ،
بالنسبة للمسيحيين جميعا ، ويمر في وسطها نهر عظيم (٢) ،
ينقل التجار بواسطته بضائعهم من بحر الهند واليه ، وتقدر
المسافة هنا بملاحة سبعة عشر يوما ، وذلك بسبب كثرة
التعاريج في مجراه . ومن يقومون بالرحلة يرسون بعد
مغادرتهم النهر بمكان يسمى كيسى (٣) ، ومنه يتقدمون الى
البحر : على أنهم قبل رسوهم هناك يمرون بمدينة تسمى
البصرة Balsara (٤) ، تقع بالقرب منها أحراش من النخيل
تنتج أجود بلح (تمر) في العالم . ويقوم ببلد اش صناعة
الحريير المغزول بخيوط الذهب (القصب) ، وكذلك صناعة
الدمقس ، فضلا عن القطيفة (المخمل) المحلاة بأشكال الطير
والحيوان (٥) . وتكاد جميع اللآلئ المنقولة الى أوروبا من
الهند أن تجرى فيها عملية الثقب في هذا البلد . وتدرس
الشريعة الاسلامية بها بكل عناية وانتظام ، كما يدرس
السحر والفوزيقى ، والفلك وعلم الفراسة والعرافة
(استطلاع الغيب) وهى أجمل وأوسع مدينة توجد في هذا
الجزء من العالم .

الفصل الثامن

حول أسر خليفة بلداش ، مصرعه ،
وزحزحه أحد الجبال بطريقة معجزية .

لقى الخليفة سالف الذكر ، الذى يعرف عنه انه جمع
كنورا اعظم واضخم مما جمعه أى ملك اخر على الزمان كله ،
مصرعه البائس التمس فى الظروف التالية (١) - فى المدة
التي شرع فيها أمراء التتار فى بسط سلطانهم ، كان بينهم
أربعة اشقاء ، يحكم اكبرهم المسمى مانكو فى المقر المدعى
للأسرة - ولما ان اخضعوا اقليم خاتاي وغيره من الأصقاع
القائمة بتلك الناحية من العالم ، لم تقنع نفوسهم بما فتحوا ،
بل تطلعت جشعا الى المزيد من الارض ، فصوروا بأخيلتهم
فكرة الامبراطور العالمية الشاملة ، واقترحوا ان يقتسموا
العالم فيما بينهم - حتى اذا استقر ذلك الهدف أمام أعينهم ،
اتفقوا أن يتقدم أحدهم نحو الشرق ، وأن يقوم آخر
بفتوحاته فى الجنوب ، على حين يوجه الاثنان الآخران
عملياتهما نحو الأصقاع الباقية من العالم - وكان القسم
الجنوبى من نصيب أولاءو ، الذى جمع جحفا جارا ، ما أن
أتم به اخضاع الولايات التي يخترقها طريقه ، حتى مضى
قدما فى عام ١٢٥٥ لمهاجمة تلك المدينة بلداش (٢) -
وأدرك أولاءو ما عليه بغداد من قوة عظيمة ومن تعداد هائل
لسكانها ، فعمد الى استخدام الوسائل الاستراتيجية أكثر منه
الى القوة فى اخضاعها ، ولكى يخدع أعداءه عن عدد جنده ،
نوا يأتلفون من مائة ألف راكب فضلا عن المشاة ، وضع

فريقا من جيشه قبالة أحد جوانبها ، ووضع فريقا آخر قريبا من مداخل المدينة ، بحيث تخفيه إحدى الغابات ، ووضع نفسه على رأس الفريق الثالث ، ثم تقدم بجرأة حتى أصبح على مسافة قريبة من البوابة •

واستخف الخليفة بتلك القوة الظاهرة الضعف ، ولوثوقه في كفاية الصيحات الإسلامية المعتادة لاتارة الحماسة ، لم يدر بخلده شيء أقل من القضاء عليه قضاء مبرما ، ومن أجل ذلك الغرض خرج إلى ظاهر المدينة ومعه حراسه • ولكن ما كاد أولاء يراه مقتربا ، حتى تظاهر بالتقهقر أمامه إلى أن استدرجه بهذه الوسيلة إلى ما وراء الغاية ، حيث اتخذ الفريقان الآخرين قواعدهما • وعندما أطبق عليه الفريقان من الجانبين أصبح جيش الخليفة محاصرا وهزم ، وأخذ الخليفة نفسه أسيرا ، واستسلمت المدينة للفتح • وعند دخول المدينة ، اكتشف أولاءو لدهشته العظيمة برجاً مملوءاً بالذهب • فاستدعى الخليفة أمامه ، وبعد توبيخه على شحه ، الذي منعه من انفاق كنوزه في انشاء جيش للدفاع عن عاصمته تلقاء الغزو القوى الذي ظلت مهددة به طويلا ، أمر به فزج سجيناً في ذلك البرج نفسه بلا زاد • وهناك انتهت حياته التعمسة بين أكداش ما كنز من الثروة والكنوز •

وفي رأيي أن الرب يسوع المسيح رأى هنا أن من الخير أن ينتقم لما وقع من مظالم على خلصائه المسيحيين الذين كان مقت ذلك الخليفة لهم بالغا • فمنذ تولى الخلافة في ١٢٢٥ ، كان شغله الشاغل في كل يوم تدبير الوسائل لادخال كل من يقيم في دولته منهم في دينه ، أو في حالة رفضهم ذلك ، صياغة الحجج التي يتذرع بها لاعدائهم • وتشاور الخليفة مع علمائه من أجل هذا الغرض ، فاكتشفوا في الانجيل فقرة هذا نصها : « لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك

فينتقل ، (متى ١٧ : ٢٠) (وذلك يتأتى بالصلاة والدعاء
بدلك الى رب الجلالة) . وسر الخليفة بهذا الاكتشاف ، وان
اقتنع فى فرارة نفسه بأن الامر من المحال ، فاصدر الاوامر
بجمع جميع المسيحيين النساطرة واليعاقبة الذين يسكنون
فى بغداد والذين كان عددهم عظيما . ووجه الى هؤلاء هذا
السؤال : « هل تؤمنون بأن كل ما ورد فى انجيلكم صحيح
أم لا ؟ » فأجابوه بأنه صحيح . فقال الخليفة : « ان كان
صحيحا ما تقولون ، فلنر أياكم سيعطينا البرهان على ايمانه ،
لأن من المؤكد أنه ان لم يوجد بينكم واحد له ولو جزء ضئيل
من الايمان بربه ، قدر حبة خردل ، فسيكون لى الحق ، ان
أعدكم ، منذ الآن ، قوما شريرين وفسدة وعديمى الايمان .
من أجل ذلك فانى أمنحكم مهلة عشرة أيام ينبغى أن تتمكنوا
قبل انقضائها من زحزحة الجبل القائم أمامكم بفضل قوة
من تعبدون ، والا فلتعتنقوا شرعة نبينا ، وأنتم على الحالين
آمنون . فان لم تفعلوا ، وجب عليكم جميعا أن تتوقعوا نكال
وانكر مصرع » . وعند سماع هذه الكلمات ارتعدت فرائص
المسيحيين اشفاقا على حياتهم ، لما عرفوه فيه من قلب قاس
لا يرحم ومن توق الى اغتصاب ما يملكون من ثروات .
ولكنهم مع ذلك ، لامتلائهم بالثقة بفاديتهم وأنه سينقذهم مما
يتعرضون له من خطر ، عقدوا اجتماعا وأخذوا يتشاورون
فيما ينبغى لهم عمله . ولم يخطر على بالهم الا شيء واحد هو
الابتهال الى بارئهم أن يمنحهم من لدنه عوناً من رحمته .
ولبلوغ تلك الغاية انطرح كل منهم كبيرا كان أم صغيرا على
الأرض ساجدا ليل نهار ، وهم يذرفون الدمع بغزارة ، دون
أن يهتموا بأى عمل آخر عدا الضراعة الى الله . فلما أن
واصلوا ذلك مثابرين ثمانية أيام كاملة ، جاء التجلى الالهى
آخر الأمر على صورة حلم رآه أسقف يعيش عيشة تقوى
مثالية ، ويوجهه الى البحث عن اسكاف (صانع أحذية) معين
(لا يعرف اسمه) ليس له الا عين واحدة ، ودعوته الى ذلك
الانجيل ، على اعتبار أنه شخص قادر على القيام فعلا بزحزحته

عن مكانه ، بفضل الله ونعمائه • فلما أن وجد القوم ذلك الاسكاف وابلغوه نبا الرويا ، اجاب بانه لا يشعر فى نفسه أنه جدير بالقيام بذلك ، اذ ان استحقاقاته (جداراته) ليست بالدرجة التى تؤهله للمكافأة بمثل تلك النعمة الراسرة • على انه ، لما اح عليه المسيحيون المسادين المروعون ، قبل فى نهايه الامر • وينبغى ان يكون مفهوما انه كان رجلا شديد التمسك بالاخلاق العاضلة والحديث الورع قد احتفظ بنماء عقله والاخلاص لربه ، واطب على صلوات القداسات وغيرها من الواجبات الالهية ، وأظهر الحمية فى أعمال الصدقة والبر ، والتشدد فى أداء الأصوام • وحدث له ذات يوم ان امرأة حسناء شابة جاءت الى دكانه ليصنع لها حذاء ، وبينما هى تمد له قدمها ، كشفت بالصدفة عن جزء من ساقها ، فاستثار فيه جماله رغبة ملحة • ولكنه تدارك نفسه ، وصرف المرأة على الفور ، وأخذ يتذكر كلمات الانجيل التى تقول : « ان أعثرتك عينيك فاقلعها وألقها عنك ، خير لك أن تدخل الحياة أعور من أن تلقى فى جهنم النار ولك عينان » (متى ١٨ : ٩) ، ومد يده على الفور فقلع عينه اليمنى باحدى آلات صنعتة ، مظهرها بهذا العمل ، فوق كل ريب وشبهة ، عظمة ايمانه •

فلما أن وافى اليوم المحدد ، أقيمت الصلوات الدينية فى ساعة مبكرة من الفجر ، وانطلق موكب رهيب الى الوادى الذى يقف فيه الجبل ، وقد حمل الصليب المقدس فى المقدمة • ولاعتقاد الخليفة أنه موكب سينتهى الى الفشل من جانب المسيحيين ، فانه آثر أن يشهد بنفسه ، فحضر ترافقه كوكبة من حرسه ، بقصد القضاء عليهم فى حالة فشل المحاولة ، وهنا أقبل الصانع التقى ، وقد جثا أمام الصليب ، ورفع أكف الضراعة الى السماء ، فالتمس من خالقه بذلة وخضوع أن يشمل الأرض بنظرة من رحمته ، ومن أجل مجد اسمه وعظمته ، ومن أجل تأييد الايمان المسيحى وتثبيتته ، أن يمد

يد العون لشعبه في القيام بذلك العمل المفروض عليهم
وبذلك يظهر جبروته لكل من ينالون من شريعته . ولما ان
ختم صلاته صاح بصوت مرتفع : « باسم الاب والابن والروح
القدس ، امرك ايها الجبل ان تزحزح نفسك ! » وعند نطق
هذه الكلمات تحرك الجبل ، واهتزت الأرض في الحين نفسه
بطريقة مدهشة ومروعة ، وبهت الخليفة وكل من احاطوا
به ومسهم الرعب وظلوا مذهولين أمداء طويلا . واعتنق كثير
من رجاله النصرانية ، بل انه حتى الخليفة نفسه اعتنق
المسيحية سرا ، حيث ظل على الدوام يحمل صليبا يخفيه تحت
أثوابه ، وجد حول عنقه بعد أن لقي مصرعه . ولهذا السبب
لم يدفنوه في مدافن أسلافه . وتخليدا لتلك النعمة الفريدة
التي حباهم بها الله ، لا يبرح جميع المسيحيين ، نساطرة
ويعاقبه ، يحتفلون منذ تلك اللحظة بطريقة وقورة بعودة
ذلك اليوم الذي حدثت فيه المعجزة ، محتفظين كذلك بصوم
أثناء سهرهم ليلة الذكرى ، في التهجد (٣) .

الفصل التاسع

عن مدينة توريس (تبريز) الفخمة
بالعراق وعن سكانها من التجار
وغيرهم .

ان توريس مدينة ضخمة وبالغة الفخامة تتبع ولاية العراق . التي تحوى مدنا أخرى كثيرة ومواقع حصينة ، ولكن هذه أرفعها شأنًا وأكثرها سكانا (١) . ويعتمد السكان على معاشهم بصفة رئيسية على التجارة والصناعات، والأخيرة تشمل صنع أنواع مختلفة من الحرير بعضها مخلوط بخيوط الذهب وله أثمان عالية في الأسواق . فهي في موقع بالغ المواتمة للتجارة ، بحيث يفد إليها التجار من الهند وبلدات الموصل وكريميور (٢) ، فضلا عن أصقاع مختلفة من أوربا ، ليشتروا ويبيعوا فيها طائفة من السلع . وفي الامكان الحصول في هذا المكان على الأحجار النفيسة واللآلئ بكميات وفيرة ويحضر التجار المشتغلون بالتجارة الأجنبية ثروات ضخمة ، فأما السكان بعامة فيغلب عليهم الفقر . وهم يأتلفون من خليط من أمم ونحل مختلفة : ما بين نساطرة وأرمنيين ، ويعاقبة وكرجيين وفرس ومن أتباع محمد المسلمين الذين يشكلون الكتلة الكبرى للسكان ، وهم الذين يسمون بحق التبريزيين (٤) . ولكل ضرب من هؤلاء الأقوام لغته الخاصة . والمدينة محاطة بحدائق ذات بهجة ، تنتج أبدع الثمار (٥) . والسكان المسلمون قوم اتصفوا بالخيانة والفدر والتجرد من المبادئ . وهم يعتقدون أن ملتهم ترى (كذا !!) ان كل ما سرق أو نهب من أبناء الديانات الأخرى ، فهو أخذ

حلال وأن السرقة ليست جريمة ، بينما يعد كل من لقي مصرعه على يد النصارى ، شهيدا • فلو لم يمنعهم أو يكبحهم اذن السلطان الذى يحكمهم الآن (٦) ، لارتكبوا افعالا نكراء كثيرة • وهذه المبادئ شائعة بين المسلمين جميعا (كذا !!) • وعندما تحين منيتهم يشهدهم قسيسهم (كذا !) ويسألهم : أيؤمنون بأن محمدا هو رسول الله حقا - فان أجابوا بالايجاب وأنهم يؤمنون بذلك فعلا ، تحقق لهم خلاصهم فى الآخرة ، ونتيجة لهذه السهولة فى التحلة من الذنوب ، وهو أمر يفسح المجال لارتكاب كل معصية شائنة ، نجحوا فى أن يضموا الى دينهم نسبة ضخمة من التتار ، الذين يرون فيه وسيلة تزيح عن كاهلهم كل حظر على ارتكاب الجرائم • (كذا ؟ !! • • - المترجم -) • والمسافة من تبريز الى فارس مسيرة اثنى عشر يوما (٧) •

الفصل العاشر

عن دير القديس برسامو ، قرب
مدينة توريس *

يوجد غير بعيد من توريس دير ، يستمد اسمه من
القديس التقى برسامو (١) ويشتهر أهله بالتقوى * ويقيم
به هنا رئيس ورهبان كثار ، يشبهون في زيهم هيئة الرهبان
الكرملين * ولكيلا يعيشوا عيش الكسل ، يشغلون أنفسهم
على الدوام في نسج الزناير (التكك أو النطاقات) الصوفية ،
التي يضعونها على مذبح قديسهم أثناء القيام بالخدمة
الدينية ، وعندما يدورون في أرجاء الولايات ، يستجدون
الصدقات (على نفس الطريقة التي يفعلها رهبان هيئة
الروح القدس) ، يهدون هذه الزناير الى أصدقائهم وإلى
ذوى المكانة من الناس ، لأنها موضع التقدير في علاج الآلام
الروماتزمية ، فهي لهذا السبب تطلبها جميع الطبقات في
ورع وخشوع *

الفصل الحادى عشر

من ولاية فارس

كانت فارس فى الزمان الخالى ، ولاية مترامية وفاخرة ، ولكنها الآن تدمرت الى حد كبير على يد التتار . وتوجد بفارس بلدة اسمها سابا ، هى التى وفد منها المجوس الثلاثة الذين جاءوا للسجود للسيد المسيح فى بيت لحم ، وثلاثتهم مدفونون بتلك البلدة فى ناووس جميل ، وأجسام ثلاثتهم مكتملة السلامة بلحاهم وشعرهم . وكان اسم أحدهم بلداسار واسم الثانى جسبار واسم الثالث ملكيور . وأكثر ماركو من الاستفهام بتلك المدينة حول المجوس الثلاثة ، ولم يستطع أحد أن يخبره بشئ عنهم ، عدا أن المجوس الثلاثة كانوا مدفونين هناك من سالف الأزمان . وبعد رحلة ثلاثة أيام نصل الى قلعة تسمى بالاساتا ، ومعناها قلعة عبدة النار . وفى الحق أن سكان هذه القلعة يعبدون النار ، وذلك هو السبب الذى يقدم تعليلا لهذا . ويقول أهل تلك القلعة انه حدث فى قديم الزمان أن ملوكا ثلاثة لذلك الاقليم ذهبوا ليمجدوا ملكا معينا ولد حديثا ، وحملوا معهم ثلاث هدايا ، هى الذهب واللبان والمر : فالذهب لكى يعرفوا هل هو ملك دنيوى ، واللبان لكى يعرفوا هل هو رب ، والمر لكى يعرفوا ان كان انسانا فانيا . ولما قدم هؤلاء المجوس الى المسيح ، سجد له أصغر الثلاثة أولا ، وبدأ له أن المسيح كان يعادله قائمة وسنا . ثم جاء الأوسط فالأكبر ، فبدا لكل منهما كأنما يكافئه قائمة وسنا . فلما أن تساروا فيما بينهم حول

مشاهداتهم ، اتفقوا على التقدم للعبادة والسجود على الفور ،
وعندئذ بدا لهم جميعا فى سنه الحقيقية • وعند انصرافهم
أعطاهم الطفل صندوقا مقفلا ، حملوه معهم عدة أيام ، ثم
دخلهم حب الاستطلاع الى تعرف ما أعطاهم ، ففتحوا
الصندوق ووجدوا بداخله حجرا ، كان المقصود منه أن يكون
علامة على أنه ينبئ لهم أن يظلوا صامدين كالحجر ، فى
الايمان الذى تلقوه منه • على أنهم عندما رأوا الحجر ،
عجبوا وظنوا أنهم خدعوا فآلقوا بالحجر فى حفرة ، وعلى
الفور اندلعت النار فى الحفرة ، فلما رأوا ذلك ندموا من
الندم على ما فعلوا ، ثم اقتطعوا قبسا من النار وحملوه معهم
الى بلادهم • حتى اذا وضعوها فى احدى كنائسهم (معابدهم)
فانهم يعنون بالاحتفاظ بها مشتعلة ، ويعبدون تلك النار
ربا ، ويقربون جميع قرايينهم بواسطتها • واذا تصادف
أنها انطفأت ، ذهبوا يلتمسون غيرها من النار الأصلية فى
الحفرة التى آلقوا فيها بالحجر ، والتى لا تخبو أبدا ، وهم
لا يأخذون أقباسا من أية نار أخرى • ومن أجل ذلك يعبد
أهل تلك البلاد النار • وقد علم ماركو ذلك كله من سكان
تلك البلاد ، والحق ان أحد هؤلاء الملوك كان ملكا لسابا ،
والثانى لديافا ، والثالث ملكا للقلعة (١) والآن نعالج شأن
أهالى فارس وبلادهم •

الفصل الثانى عشر

عن أسماء الممالك الثمانية التى
تؤلف ولاية فارس ، وعن سلالة الخيل
والحمير الموجودة هناك .

توجد بفارس ، وهى ولاية عظيمة ، ثمانى ممالك (١) ،
وأسمائها كالتالى : - فأولى الممالك التى تلتقى بها عند
دخول البلاد هى قزوين Kasibin (٢) ، فاما الثانية ، وتقع
الى الجنوب (الغرب) فهى كردستان (٣) والثالثة هى
لور (٤) ، والى الشمال ، تقع الرابعة وهى سولستان (٥) ،
الخامسة أصفهان (٦) ، والسادسة سیراس (٧) (شیراز) ،
والسابعة سونكارا (٨) ، والثامنة تيموكاين (٩) ، وتقع
فى أقصى بلاد فارس .

وجميع هذه الممالك تقع الى الجنوب عدا مملكة
تيموكاين ، التى تقع فى الشمال قرب المكان المسمى بالشجرة
الجافة Arbor Secco (١٠) . وتمتاز البلاد بسلالة الخيل
المتأزاة التى تربي فيها ، والتى يحمل الكثير منها الى الهند
لتباع هناك وتجلب أثمانا عالية ، لا يقل الواحد منها عن
مائتى جنييه تورنوازى (١١) . وهى تنتج أيضا أضخم
وأرشق ما فى العالم من الحمير ، وهى تباع (بديار مرباها)
على الفور بسعر أعلى من سعر الخيل ، لأنها أسهل مطعما ،
وأقدر على حمل أثقال أكبر ، وأطول باعا وأمدا فى السفر
نهارا من كل من الخيل والبغال ، التى لا تستطيع تحمل
التعب بدرجة معادلة لتحمل هذه الحمير ، واذن فان التجار
الذين تضطروهم الظروف فى أسفارهم من ولاية الى أخرى

الى اختراق صحارى مترامية وقطاعات من الرمال ، لا يلتقون فيها بأى نوع من العشب ، وحيث يكون من الضروري ، بسبب بعد المسافات بين الآبار أو غيرها من أماكن السقاية ، القيام برحلات طويلة فى أثناء النهار ، مفضلين اياها على غيرها من دواب الحمل ، وذلك لأنها تمضى أسرع على الأرض وتحتاج الى قدر أصغر من الطعام • وتستخدم الجمال هنا أيضا ، وهذه بالمثل تحمل أثقالا عظيمة ، وتعيش على أقل التكاليف ، ولكنها لا تبلغ سرعة الحمير •

ويحمل تجار تلك الأصقاع الى جزيرة قيس (كيس) (١٢) ، والى هرمز والى أماكن أخرى على ساحل المحيط الهندى ، حيث يشتريها منهم من يحملونها الى بلاد الهند • على أنه نتيجة لشدة الحرارة بتلك البلاد ، فانها لا تستطيع العيش طويلا لأنها فى الأصل من قاطنات المناخ المعتدل • والناس فى بعض هذه النواحي متوحشون ، متمطشون الى الدم ، شيمتهم المنتشرة هى جرح وقتل بعضهم بعضا • وهم لا يتورعون عن انزال الأذى بالتجار والمسافرين لولا امتلاء قلوبهم رعبا من التتار الشرقيين (١٣) ، الذين ينزلون بهم أقصى العقاب • ونشأ أيضا نظام خاص ، يقضى فى جميع الطرقات التى يخشى فيها من الخطر ، بالزام السكان ، بناء على طلب التجار ، أن يزودوهم بأدلاء نشطين أمناء ، يقومون على ارشادهم وأمنهم بين كل ناحية وأخرى ، ويتقاضون أجرا مقداره جروتان (١٤) أو ثلاث ، عن كل دابة محملة تبعا للمسافة • وكلهم من أتباع الديانة المحمدية • ومع هذا فان بالمدن تجارا وعددا غفيرا من الصناع ، الذين يصنعون أنواعا كثيرة من أنسجة الحرير والذهب (١٥) • وينمو القطن بوفرة فى هذه البلاد ، كما ينمو القمح والشعير (١٦) ، والدخن ، وأنواع أخرى كثيرة من الحبوب ، وذلك فضلا عن الأعناب وجميع أصناف الفاكهة • واذا أكد أى انسان أن

المسلمين لا يشربون الخمر ، لأن شريعتهم تحرمها ، أمكن أن نجيبه عن ذلك بأنهم يهدئون جائشة ضمائرهم في تلك النقطة ، باقناع أنفسهم بأنهم لو احتاطوا فأغلوا الخمر على النار حتى يستهلك منها جزء وتصبح حلوة، فإنهم يستطيعون شربها بغير خرق للوصية الربانية ، وذلك لأنهم اذ يغيرون طعمها يغيرون اسمها ، ولا يعودون يسمونها خمرا ، وان كانت كذلك في الواقع (١٧) .

الفصل الثالث عشر

عن مدينة يزدي وصناعتها ، وعن
الحيوانات الموجودة بالاقليم الممتد
بين ذلك المكان وبين كرمان *

ان يزدي مدينة ضخمة على تخوم فارس تدور فيها تجارة
عظيمة (١) . وهناك نوع من قماش الحرير والقصب
(الذهب) يصنع بها ويعرف باسم اليزدي ، ويحمله التجار
منها الى جميع أرجاء العالم (٢) . وسكانها مسلمون .
ويستغرق من يسافرون من هذه المدينة ، ثمانية أيام
يقضونها في اختراق أحد السهول ، لا يجدون فيه على طول
تلك المدة الا أماكن ثلاثة تتوفر فيها اللوازم والراحة (٣) .
ويمتد الطريق وسط أحراش مترامية من نخيل البلح ،
ويعيش فيها صيد كثير ما بين حيوان وطيور الجبل والسمان .
فمن أولع من الرحالة بمتع المطاردة ، يستطيعون هنا
الاستمتاع برياضة رائمة . وقد يلتقى المرء كذلك
بحمر (٤) : (الحمير المتوحشة) في كثرة أعداد ورشاقة
أجسام . وبعد انقضاء ثمانية أيام ، تصل الى مملكة تسمى
كرمان (٥) .

الفصل الرابع عشر

عن مملكة كرمان التي أسماها
الأقمنون كرمانيا - وعن منتجاتها
الحفريّة والمدنيّة - وصناعاتها -
وصقورها - وعن منحدر عظيم
يشاهد عند الخروج من ذلك
الأقليم .

إن كرمان مملكة تقع على الحدود الشرقية لبلاد
فارس (١) ، وكان يحكمها فيما مضى ملوكها ، في تعاقب
وراثي . ولكن منذ أن أخضعها التتار لحكمهم ، صاروا
يولون عليها حكما حسب هواهم . وتوجد في جبال تلك
البلاد الأحجار النفيسة المسماة بالفيروزج (٢) . وهناك
أيضا عروق من الصلب (٣) ومن الأثمة (الأنتيمون) (٤)
كبيرة المقادير . وهم يصنعون هنا بدرجة عظيمة من الاتقان
جميع الأدوات اللازمة لعتاد الحرب ، كالسروج والأعنة
(اللجم) والمهاميز والسيوف والقسى والسهام والجعب وكل
أنواع الأسلحة المستخدمة عند تلك الشعوب .

وتعمل النساء والصفار بالابرة وينتجون وشيا من
الحريير والذهب ، منوع الألوان والرسوم ، يمثل الطير
والحيوان ، مع أنماط زخرفية أخرى (٥) . وقد صممت
هذه الأشغال للسائير وأغطية الفراش والنمازق اللازمة
لأماكن نوع الأغنياء ، وينفذ العمل بمهارة وذوق بالغين
يثيران كل اعجاب . ويرى في المناطق الجبلية أحسن
ما يطير على جناح من البوازي (الصقور) . وهي أصغر
حجما من البوازي الجواله Peregrine وهي محمرة اللون حول

الصدر والبطن وأسفل الذيل ، ولها طيران بالغ السرعة بحيث لا يقلت منها طائر . وعند مغادرتك كرمان ، تسافر سبعة أيام مخترقا سهلا منبسطا ، بطريق لطيف ، يزيد من لطفه كثرة ما فيه من الحجل وغيره من القنائص (٦) . وكثيرا ما تلتقى أيضا بمدن وقلاع ، وكذا بمساكن متناثرة ، حتى تصل في النهاية الى جبل ، ينحدر منه بمنحدر شديد ، يستغرق قطعه يومين . وتوجد بها أعداد لا حصر لها من أشجار الفاكهة ، وكانت الناحية أهلة بالناس فيما سلف من الزمان ، وان خلت في الوقت الحاضر من السكان ، الا أن يكونوا من الرعاة فقط ، وهم يشاهدون قياما على أنعامهم ترعى . وفي تلك المنطقة من الاقليم التي تمر بها قبل بلوغ المنحدر ، يشتد البرد ويقسو حتى ان الانسان لا يستطيع وقاية نفسه منه الا بشق النفس وذلك بارتداء كثير من الثياب والفرجيات (وهي المعاطف الفضفاضة) المبطنة بالفراء (٧) .

الفصل الخامس عشر

عن مدينة كاماندو فاحية ريوبارله -
وعن بعض الطيور الموجودة هناك -
وعن نوع خاص من التيران - وعن
الكراونيين ، وهم قبيلة من
اللصوص

تصل عند نهاية منحدر هذا الجبل الى سهل
يتسع ، في اتجاه جنوبي ، الى مسافة تبلغ مسيرة خمسة أيام ،
توجد عند بدايته مدينة اسمها كاماندو (١) ، كانت فيما
سبق ، مكانا عظيم الاتساع ، بالغ الأهمية ، ولكنها فقدت
ذلك في أيامنا هذه ، وذلك لأن التتار دمروها وتركوها
بلقعا مرات متكررة - وتسمى الناحية المجاورة ريوبارله (٢) -

ودرجة حرارة السهل دفيئة جدا - وهو ينتج القمح
والأرز وغيرهما من الحبوب - وينمو على أقرب جزء منه الى
التلال أشجار النخيل والرمان ، والسفرجل وأنواع عديدة
من الفواكه الأخرى ، منها فاكهة تسمى تفاحة آدم (٣) وهي
غير معروفة في مناخنا البارد - وتوجد القمارى (Turtle-doves)
هنا بأعداد هائلة نتيجة لوفرة الفواكه الصغيرة التي تمدّها
بالطعام ، ولعدم اقبال المسلمين على أكلها لأنهم يعدون ذلك
مكروها (٤) -

وهناك بالمثل كثير من التدرج والدراج والأخيرة منها
لا تماثل مثيلاتها بالأقطار الأخرى ، حيث لونها خليط من
الأبيض والأسود مع متقار وأرجل حمراء (٥) -

وتوجد بين الماشية أيضا سلالات من نوع خسير مألوف وبخاصة نوع من الثيران الضخمة البيضاء ، لها خلاف قصير الشعر أملسه (وذلك نتيجة للمناخ الحار) ، وقرورها قصيرة وغليلة وغير مستدقة الطرف ، ولها بين الأكتاف قتب محدودب أو سنام ، بارتفاع راحتي كفيين تقريبا (٦) . وهي حيوانات جميلة ، ولما هي عليه من شديده القوة فانها تحمل أثقالا ضخمة . وتعودت أن تنبغ على الأرض مثل الجمال أثناء تحميلها ثم تنهض بالأحمال .

ونجد هنا أيضا غنما تعادل الحمار في الحجم ولها ذيول طويلة وغليلة وزن ثلاثين رطلا فما فوق ، وهي سمينة لذينة الطعم (٧) . وتوجد في هذه المقاطعة مدن كثيرة تحيط بها أسوار عالية وغليلة من التراب (٨) ، بقصد الدفاع عن السكان ، ضد غارات الكراونيين (Karauus) ، الذين يعيشون في البلاد فسادا وينتهبون كل ما تصل اليه أيديهم (٩) .

ولكى يتمكن القارىء من فهم أى نوع من الناس هؤلاء ، ينبغي له أن يفهم أنه كان هناك أمير اسمه نوجودار وهو ابن أخى زاجاتاي ، الذى كان شقيقا للخان الأعظم (أوقطاي) (أوغاداي) وكان يحكم في بلاد التركستان (١٠) .

وبينما كان هذا النيجودار (نيقودار) ، مقيما ببلاط زاجاتاي (جافتاي) ، راوده الطمع في أن يكون هو نفسه ملكا ، واذ قد سمع أنه توجد بالهند مقاطعة اسمها مالابار (١١) ، يحكمها في ذلك الحين ملك اسمه عز الدين سلطان (١٢) ، ولم تضم الى أملاك التتار بعد ، فانه جمع سرا حشدا تقارب عدته العشرة آلاف من الرجال ، هم أشد من وجد من الرجال فسوقا ويأسا في الحياة ، واذ انفصل عن عمه دون أن يعطيه أية اشارة الى مخططاته ، فاته تقدم بهم من خلال يالاشان (١٣) الى مملكة كيزمور (١٤) ، وهناك فقد كثيرا من قومه وماشيته ، بسبب صعوبة الطرق ورجاءاتها ، ثم

دخل فى خاتمة المطاف مقاطعة مالابار (١٥) . واذ هبط هكذا على عز الدين على غرة ، أخذ منه عنوة مدينة تسمى دلي Dely فضلا عن مدن أخرى كثيرة تقع بالقرب منها ، وهناك بدأ حكمه وأنتج التتار الذين حملهم الى هناك ، وهم رجال شقر البشرة ، باختلاطهم بالنساء الهنديات السمراوات ، الجنس الذى أطلق عليه اسم الكراونيين ، ومعناها بلغة البلاد ، المهجناء أو الخلاسيون (١٧) . وهؤلاء هم القوم الذين يمارسون منذ ذلك الوقت النهب والسلب ، وليس ذلك فقط باقليم ريوبارله ، بل فى كل اقليم يضعون فيه أقدامهم .

وقد تعلموا ببلاد الهند الفنون السحرية والشيطنانية ، التى تمكنوا بواسطتها من انتاج الظلام ، حيث يخفون نور النهار بدرجة تجعل الأشخاص لا يرون بعضهم بعضا ، الا على مسافة قريبة جدا (١٨) . وكلما خرجوا فى غارات السلب وضعوا ذلك الفن موضع التنفيذ فلا يراهم أحد وهم يقتربون .

وفى أغلب الأحيان تكون هذه الناحية مسرح عملياتهم ، ونظرا لأنه متى اجتمع التجار من مختلف النواحي فى هرمز ، انتظارا لمن هم فى الطريق من الهند ، فانهم يرسلون خيولهم وبغالهم فى فصل الشتاء ، وقد أرهقت قواها لشدة طول الرحلة الى سهل ريوبارله ، حيث تجد وفرة من الكلال وتصبح مسمينة . ولعلم الكراونيين بأن ذلك سيحدث ، ينتهزون الفرصة للقيام بعملية نهب عامة ، ويأخذون من يرعون الماشية عبيدا ، ان لم يملكوا ما يفتدون به أنفسهم . وقد أحيط ماركو بولو (١٩) نفسه ذات مرة بستار من ذلك الظلام المصطنع ، ولكنه هرب منه الى قلعة كونسالى (٢٠) ومع هذا فان كثيرا من رفاقه أسروا وبيعوا ، كما أعدم آخرون ولهؤلاء القوم ملك اسمه كوروبار .

الفصل السادس عشر

عن مدينة هرمز ، الواقعة على جزيرة
غير بعيدة من الأرض الأصلية على بحر
الهند - وعن أهميتها التجارية - وعن
الرياح الحارة التي تهب عليها •

هناك عند نهاية السهل المنبسط الذى ذكرنا أنه يمتد
فى اتجاه جنوبى الى مسافة رحلة خمسة أيام منحدر طوله
قاربة عشرين ميلا ، الى جوار طريق مفرط الخطورة ، لكثرة
ما به من لصوص يهاجمون المسافرين وينتهبون ما معهم على
الدوام (١) • ويقودك هذا المنحدر الى سهل آخر يمتاز بمنظره
الجذاب الممتع ، وامتداده رحلة يومين ويسمى وادى هرمز •
وهنا تعبر عددا من المجارى المائية الجميلة ، وتشهد اقليلما
يغطيه النخيل ، الذى يعيش بينه طائر الدراج الفرانكولين ،
وطيور من نوع الببغاء ، وطيور أخرى غير معروفة فى
مناخنا • ثم تصل فى نهاية المكان الى حافة المحيط ، حيث
تقف على جزيرة لا تبعد كثيرا عن الساحل ، مدينة اسمها
هرمز (٢) ، يرتاد ميناءها التجار من كل أرجاء الهند ، وهم
يجلبون التوابل والعقاقير ، والأحجار الكريمة واللؤلؤ ،
ومنسوجات الذهب كما يجلبون أنياب الفيلة (العاج)
وأنواعا أخرى مختلفة من البضائع • وهنا يبيعون هذه
البضائع لمجموعة مختلفة من التجار ، يتولون توزيعها بكل
أرجاء العالم • والحق ان هذه المدينة يغلب عليها كثيرا الطابع
التجارى ، ولها بلاد وقلع تابعة لها ، وتعد المكان الرئيسى

بمملكة كرمان كلها (٣) - واسم حاكمها ركدين آتشوماك (٤) ، وهو يحكم حكما مطلقا ، ولكنه يعترف في الحين نفسه بسيادة ملك كرمان عليه (٥) ويدين له بالولاء - وإذا تصادف أن تاجرا أجنبيا مات في دائرة حكمه ، صادر أملاكه ، وأودع المبالغ المتحصلة في بيت ماله (٦) - والسكان لا يقيمون بالمدينة أثناء فصل الصيف ، لسبب ما بها من شدة الحرارة التي تجعل الهواء ضارا بالصحة ، ولكنهم ينسحبون الى بساتينهم الواقعة على امتداد الشاطئ ، أو على ضفاف النهر ، حيث يصنعون لأنفسهم على الماء من أعواد الصفصاف أكواخا وخصاصا ، ثم يحيطون هذه الأكواخ بأعواد تدفع في الماء من جانب وعلى الشاطئ من الجانب الآخر مكونين بذلك عريشة من أوراق الشجر تقيهم قيظ الشمس - وهنا يقيمون أثناء الفترة التي تهب فيها ، منذ قرابة التاسعة صباحا حتى الظهيرة ، ريح أرضية يبلغ من شدة حرارتها أن تعوق التنفس وتؤدي الى الوفاة باختناق الشخص الذي يتعرض لها - ولن يستطيع أحد النجاة من تلك الريح اذا فاجأته على السهل الرمل (٧) وما أن يحس السكان باقتراب هذه الريح ، حتى يغمسوا أنفسهم في الماء الى الأذقان ، ويظلون على هذه الحال حتى تتوقف عن الهبوب (٨) - وتأكيدا للشدة الخارقة لهذا القيظ ، يقول ماركو بولو انه تصادف أن كان بهذه النواحي عندما حدثت الظروف التالية : لما أبداه حاكم هرمز ، من اهمال أداء الجزية لملك كرمان ، اضطر الملك أن يعقد العزم على اجباره على أدائها أثناء الفصل الذي يكون فيه أهم سكان منزله خارج المدينة ، أى على أرض القارة ، وأرسل لهذا الغرض كوكبة من الجنود ، تتألف من ست عشرة مائة فارس وخمسة آلاف راجل ، سارت عبر اقليم ريوبارله لتأخذهم على غرة - ومع هذا ، فنظروا لأن الأدلاء أضلوها فقد فاتهم أن يصلوا الى المكان المقصود قبل انسداد الليل ، وتوقفوا ليأخذوا قسطا من الراحة في أجمة لا تبعد كثيرا عن هرمز ،

ولكنهم عندما عاودوا مسيرهم فى الصباح، فاجأتهم تلك الريح الحارة ، فاختنقوا عن آخرهم، ولم ينبج منهم واحد ينقل النبأ المشئوم الى مولاة . وعندما علم أهل هرمز بما حدث، وذهبوا لدفن جيف موتاهم ، حتى لا تفسد رائحتهم المنتنة الهوام ، وجدوهم ناضجين قد خبزتهم شدة الحرارة ، بحيث ان الأطراف كانت تنفصل عن الجذوع عند الامساك بها ، وبحيث أصبح من الضروري أن تحفر القبور فى أقرب مكان من الموقع الذى رقدت فيه الأجسام (٩) .

الفصل السابع عشر

عن السفن المستخلمة في هرمز - وعن
الفصل الذي تتمر فيه الفواكه -
وعن طرق عيش السكان وتقاليدهم .

ان السفن التي تبني في هرمز من أبدأ الأنواع ، كما
أنها خطيرة على الملاحة ، حيث تعرض التجار وغيرهم ممن
يستخدمونها لأخطار جسيمة . وترجع عيوبها الى عدم
استخدام المسامير في بنائها ، وشدة صلابة الخشب وتعرضه
للانشقاق والتصدع كالنفخار سواء بسواء . وعندما يحاول
النجار دق مسمار اذا هو يرتد ثانية وكثيرا ما ينكسر . ومن
ثم فان الألواح تثقب ، بكل عناية ممكنة ، بمثقاب حديدي
قرب حوافها وتدق فيها دبابيس أو أوتاد خشبية ، وبهذه
الطريقة تثبت الألواح . (في مقدم السفينة ومؤخرها) .
وبعد هذا تربط الألواح ما ، أو بمعنى أدق تخاط معا ،
بنوع من الحبل المفتول يؤخذ من ليف جوز الهند ، وهي أشجار
ضخمة الحجم وتكسوها مادة ليفية تشبه شعر الخيل . وينقع
الليف في الماء حتى تتعفن أجزاءه اللينة ، وتظل الخيوط أو
الفتل نظيفة ، ومن هذه يصنعون الحبل المفتول اللازم
لخياطة الألواح وهو يدوم طويلا تحت الماء (١) . ولا يستخدم
الزفت . (القار) للمحافظة على قيعان السفن ، ولكنها تطلّى
بزيت مصنوع من شحم السمك ثم تسد بالمشاقة . وليس
للسفينة أكثر من سارية واحدة ، ودفة واحدة ، وسطح
واحد (٢) . حتى اذا حملت حمولتها غطيت بالأدم : (الجلود
الخام) ، وعلى هذه الأدم يضعون الخيول التي يحملونها الى

بلاد الهند . وليس لديهم مراس حديدية ، ولكنهم يستخدمون بدلا منها نوعا آخر من اجهزة الرباط الأرضية . (٣) وهو امر نتيجته أنه كثيرا ما يحدث أثناء الأحوال الجوية السيئة - (وهذه البحار شديدة العواصف) ، أن تدفع هذه السفن الى الشاطئ وتدمر .

وسكان ذلك المكان ذوو بشرة قاتمة ، وديانتهم الاسلام . وهم يزرعون قمحهم وارزهم وغيرهما من الحبوب فى شهر نوفمبر ويحصدون محصولهم فى مارس . (٤) - وهم يجمعون الماديه ايضا فى ذلك الشهر ، باستثناء البلح وحده لانه يجمع فى مايو ومن البلح مع عناصر أخرى ، يصنعون نوعا جيدا من الخمر (٥) - ومع هذا ، فمتى شربه من لم يتعودوا عليه أحدث لديهم على الفور اسهالا ، حتى اذا شفوا من آثاره الأولى عاد عليهم بالمنفعة ، وادى الى زيادة وزنهم . ويختلف طعام الأهالى عن طعامنا ، فانهم لو أكلوا خبز القمح ولحم الحيوان لأضر ذلك بصحتهم . وهم يعيشون بصفة رئيسية على التمر والسّمك المملح ، مثل سمك التونة ، والسيبول (Ceplatania) وغير ذلك من أنواع أسماك يعرفون بالتجربة انها صحية . وفيما عدا مناطق المستنقعات ، فان أرض هذا الاقليم ليست مغطاة بالعشب وذلك نتيجة للحرارة الشديدة التى تحرق كل شيء .

وعند وفاة ذوى المكانة من الرجال، تنوح عليهم نساؤهم معولات بصوت مرتفع ، مرة واحدة كل يوم ، أثناء أربعة أسابيع متعاقبة ، كما أن هناك أيضا أناسا يوجدون هنا يتخذون من ذلك الندب حرفة ، ويؤجرون على النطق به فوق جثث أشخاص لا يمتون اليهم بصلة (٦) .

الفصل الثامن عشر

عن الاقليم الذى يعبر عند مغادرة
هرمز ، والعودة الى كرمان بطريق
آخر ، وعن مرارة فى الخبز بسبب
نوع الماء .

الآن وقد تحدثت عن هرمز ، فانى سأرجى الحديث عن
الهند فى الوقت الحاضر ، منتويا افراد كتاب منفصل
لموضوعها ، على أن اعود الآن الى كرمان فى اتجاه شمالى .
فانت حين تغادر اذ ذاك هرمز ، وتسلك طريقا مختلفا الى
ذلك المكان ، تدخل سهلا جميلا ، ينتج بوفرة كل مادة من
مواد الطعام ، وتكثر به الطيور ، وبخاصة طير الحجل . على
أن الخبز المصنوع من القمح بتلك المنطقة ، يعافه من لم
يعودوا لهواتهم عليه ، اذ أن له طعما مريرا يرجع الى نوع
المياه ، وهى بأجمعها مرة ومالحة . وانك لتشهد فى كل
جانب منها جداول دافئة وشفافية ، تعالج بها الأمراض
الجلدية شكايات بدنية أخرى غيرها . ويكثر بها البلع وغيره
من الفواكه بوفرة كبيرة .

الفصل التاسع عشر

عن المنطقة الصحراوية بين كرمات
وكويام ، وعن مرارة طعم الماء .

عند مغادرة كرمات والسفر ثلاثة أيام ، تصل الى حدود
صحراء تمتد الى مسافة رحلة سبعة أيام ، تصل في نهايتها الى
كويام (١) . ولا يلتقى المسافر فى أثناء الأيام الثلاثة
الاولى (من هذه الأيام السبعة) الا بالقليل من الماء ، وذلك
القليل مشبع بالملح ، وهو أخضر بلون العشب ، ويورث
الغثيان حتى ليحجم أى انسان عن استخدامه للشرب . فلو أنه
ابتلع منه حتى قطرة واحدة لترتب على ذلك اضطرابه لقضاء
الحاجة الطبيعية عدة مرات ، كما يحدث نفس الأثر لو تناول
المرء حبة من الملح المستخرج من ذلك الماء (٢) . ونتيجة لهذا
يضطر الأشخاص الذين يسافرون فى تلك الصحراء أن
يحملوا معهم ما يلزمهم من الماء . أما الماشية فيضطرها
العطش أن تشرب من الماء ما تجد ، فتصاب على الفور
بالاسهال .

وفى أثناء هذه الأيام الثلاثة لا يشاهد مسكن واحد .
فالمنطقة كلها قفر قاحل . ولا توجد بها ماشية اذ ليس بها
ما يقيم أودها من طعام (٣) ثم تبلغ فى اليوم الرابع نهرا
عذب المياه ، ولكن مجراه يسرى فى معظم أجزائه تحت

الأرض • على أنه توجد فى بعض الأجزاء فتحات مفاجئة -
تسببها قوة التيار ، ويبدو فيها النهر ظاهرا للعيان مسافة
قصيرة . وهنا يمكن الحصول على الماء بوفرة • فهنا يتوقف
المسافر المتعب لينعش نفسه وماشيته بعد ما مسه من متاعب
الرحلة السابقة (٤) وتمائل ظروف الأيام الثلاثة التالية
ظروف الثلاثة الأولى وتبلغه فى النهاية مدينة كوبيام •

الفصل العشرون

عن مدينة كوبيام وصناعاتها

ان كوبيام مدينة كبيرة ، يتبع أهلها ملة محمد * ولديهم
 قدر موفور من الحديد والاكاروم (accarum) والاندانيدوم
 (andanicum) ، وهم يصنعون هنا مرايا من الصلب الشديد
 الصقال ، ذات حجم كبير وجمال بالغ * ويوجد بالبلاد كثير
 من الأثمد (الانتيمونى) والزنك ، كما أنهم يحصلون على
 التوتياء (أكسيد الزنك) التى تصنع منها قطرة ممتازة
 للعيون ، فضلا عن الاسبوديوم ، بالطريقة التالية : فانهم
 يأخذون الخام الغفل من عرق معدنى معروف بأنه يعطى
 ما يتناسب والغرض المنشود ، ويضعونه فى قرن محمى *
 ويضعون فوق الفرن سفودا من الحديد يتكون من قضبان
 صغيرة مرصوفة رصا متقاربا * فيتعلق الدخان أو البخار
 المتصاعد من الخام بالقضبان أثناء احتراقه ، فاذا هو برد
 أصبح صلبا * فتلك هى التوتياء ، وذلك بينما الجزء الغليظ
 والثقيل ، الذى لا يتصاعد ، بل يبقى رمادا فى الفرن ،
 يصبح هو الأسبوديوم (١) *

الفصل الحادى والعشرون

عن الرحلة من كوبيسام الى ولاية
تيموشاين على التخوم الشمالية لبلاد
فارس - وعن نوع خاص من الشجر .

إذا أنت غادرت كوبيسام تقدمت فوق صحراء ذرعها
مسيرة ثمانية أيام معرضة لجذب شديد ، فلن يلتقى المرء فيها
بفاكهة ولا بأى نوع من أنواع الشجر ، وما لعله يوجد بها
من ماء مر المذاق . ومن ثم يضطر المسافرون أن يحملوا
معهم من الماء ما يكفى لحفظ أودهم ، ولكن يكره العطش
ماشيتهم على تجرع ما تجده فى تلك الصحراء من ماء ، يحاول
أصحابها اساغته لها باضافة الدقيق اليه ، وبعد انقضاء
ثمانية أيام تصل الى ولاية تيموشان ، التى تقع صوب
الشمال على تخوم فارس ، ويوجد بها مدن عديدة ومعاقل
حصينة كثيرة (١) ويوجد هنا سهل فسيح امتاز بانتاج نوع
من الشجر يسمى شجرة الشمس ، ويسميه المسيحيون بالشجرة
الجافة (Arbor Secco) ، أى الشجرة الناشفة أو عديمة الثمر .
واليكم بيانا بطبيعتها وصفاتها : فهى شجرة باسقة ، ذات
جزع ضخم ، وأوراقها خضراء فى سطحها الأعلى ، ولكنها
بيضاء بزرقة فى السطح السفلى . وهى تنتج قشورا أو
كبسولات كالتى يوجد القسطل داخلها ، ولكنها علب لا تحمل
ثمرا وخشبها متين وقوى وذو لون أصفر يماثل لون خشب
البقس (١) .

وليس هناك نوع آخر من الشجر غير هذه الى مسافة
مائة ميل ، اللهم الا في ناحية واحدة توجد فيها الأشجار على
بعد يقارب عشرة أميال •

ويقول أهالي تلك المنطقة ان معركة دارت رحاها هنا
بين الاسكندر ملك مقدونيا وبين دارا (٢) • والمدن مزودة
أجود تزويد لكل ضرورة من ضرورات الحياة ووسائل
الراحة ، اذ المناخ هنا معتدل لا يتعرض لتطرفات القر
والحر (٣) • ويدين الناس فيها بالاسلام • وهم على الجملة
شعب وسيم ، وبخاصة النساء منهم ، اللاتي هن في رأيي
أجمل من في الأرض من النساء •

الفصل الثانى والعشرون

عن شيخ الجبل - وعن قصره
وبساتينه - وعن أسره ومصرعه •

الآن وقد تحدثنا عن هذا الاقليم ، فسندكر بعد شيئاً عن شيخ الجبل (١) • وأطلق على الناحية التى يقع فيها مقر حكمه باسم منطقة الملاحدة ، ومعناها بلغة العرب المسلمين مكان الهرطقة ، كما كان قومه يسمون بالملحدين (٢) أى المؤمنين بالشعائر المتهرطقة ، وذلك كما نطلق مصطلح الباثارين على بعض الزنادقة من المسيحيين (٣) •

ويشهد ماركو بولو بأنه سمع المعلومات التالية عن هذا الرئيس من أشخاص متفرقين : كان يسمى علو الدين (٤) ، وهو على دين محمد • وهناك فى واد مونتق محصور بين جبليين شامخين ، أنشأ يستانا فاخرا ، جمع فيه أشهى الثمرات وأعطر النباتات التى استطاع اليها وصولا •

وشيدت قصور متنوعة الأحجام والأشكال بمختلف أرجاء المنطقة ، زينت بزخارف من ذهب ، وملئت حجراتها بالصور الزاهية وبالآثاث المكسو بأفخم الدمقس والاستبرق واستخدمت أنابيب صغيرة صممت فى هذه المباني ، وبوساطتها كانت أنهار من الخمر ولبن وعسل وماء فرات تشاهد وهى تفيض فى كل اتجاه • وكانت تسكن هذه القصور حوريات رشيقات جميلات دربن حتى أتقن جميع فنون الغناء ، واللعب على جميع أنواع الآلات الموسيقية ، والرقص ، كما أتقن بوجه خاص أفانين الغزل والاعراء والدلال • وكن يشاهدن دوما

وقد ارتدين امن اليباب وهن يبلعن ويسين انفسهن سى
الحديقه وما حوب من جواسق وسرادقات ، اد كان حراسهن
من النساء يبعين داخل المباني ولا يسمح لهن ابدا بالصهور *

وكان الهدف الذى رمى اليه الشيخ من انشاء هذه
الحديقه الفاتنه هو التالى : ان النبى محمدا وقد عد من
يتبعون ملته ويطيعون ارادته بالحظوة بجنت الفردوس ،
التي يوجد بها كل نوع من الاشباع الحسى ، فى رفقة حوريات
فاتنات ، فانه (آى الامير) رغب فى ان يفهم اتباعه عنه انه
هو أيضا نبى وانه نذ لمحمد ، ولديه القدرة فى أن يدخل الى
الفردوس كل من شاء أن يسعده *

ولكى يحول دون أن يجد أحد سبيله بغير اذن منه الى
ذلك الوادى الممتع ، أمر بانشاء حصن قوى منيع عند مدخله ،
كان الدخول من خلاله الى الوادى عن طريق سرداب سرى *
وكان ذلك الأمير يجمع فى بلاطه كذلك عددا من الشبان
تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين ، يختارهم من
بين سكان الجبال المجاورة ممن يبدون ميلا الى المراتة والدربة
العسكرية وتتجلى فيهم صفة الشجاعة المقدمة *

وجرت عادته بالتحدث اليهم يوميا فى موضوع الجنة
التي بشر بها النبى ، وعن قدرته هو على الانعام بالدخول
اليها على المقربين ، كما كان يأمر فى بعض الأحيان باعطاء
الافيون لعشرة أو دستجة (اثنى عشر) من هؤلاء الشبان *
فاذا صرعهم النوم فأصبحوا نصف موتى ، أمر بحملهم الى
الأجنحة العديدة للقصور المتناثرة فى البستان * فاذا
استيقظوا من حالة التخدير ، صعقت حواسهم جميع الأشياء
البهجة التي سلف وصفها ، ووجد كل منهم نفسه محوطا
بأوانس فاتنات يغنين له ويلعبن بالآلات ويستهوين لبه
وحواسه بأفتن أنواع المداعبة والعناق ، ويقدمن اليه أيضا
أشهى اللحوم وأفخر الخمر ، ولا يزلن به حتى يسكر بما

هو فيه من فرط المتعة وما حوله بالفعل من انهار ومن لبن وخمر ، حتى يعتقد تماما أنه في الفردوس ، ويعبس بعزوف عن التخلي عن مباحها ، فاذا انقضت بهم على تلك الحال أربعة أيام أو خمسة دفعوا بهم ثانية الى حالة من النعاس وحملوا الى خارج البستان • وعندما يدخلون الى حضرته فيسألهم أين كانوا كان جوابهم :

« في الفردوس بفضل عطف سموكم » ثم يعمدون ، بحضرة البلاط كله الذي يصنف رجاله اليهم بفضول وذهول وتلهف ، الى تقديم بيان تفصيلي عن المشاهد التي شهدوها رأى العين •

وعندئذ يقول الرئيس مخاطبا لهم : « لقد وعدنا رسول الله وكان وعده حقا ، بأن الجنة يرثها عباد الله الصالحون الذين يدافعون عن مولاهم ، واذا أظهرتم اخلاصا في طاعة أوامري ، فان ذلك المصير السعيد ينتظركم » • حتى اذا سرت فيهم الحماسة بأقوال من هذا النوع ، كان كل فرد فيهم يعد نفسه سعيدا حين يتلقى أوامر سيده ويبسدى توقه الى لقاء الموت في خدمته (٥) •

وكانت نتيجة هذا النظام ، أنه متى جرؤ أى أمير مجاور أو بعيد على إثارة استياء هذا الرئيس ، كان جزاؤه الموت على يد هؤلاء السفاكين المدربين • ولم يكن أحد منهم يحس أدنى رهبة عند مخاطرته بفقد حياته ، التي لم يكن لها عندهم وزن كبير ، ما تمكنوا من تنفيذ ارادة مولاهم •

وبناء على هذا أصبح طغيانه موضع الرهبة فى جميع الأقطار المجاورة ، وقد اتخذ لنفسه أيضا وكيلين أو ممثلين ، كان مقر أحدهما بالقرب من دمشق ، ومقر الآخر فى بلاد الكرد (٦) ، واتبع هذان الوكيلان نفس الخطة التي ابتدعها الشيخ ، لتدريب أتباعهما الفتيان •

وهكذا لم يكن هناك شخص ، مهما بلغت قوته ،
 بمستطيع وفد استنفر عداوة شيخ الجبل ، أن يفلت من
 الاغتيال • ولما كانت ولايته تقع داخل ممتلكات أولاءو
 (هولاكو) شقيق الخان الأعظم (مانكو) ، وترامت الى مسمع
 ذلك الأمير أنباء الفضائع التي كان يرتكبها على الوجه المبين
 آنفا ، فضلا عن استخدامه بعض الناس لنهب المسافرين أثناء
 مرورهم داخل ولايته ، فانه في عام ١٢٦٢ جرد أحد جيوشه
 لمحاصرة ذلك الرئيس في قلعته • على أنها أظهرت قدرة قوية
 على الدفاع ، بحيث انقضت ثلاث سنوات دون أن يلم بها أدنى
 تأثير ، حتى اضطر في النهاية الى التسليم بسبب النقص في
 الأطعمة ، وبعد أن أخذ أسيرا أمر به فأعدم • ودمرت قلعته
 وخربت جنة فردوسه (٧) • ومنذ تلك اللحظة لم يعد هناك
 شيخ للجبل •

الفصل الثالث والعشرون

عن سهل خصيب ذرعه مسيرة ستة
أيام ، تعقبه صحراء ثمانية أيام ، لابد
من اختراقهما في الطريق الى مدينة
سابورجان - وعن القاوون الممتاز
الذى ينبت هناك - وعن مدينة بلخ •

بعد هذه القلعة ، يؤدي الطريق الى سهل فسيح ثم يمر
بعد ذلك من خلال اقليم منوع السطح بين تل وواد ، به
العشب والمرعى ، فضلا عن الفواكه بوفرة عظيمة ، استطاع
بفضلها جيش أولاءو أن يظل بتلك الديار تلك المدة
الطويلة • وتمتد هذه المنطقة الى مسافة مسيرة ستة أيام
كاملة • وهى تحوى كثيرا من المدن والأماكن المحصنة (١)
كما أن سكانها من المسلمين • وعند هذا تبدأ صحراء ، تمتد
أربعين أو خمسين ميلا (٢) ، لا يوجد بها أثر للماء ، ومن
الضرورى للمسافر أن يتزود بما يلزمه من الماء عند بدء
رحلته • ونظرا لأن الماشية لا تجد شرايا حتى يتم اجتياز
هذه المفازة ، وجب اتخاذ أعظم الاحتياطات حتى تصل الى مكان
فيه ماء يروى ظمأها • ثم يصل المسافر عند انتهاء رحلة
اليوم السادس (٣) ، الى مدينة تسمى : سابورجان (٤) ،
مزودة بوفرة بكل نوع من أنواع المثونة ، كما أنها تشتهر
بوجه خاص بانبثات أجود ما فى العالم من القاوون • ويتم
الاحتفاظ بهذا القاوون بالطريقة التالية : فانه يقطع لولبيا
الى رقائق رفيعة ، كما يقطع القرع عندنا وبعد تجفيفه فى
الشمس ، يرسل بمقادير كبيرة الى الأقطار المجاورة ، لكى

يباع بها ، لانها تلتمسسه بشغف ، وذلك أنه شديد الحلاوة
 كعسل النحل (٥) * والصيد وفير هناك ايضا بين حيوان وصير *
 واذ نترك هذا المكان فاننا سنتحدث الان عن اخر اسمه
 بلخ : وهى مدينة كبيرة وفاخرة (٦) على أنها كانت فيما سلف
 اعظم خيرا ، ولكن اصابها التتار باضرار جسيمة ، فقد
 هدموا شطرا من مبانيها اثناء غاراتهم المتكررة * وكانت بها
 قصور كثيرة مبنية من الرخام ، وميادين فسيحة لا تزال
 موجودة ، وان اصبحت فى حالة متهدمة (٧) * وطبفا لما
 يرويه السكان فان هذه المدينة هى التى اتخذ فيها الاسكندر
 ابنة الملك دارا زوجا له (٨) * وتنتشر الديانة الاسلامية هنا
 أيضا (٩) ويمتد سلطان امير التتار الشرقيين حتى هذا
 المكان ، واليه تمتد حدود الامبراطورية الفارسية فى اتجاه
 شمال بشرق (١٠) وعند مغادرتك بلخ ومواصلتك نفس
 الطريق أمد يومين ، فانك تجتاز اقليما تعوزه كل دلالات
 السكنى ، حيث لاذ جميع الناس بمواطن منيعة فى الجبال ،
 التماسا للأمان من هجمات قطاع الطرق الخارجين على القانون
 الذين يجوسون خلال تلك النواحي * فهنا تغزر المياه وتكثر
 القنائص بشتى أنواعها * كما توجد الأسود أيضا بتلك
 الأرجاء (١١) ، وهى كبيرة الجثة وفيرة العدد * ومع ذلك
 فان المؤن نادرة فى منطقة التلال التى يتم اجتيازها أثناء
 هذين اليومين ، وينبغى للمسافر أن يحمل معه طعاما يكفيه
 هو وماشيته *

١٠ - مسلسل الرابع والعشرون

عن القلعة المسماة نايكان - وعن
عادات السكان وعن تلال الملح *

عند نهاية رحلة هذين اليومين تصل الى قلعة تسمى :
تايدان ، تصوم بها سوق عظيمه للحبوب ، لانها تقع في فطر
جميل كثير النمرات * والتلال التي تقع في جنوبها ضحمة
ومرتعه (١) * وكلها تتكون من ملح ابيض مفرط الصلابة ،
يأتى الناس فى الدائرة المحيطة به على مسيرة ثلاثين يوما
للتزود منه ، اذ يقدر أنه أنقى ما فى العالم من ملح ، ولكنه
فى الوقت نفسه من الصلابة بحيث لا يستطيع فصله الا بآلات
حديدية (٢) * يبلغ من عظم مقاديره ، أن جميع أقاليم
الأرض يمكن أن تتزود به من هناك *

وتمة تلال اخرى تنتج اللوز والفسق (٣) ، وهما
سلعتان يتخذ منهما السكان تجارة عظيمة * فاذا أنت غادرت
نايكان وسافرت ثلاثة ايام ، فى اتجاه شمالى بشرق ، فانك
تمر من خلال اقليم أهل بالسكان ، جميل المنظر وتكثر فيه
الفاكهة والحبوب والكروم * والناس هناك مسلمون كما أنهم
متعطشون للدماء ويتصفون بالفدر والخيانة * وهم شديدي
الولع بالفسوق والافراط فى الشراب ، الأمر الذى يشجعهم
عليه امتياز نبيذهم الحلو (٤) وهم لا يلبسون على رؤوسهم
شيئا الا حبالا (عقالا) ، طوله سبعة أشبار تقريبا ، يلفونه
حول الرأس * وهم رياضيون ممتازون ، ويصيدون كثيرا من
الضواري دون أن يتخذوا أى ثياب ، عدا جلود ما يصيدون
من وحش ، ومنها أيضا يصنعون أحذيتهم * وهم يتعلمون
جميعا كيف يجهزون الجلود *

الفصل الخامس والعشرون

عن مدينة سكاسم ، وعن حيوان
الشيهم الموجود بها •

فى أثناء رحلة تمتد ثلاثة أيام ، توجد مدن وقلاع كثيرة ، وعند تلك المسافة تصل الى مدينة تسمى سكاسم (١) ، يحكمها رئيس يعادل لقبه لقب البارون أو الكونت عندنا ، كما أنه يحكم بين الجبال مدنا أخرى ومواقع منيعة • ويمر فى وسط هذه المدينة نهر اتساعه لا بأس به • وهنا توجد الشياهم التى تكور نفسها عندما يطلق الصائدون عليها كلابهم وتبرز بهياج شديد الأشواك التى تغطى جلودها ، فتجرح الرجال والكلاب على السواء • ولسكان ذلك القطر لفهم الخاصة ، ويقىم الرعاة الذين يرعون الماشية بين التلال فى مغارات يصنعونها بأنفسهم • وليست هذه بالعملية العسيرة على كل حال ، وذلك لأن التلال لا تتكون من الصخر بل من الطين • وعند مغادرتك هذا المكان تبدأ رحلة طولها ثلاثة أيام دون أن ترى أى نوع من أنواع المباني ، أو تلتقى بالضروريات التى يحتاج اليها المسافر ، وذلك فيما عدا الماء ، على أنه يوجد للخيل مرعى كاف • وأنت مضطر تبعا لذلك أن تحمل معك كل ما تحتاج اليه من أشياء على الطريق • وفى نهاية اليوم الثالث تصل الى ولاية بالاشان (٢) •

الفصل السادس والعشرون

عن ولاية بالاشان - وعن الأحجار
النفيسة التي عثر عليها هناك والتي
تصبح ملكا تملك - وعن خيول
الاقليم وبزاته - وعن الجو الصحي
للجبال - وعن الذي تزين به النساء
اشخاصهن *

يدين الناس بولاية بالاشان بالاسلام ، ولهم لغة خاصة
يتحدثون بها * والولاية مملكة مترامية الأطراف ، يبلغ
طولها مسيرة اثني عشر يوما كاملة ، ويحكمها أمراء
يتعاقبون عليها بالوراثة ، وكلهم ينحدر من الاسكندر ، عن
طريق ابنة دارا ، ملك الفرس * وحمل هؤلاء لقب ذي القرنين
الوارد في اللسان العربي ، كمعادل للاسكندر (١) *

وتوجد بالاقليم الأحجار الكريمة المسماة بيواقيت البالاس
(Balass rubies) ، وهي من صنف ممتاز وذات قيمة عظيمة
وتسمى كذلك نسبة الى اسم الولاية (٢) وهي مدقونة في
الجبال العالية ، على أن القوم لا يبحثون عنها الا في جبل
واحد يسمى جبل سيكينان (٣) * ففي هذا الجبل يأمر الملك
بتشغيل المناجم ، بنفس الطريقة المتبعة فيما يتعلق بالذهب
أو الفضة ، وعن هذه الوسيلة وحدها يحصل عليها ،
فلا يجروا انسان والا عرض نفسه للقتل ، أن يقوم بحفر
لذلك الغرض مالم يحصل على رخصة من الملك كأنعام خاص
عليه من جلالته *

وقد يحدث بين فينة وفينة أن يهبها الملك هدايا للأجانب الذين يمرون من خلال ممتلكاته ، وذلك لأنه لا يمكن الحصول عليها بالشراء من غيره من الناس ، كما لا يمكن تصديرها بغير إذن منه . وغرضه من هذه القيود هو ان يواقيت برده التي يعتقد أن مكانته مرتبطة بها ، ينبغي ان تحفظ بقيمتها وتحافظ على أثمانها العالية ، وذلك أنه لو امكن استخراجها جزافا بغير تمييز ، واستطاع كل انسان شراءها واخراجها من المملكة ، وهي ما هي من شدة الوفرة ، فانها سريعا ما تفقد قيمتها . ومنها ما يرسله الملك هدايا لخدمة غيره من الملوك والأمراء ، ومنها ما يسلمه جزية (لمولاه الأعلى) ، ومنها كذلك ما يبادل عليه بالذهب والفضة وهذه اليواقيت هي التي يسمح بتصديرها .

وهناك جبال يعثر فيها بالمثل على عروق من معدن اللازورد Lapis Lazuli ، وهو الحجر الذي يعطى اللون الأزرق اللازوردي المسمى بالأزرق الشرقي (Vitra marine) (2) ، وهو هنا أبداع نوع في العالم .

ومناجم الفضة والنحاس والرصاص عظيمة الانتاج أيضا ، والاقليم يعد من البلاد الباردة . والخيول التي تربي به ذات سلالة ممتازة وتتصف بسرعتها الفائقة . وسنابدها من الصلابة بحيث لا تحتاج الى حدوة (5) .

وجرت عادة الأهالي بالرمح بها على المنحدرات التي لا تستطيع ماشية أخرى أن تجرؤ على العدو عليها أو تأبى ذلك . وأكدوا أنه منذ زمن غير بعيد كانت لا تزال توجد في تلك الولاية ، خيول من سلالة خيل الاسكندر الشهيرة المسماة بوكيفالوس (Bucephalus) ، وكلها كانت تولد بغرة مميزة في جبينها .

وكانت السلالة بأجمعها ملكا لأحد أعمام الملك ، ولما أبى ذلك العم تسليمها لابن أخيه كان الاعدام جزاءه ،

وأعمى الحنق على مصرعه أرملته فأمرت بالخيول كلها فأعدمت،
وبذلك ضاعت هذه السلالة على العالم - وتوجد في الجبال
بزاة من النوع المسمى بالصقر (Falco Sacer)، وهي طيور ممتاز
شديدة في طيرانها ، فضلا عن نوع يسمى (Falco Lanarius)
وهناك أيضا بزاة من نوع ممتاز (Falco astui, or Parumbarius)
وبواشق (Falco nisus) *

وأهالى ذلك القطر قناصة خبراء يجيدون طرد كل من
البهائم والطيور - وينبت القمح الجيد هناك وكذا نوع من
الشعير ليس له القشرة (٦) الخشنة - وهم لا يستخرجون
الزيت من الزيتون ، بل يعصرونه من أنواع معينة من الجوز
ومن الحب المسمى بالسسم (٧) ، الذى يشبه بذر الكتان
لولا أنه فاتح اللون ، والزيت الذى يخرج هذا السسم
أفضل ، وأطيب نكهة من أى زيت آخر ، ويستخدمه التتار
وغيرهم من سكان تلك الأرجاء *

وبهذه المملكة كثير من الشعاب الضيقة ، والمواقع
الحصينة التى تقلل من الخوف من أية قوة أجنبية تدخلها
بقصد عدائى - والرجال فيها رماة نبل مهرة ورياضيون
ممتازون ، يكتسبون عادة بجلود الحيوانات الضارية ، وذلك
لندرة غيرها من المواد اللازمة للكساء - وتوفر الجبال المرعى
اللازم لعدد لا حصر له من الأغنام التى تتجول فى قطمان
عدتها أربعمئة أو خمسمئة أو ستمئة وكلها برية ، ومع أن
العديد منها يؤخذ ويذبح فانه لا يبدو أنها يعترىها أى
نقص (٨) *

وهذه الجبال مفرطة الارتفاع ، الى حد أن صعود رجل
عليها حتى قممها يستغرق منه يوما كاملا من الصباح الى
المساء - وتقع بينها سهول فسيحة تكسوها الحشائش
والأشجار ، وجداول كبيرة من أنقى الماء وأعذبه تهوى بين
شقوق الصخور - وتعيش بهذه الجداول أسماك النقطة
(السلمون الأرقط) وكثير غيرها من أنواع السمك الشهية *

والهواء فوق قمم الجبال بالغ الصحية ، بحيث انه متى وجد من يسكنون المدن والسهول والوديان فى أسفل ، أنفسهم مصابين بالحمى أو غيرها من أمراض الالتهابات ، فانهم ينتقلون على الفور الى هناك ، ويقيمون ثلاثة أو أربعة أيام فى ذلك الموقع ، فيستردون بذلك صحتهم .

ويؤكد ماركو بولو أنه جرب فى شخصه آثاره الرائعة ، وذلك لأنه بعد أن ألزمه المرض الفراش بذلك الاقليم زهاء سنة (٩) نصحه الناس بتغيير الهواء بالصعود الى أعلى التلال ، فبدأ من فوره دور النقاهاة . وينتشر بين نساء الطبقة العليا زى خاص ، فهن يرتدين فى أسفل خصورهن ، على مثال السراويل ، ضربا من الرداء ، يستخدم فى صنعه ، حسب مواردهن المالية مائة أو ثمانين أو ستين ذراعا من قماش القطن الرفيع ، الذى يجمعونه ، أو يثنيونه طيات لكى يضخم الحجم الظاهرى لأردافهن . اذ تعد صاحبة أضخم عجيذة أجمل النساء جميعا (١٠) .

الفصل السابع والعشرون

عن ولاية باسكيا التي تقع جنوب
الولاية السابقة - وعن الحل الذهبية
التي يلبسها السكان في آذانهم -
وعن عاداتهم .

أنت اذا غادرت بالاشان وسافرت في اتجاه جنوبي مدة
عشرة أيام تبلغ ولاية باسكيا (١) ، التي لسكانها لغة خاصة .
وهم يعبدون أصناما ، ولون بشرتهم قاتم وميولهم شريرة ،
ويتقنون فن السحر وتعازيم الشياطين ، وهي دراسة يكون
عليها باستمرار . وهم يلبسون في آذانهم حلقات مدلاة من
الذهب والفضة ، ومرصعة بالآلئ والأحجار النفيسة (٢) .
ومناخ الولاية مفرط الحرارة في بعض أجزائها (٣) .
وطعام السكان هو اللحم والأرز (٤) .

الفصل الثامن والعشرون

عن ولاية كزمور الواقعة في اتجاه
الجنوب الشرقي • وعن سكانها المهرة
في السحر - وعن مواصلتهم مع
البحر الهندي - وعن طائفة من
النساء ، وطريقه عيشهم ، وتقشفهم
غير العادي •

ان كزمور ولاية على مسيرة سبعة أيام من باسكيا (١) •
ولسكانها لغتهم الخاصة أيضا (٢) • وهم على مهارة تتجاوز
كل من عداهم في فنون السحر ، حتى ليتمكنهم اجبار أوثانهم
على الكلام ، وان كانت بطبيعتها بكما صماء • ويمكنهم
بالمثل أن يغطشوا (يعتموا) النهار ويقوموا بمعجزات أخرى
كثيرة • ولهم مكانة بارزة بين الأمم الوثنية ، ومن عندهم
تصدر الأصنام التي تعبد بمناطق أخرى (٣) • وتمتد من
هذا القطر مواصلة مائية الى البحر الهندي (٤) وبشرة
الأهالي سمراء قاتمة ولكنهم ليسوا سودا بأية حال ، ومع أن
النساء سمراوات فانهن وسيما جدا • واللحم طعامهم (٥) ،
ومعه الأرز وغيره من الحبوب ، ولكنهم على الجملة أميل الى
الاقتصاد • والمناخ حار باعتدال (٦) • ويوجد في هذه
الولاية - فضلا عن العاصمة - مدن ومعاقل أخرى كثيرة •
وبها كذلك غابات ومناطق صحراوية وممرات وعرة في
الجبال ، تمنح السكان الأمن من الغزو (٧) • وليس ملكهم
تابعا لأي دولة - وفيهم طبقة خاصة من الأتقياء ، الذين
يعيشون في مجتمعات ، ويراعون تقشفا دقيقا في طعامهم

وشرابهم وعلاقتهم الجنسية ، ويمتنعون عن كل متعة حسية ، حتى لا يكذبوا ما يعبدون من صمم * ويعيس سوء الاشخاص حتى يبلغوا سنا عالية * ولهم أديرة خيره يمارس فيها بعض الرؤساء أعمال رؤساء الأديرة عندنا ، كما ان جمهرة الشعب الغفيرة توقرهم أعظم توقير (٨) * وأهالى هذا القطر لا يزهدون حياة أى كائن حى ، ولا هم يسفكون دماء ، واذا هم جنحوا الى أكل اللحم ، فلا بد أن يقوم المسلمون الدين يسكنون بين ظهرانيهم بذبح الحيوانات (٩) * وتباع مادة المرجان التى تنقل الى هناك من أوربا بسعر أعلى منه فى أى قطر من أقطار العالم *

واذا أنا مضيت فى نفس الاتجاه ، قادتني قدمي الى بلاد الهند ، على أنى رأيت الاحتفاظ بوصف ذلك القطر لكتاب ثالث ، ومن ثم فانى سأعود الى بالاشان ، منتويا أن أسلك من هناك الطريق المستقيم المؤدى الى كاثاي ، وأن أصف ، كما حدث منذ بداية الكتاب ، لا فقط الأقطار التى يخترقها الطريق مباشرة ، بل أيضا الأقطار التى تقع الى جواره عن اليمين واليسار. (١٠) *

الفصل التاسع والعشرون

عن ولاية فوخان - وعن صعود
مدته ثلاثة أيام يفضى الى قمة جبل
عال - وعن سلالة خاصة من العنم
توجد هناك - وعن اثر الارتفاع
العظيم على النيران - وعن حياة الاهالى
المتوحشة *

متى غادرت ولاية بالاشان ، وسرت فى اتجاه وسط بين
الشمال الشرقى والشرق ، تمر على كثير من القلاع والمساكن
تقوم على ضفتى النهر ، وتتبع شقيق ملك ذلك المكان وبعد
مسيرة ثلاثة أيام ، تصل الى ولاية تسمى فوخان ، تمتد هى
نفسها طولا وعرضا بمقدار مسيرة ثلاثة أيام (١) ، والناس
بها مسلمون ، يتحدثون لغتهم الخاصة * وهم متحضرون فى
عاداتهم ، ويعدون من ذوى الاقدام والجساره فى الحرب *
وكبيرهم يحكم بلاده كاقطاعة تابعة لبالاشان * وهم يمارسون
طرقا عديدة فى اقتناص الحيوانات البرية * فاذا أنت غادرت
هذا القطر ، وتقدمت مسيرة ثلاثة أيام أخرى سالكا طريقا
شرقيا شماليا بشرق ، متوقلا جبلا بعد جبل ، وصلت فى
النهاية الى نقطة فى الطريق ، يخيل اليك فيها بأن القمم
المحيطة بك أعلى ما فى العالم من أراض وهنا تشهد بين
سلسلتين جبليتين ، بحيرة ينساب منها نهر جميل ، يواصل
مسيره فى وسط سهل رحيب منبسط ، تغطيه أنضر الخضرة *
والحق انه من جودة الكلا بحيث ان أشد الماشية هزالا لو
حولت اليه لأصبحت سمينة فى مدى عشرة أيام * وتوجد

فى هذا السهل حيوانات برية فى أعداد كبيرة ، وبخاصة
 ضرب من الشياه ذات حجم ضخم ، ولها قرون ، طولها ثلاثة
 واربعه واحيانا ستة اشبار . ومن هذه القرون يصنع الرعاء
 مغارف واوعية يحفظون فيها اطعمتهم ، وينفس المواد
 ينشئون السياجات لحصر ماشيتهم وحمايتها من الدتاب ،
 التى يقولون انها تزعج الاقليم كله بهجماتھا والتى تمضى
 بالمل على كثير من هذه الاغنام أو الأعناز البرية (١) .
 ونظرا لوجود قرونها وعظامها بمقادير كبيرة ، تجعل منها
 أكواما على جانبى الطريق بقصد ارشاد المسافرين أثناءالموسم
 الذى يتخطى فيه بالثلوج ، ويمتد الطريق اثنى عشر يوما
 على امتداد هذا المنبسط المرتفع ، الذى يسمى البامير (٢) ،
 ولما كنت فى أثناء ذلك الوقت كله لا تلتقى بأية مناطق
 سكنية ، فمن الضرورى والحالة هذه أن تتزود بالمؤن منذ
 البداية . ويبلغ من شدة ارتفاع الجبال ، ألا ترى طيور
 قرب قممها ، وهناك شيء تأكد ، رغم أنه قد يبدو غريبا
 وغير عادى ، وهو أنه نظرا لشدة برودة الهواء ، لا تعطى
 النيران متى أشعلت نفس درجة الحرارة المعتادة فى المواقع
 المنخفضة ، ولا هى تنتج نفس الأثر فى طهى الأطعمة .

وبعد قيامك برحلة الاثنى عشر يوما هذه يتبقى أمامك
 أربعون يوما ترحل فيها فى الاتجاه نفسه ، فوق جبال وعبر
 وديان ، تجيء فى تعاقب مستمر ، مع عبور أنهار كثيرة
 ومناطق صحراوية دون رؤية أية مساكن أو ظهور أية خضرة ،
 وتبعا لذلك لابد لك أن تحمل معك كل نوع من أنواع المواد
 الغذائية . ويسمى هذا الاقليم باسم بيلورو (٣) . ويسكن
 حتى بين أعلى الجبال ، قبيلة من قوم متوحشين شرسين
 يعبدون الأوثان ، ويعيشون على ما يقتلون من حيوان ،
 ويكتسون بجلودها .

سلسلة انتلاتون

عن مدينة كاشكار (كشغر) وعن
تجارة سكانها *

وأخيرا تصل الى مكان يسمى كاشكار (كشغر) ، يقال
انه كان فيما سلف مملكة مستقلة ، ولكنها الآن خاضعة لسلطان
الخان الأعظم (١) - ويدين سكانها بالاسلام - والولاية
فسيحة الأرجاء ضخمة وتحوى مدنا وقلاعا كثيرة ، اكبرها
وأهمها (كشغر) (٢) - ولغة الأهالي خاصة بهم - وهم
يعيشون من التجارة والصناعة وبخاصة مصانع القطن -
ولديهم حدائق مونقة وبساتين وكروم ذات بهجة - وتتبع
بلادهم مقادير موفرة من القطن ، فضلا عن الكتان والقنب -
ويسافر تجار من هذا القطر الى أقطار العالم طرا ، ولكنهم
فى الحقيقة جنس جشع دنىء (٣) ، يأكلون الردىء من الطعام
ويشربون الأردأ - وفضلا عن المسلمين فان بين السكان كثيرا
من المسيحيين النساطرة ، الذين يسمح لهم العيش فى ظل
شرائعهم الخاصة والاحتفاظ بكنائسهم - وامتداد الولاية
رحلة خمسة أيام *

الفصل الحادى والثلاثون

عن مدينة سمركان ، وعن العمود
المعجزى بكنيسة القديس يوحنا
المعمدان *

ان سمركان (سمرقند) مدينة فاخرة ، تزينها الحدائق الجميلة ويحيط بها سهل ينتج به جميع ما يشتهي الانسان من الفواكه (١) * والسكان الذين يعتنق بعضهم الاسلام وبعضهم الآخر المسيحية ، هم رعايا ابن أخ للخان الأعظم ، ومع هذا فليس بينهما ود ، وانما هما على العكس فى نزاع مستمر وحروب كثيرة (٢) وتقع هذه المدينة فى الاتجاه الشمالى الغربى * ويقال ان معجزة حدثت هناك فى ظل الظروف التالية : حدث منذ أمد غير بعيد أن اعتنق المسيحية أمير يسمى زاجاتاي ، (جاغتاي) كان أخا شقيقا للخان الأعظم (الجالس على العرش عندئذ) * فابتهج المسيحيون سكان المنطقة أيما ابتهاج ، وانطلقوا بعطف الأمير ورعايته يشيدون كنيسة وكرسوها على اسم القديس يوحنا المعمدان * وكان بناؤها على صورة تجعل كل ثقل السقف (وهو قرص دائرى) مرتكزا على عمود فى الوسط ، وثبتوا فى أسفل العمود حجرا مربعا ليكون له أساسا ، أخذوه من أحد مساجد المسلمين الذين لم يجرعوا على منعهم من فعل ذلك * ولكن عندما توفى زاجاتاي ، ولم يبد ولده الذى أعقبه على العرش ميلا الى اعتناق المسيحية ، فان نفوذ المسلمين عنده بلغ من القوة أن جعلهم يحصلون منه على أمر بأن يرد اليهم خصومهم الحجر

الذى استولوا عليه ، ومع أن المسيحيين عرضوا عليهم دفع تعويض مالى ، فانهم أبوا الاصغاء الى ذلك الاقتراح ، لعلمهم بأن ازالته ستؤدى الى انهيار الكنيسة - وفى هذه المحنة لم يسع المسيحيين المنكوبين الا أن يستغيثوا ، دامعى الأعين ذليلى الأنفس ، يعون القديس المجيد يوحنا المعمدان - فلما أن وافى اليوم الذى وجب عليهم فيه أن يردوا الحجر ، حدث بفضل شفاعة القديس ، أن رفع العمود نفسه من قاعدته مقدار ثلاث راحات. (أشبار) ليسهل عليهم ازالة الحجر ، ولا يزال مستمرا على ذلك الوضع بغير دعامة الى يومنا هذا (٣) - الآن وقد علمنا عن هذا ما فيه الكفاية ، فاننا سننتقل الى ولاية كركان .

الفصل الثانى والثلاثون

عن ولاية كركان ، التى يصاب
سكانها بتورم الساقين والتهاب الغدة
البرقية (الجوفى) *

عندما تغادر هذه الناحية تدخل ولاية كركان (١) ،
التي تستمر مسافة رحلة خمسة أيام ومعظم سكانها مسلمون
مع بعض مسيحيين نساطرة ، وكلهم رعايا للخان الأعظم .
والمواد الغذائية وفيرة هنا ، شأن القطر أيضا - والناس
صناع مهرة * وهم مصابون على الجملة بتورم فى الساقين ،
وأورام فى الحلق ، ترجع الى نوع الماء الذى يشربون (٢) *
وليس فى هذا القطر شئ آخر جدير بالملاحظة *

الفصل الثالث والثلاثون

عن مدينة كوتان ، المزودة بوفرة
بجميع ضروريات الحياة •

إذا أنت اتبعت طريقا بين الشمال الشرقى والشرق ،
وصلت بعد ذلك الى ولاية كوتان (١) وامتدادها رحلة ثمانية
أيام • وهى تحت سيادة الخان الأعظم ، والناس فيها من
المسلمين • وتحتوى على مدن ومعقل كثيرة ، وان كانت
المدينة الرئيسية ، التى يطلق اسمها على الولاية ، هى
كوتان • وكل شىء لازم لحياة البشر موجود هنا بأعظم
وفرة • وهى تنتج كذلك القطن والكتان والقنب والحبوب
والخمور وغيرها من السلع • ويزرع السكان المزارع وحقول
الكروم ، ولديهم حدائق كثيرة (٢) • وهم يرتزقون أيضـ
بالتجارة والصناعات ، ولكنهم ليسوا جندا صالحين
وسنتحدث الآن عن ولاية اسمها باين •

الفصل الرابع والثلاثون

عن ولاية باين - وعن العقيق
الآبيض واليسبب الموجودين في
نهرها - وعن عادة عجيبة تتعلق
بالتزواج .

ان باين ولاية امتدادها مسيرة خمسة أيام تقع في
الاتجاه الشرقي بشمال شرق (١) . وهي تحت سلطان
الخان الأعظم وتحوى كثيرا من المدن والمواقع الحصينة التي
تسمى المدينة الرئيسية فيها باسم باين أيضا . ويجرى في
هذه الولاية نهر ، توجد في قاعه كثير من تلك الأحجار
المسماة بالعقيق الأبيض واليشب (Chalcedonies and Jasper) (٢) ،
ويمكن الحصول على جميع انواع الأطعمة وتنتج البلاد
القطن أيضا . ويعيش السكان على الصناعة والتجارة .
وهم يمارسون العادة التالية وهي أنه متى سافر رجل متزوج
الى منطقة بعيدة عن وطنه وغاب عشرين يوما ، كان
لزوجته الحق ، ان وجدت ميلا الى ذلك ، أن تتخذ زوجا
آخر ، كما يعتمد الرجال ، عملا بنفس المبدأ الى الزواج
حيثما اتفق أن أقاموا . وتقع جميع الولايات سالفه الذكر
وأعنى بها قشغر . وكوتان وباين ، الى صحراء لوب ،
داخل حدود التركستان (٣) . ثم تعقب ذلك ولاية
شارشان .

الفصل الخامس والثلاثون

عن ولاية سارشان - وعن أنواع
الأحجار الموجودة بأنهارها - وعن
حاجة السكان الدائمة ، الى الصحراء
عند اقتراب جيوش التتار .

تعد سارشان أيضا ولاية من ولايات التركستان ، تقع
فى اتجاه شرقى شمالى بشرق (من باين) كانت فيما خلا فى
الزمان زاهرة مثمرة ، ولكن التتار خربوها وتركوها يبابا .
والسكان هناك من المسلمين . وقصبتها الكبرى تسمى
كذلك سارشان (١) . ويجرى فى هذه الولاية عدة أنهار
كبيرة ، يوجد فيها العقيق الأبيض واليشب ، اللذان
يحملان ليابعا فى كائى (٢) ، يبلغان من الوفرة حدا
يجعلهما يشكلان سلعة تجارية مهمة . وأرض الاقليم الممتد
من باين الى هذه المنطقة ، وكذا فى كل امتداده طولاً
وعرضاً مكونة من رمال لا نهاية لها (٣) ، ومعظم الماء فيه
مر لا يستساغ ، وان كان عذبا وطيبا فى أماكن معينة .
واذا مر بهذه البلاد جيش من التتار وكان عدوا سلب أمتعة
السكان وأموالهم ، وان كان صديقا ذبح ماشيتهم وألثمها ،
من أجل ذلك فانهم متى علموا باقتراب أية تشكيلة من الجند ،
يفرون بعائلاتهم وأنعامهم ، الى الصحراء الرملية ، مسيرة
يومين ، الى أى مكان يجدون فيه مياها حلوة ويتمكنون
بذلك من مواصلة العيش . ونتيجة لذلك الخوف نفسه
فانهم يعمدون حين يجمعون محصولهم الى ايداع الحبوب
فى كهوف بين الرمال ، ويأخذون من المخزون كل شهر

ما يلزم استهلاكهم ، وهنا أيضا لا يستطيع أحد عداهم معرفة الأماكن التي يلجأون اليها لذلك الغرض ، لأن الريح تمحو على الفور آثار أقدامهم • وعند مغادرة شاشان يستمر الطريق على الرمال خمسة أيام يكون فيها الماء رديئا على الجملة ولكن ليس بكل مكان • ولا يحدث بعد هذا شيء آخر يستحق الملاحظة • وبعد هذه الأيام الخمسة تصل الى مدينة لوب ، على تخوم الصحراء الكبيرة •

الفصل السادس والثلاثون

عن مدينة لوب - وعن الصحراء
الجاورة لها - وعن الأصوات الغريبة
التي يسمعونها من يعبها *

تقع مدينة لوب ناحية الشمال الشرقي ، قرب بداية
الصحراء الكبيرة ، التي تسمى صحراء لوب (١) * وهي
تابعة لممتلكات الخان الأعظم ، وديانة أهلها الاسلام *
والرحالة الذين ينوون عبور الصحراء ، يتوقفون في العادة
مدة طويلة عند هذا المكان ، ابتغاء الراحة من متاعبهم ،
فضلا عن اعداد العدة اللازمة لاستئناف رحلتهم : ومن أجل
تلك الغاية يحملون عددا من الحمير والجمال القوية بالمؤن
وبما معهم من بضاعة * فان استهلكت المؤن قبل اتمام
الرحلة ، ذبحوا الأنعام التي معهم بنوعيتها وأكلوها ، ولكن
العادة جرت باستخدام الجمال هنا وتفضيلها على الحمير ،
لأنها تحمل أحمالا ثقيلة ولا تحصل من طعام الا على قدر
صغير من العلف *

وينبغي أن يخزن مخزون المؤن الكافي لمدة شهر ، وهو
الزمن اللازم لعبور الصحراء في أضيق أجزاءها * اذ أن
قطعها في اتجاه طولها محاولة فاشلة لا جدوى منها ، وذلك
لأن تلك المحاولة تستغرق ما يقل عن سنة بقليل * ولا شك
أن حمل مؤن لمثل تلك المدة سيتضح انه شيء غير معقول (٢) *

وفي هذه الأيام الثلاثين تمضى الرحلة بصورة لا اختلاف فيها ما فوق متبسطات من السهول الرملية ، أو مرتفعات من الجبال القاحلة ، ولكنك تتوقف عند نهاية مسيرة كل يوم فى مكان يمكنك الحصول منه على الماء ، أجل ان ذلك الماء لا يوجد بمقدار كاف لأعداد ضخمة من الرجال ، ولكن فيه الكفاية لتزويد مئة رجل ومعهم دواب حملهم . والماء مالح ومر عند ثلاث أو أربع من هذه المحطات ولكنه عذب وطيب عند المحطات الأخرى التى تصل الى ما يقارب العشرين .

ولن تلتقى فى هذه الشقة المترامية بحيوان ولا طير ، اذ ليس هناك طعام لها (٣) .

ومما يؤكد على أنه حقيقة معلومة جيد العلم أن هذه الصحراء مأوى لكثير من الأرواح الشريرة ، التى تستدرج المسافرين الى حتفهم بكل أنواع الايهام الخارقة للمألوف .

فان حدث أثناء النهار ، أن تخلف أى أفراد فى الطريق ، اما لأن النوم أعاقهم أو عطشهم أى داع من دواعى الطبيعة ، حتى تمر القافلة أمام تل وتختفى عن الأنظار ، فانهم يسمعون عن غير انتظار من يناديهم بأسمائهم ، وبصوت ونبرة قد ألفوهما ، فيظنون أن النداء صادر من زملائهم ، فيضللهم ذلك عن الطريق المباشر ، حتى اذا أصبحوا لا يدرون الى أى اتجاه يتقدمون ، يتركون حتى يلاقوا الهلاك . فأما فى الليل فانهم يحملون على الاقتناع بأنهم يسمعون صوت مسير جمهرة ضخمة من الفرسان فى هذا الجانب أو ذاك من الطريق ، واذ يستنتجون ان الضجة انما هى مواقع أقدام فريقهم ، فانهم يوجهون أقدامهم الى الجهة التى يخيل اليهم أن الأصوات تصدر منها ، ولكنهم يتعرضون فيه للأخطار .

ويحدث أحيانا بالمثل أثناء النهار أن تتخذ هذه الأرواح مظهر رفاقهم فى السفر ، فيخاطبونهم بأسمائهم

ويحاولون اخراجهم عن الطريق السوى * ويقال أيضا ان بعض الأشخاص يرون ، أثناء مسراهم عبر الصحراء ، ما خيل اليهم انه تشكيلة من رجال مسلحين يتقدمون نحوهم ، فيخافون من أن تهاجمهم تلك التشكيلة وتنهب ما معهم ، فيلوذون بأذيال الفرار * واذ يضيع منهم بذلك الطريق الصحيح ، واذ أنهم يجهلون الاتجاه الذى ينبغى لهم اتخاذه ليمودوا الى سواء الطريق ، فانهم يهلكون جوعا على أسوأ حال * فيالها من حكايات مذهلة ومتجاوزة لكل آفاق التصديق ! * تلك التى تروى عن هذه الأرواح الهائمة فى الصحراء التى يقال انها فى بعض الحين تملأ الهواء بأصوات جميع أنواع الآلات الموسيقية وكذلك بقرع الطبول واصطكاك الأسلحة ، والتى تجبر المسافرين على ضم صفوفهم وتضييق خط سيرهم وعلى المضى فى طريقهم بنظام أشد ترابطا وتراصا (٤) *

وهم يجدون أن من الضرورى أيضا اتخاذ الحيطة قبل هجوعهم للنوم ليلا ، بأن يثبتوا عن بعد علامة متقدمة تشير الى الطريق الذى سيسلكونه فيما بعد ، وأن يعلقوا جرسا بكل بهيمة من دواب الحمل حتى يسهل عليهم منعها من الشرود * تلك هى أشد المتاعب والأخطار التى لا محيص لهم من الالتقاء بها أثناء عبورهم تلك الصحراء *

الفصل السابع والثلاثون

عن ولاية تانجوت - وعن مدينة
ساتسيون - وعن العادة المتبعة هناك
عند ولادة طفل ذكر - وعن منسك
أحراق جثث الموتى *

متى أتممت رحلة ثلاثين يوما عبر الصحراء ، بلغت
مدينة تسمى ساتشيون، (١) تابعة للخان الأعظم . وتسمى
الولاية تانجوت (٢) . والناس هنا عباد أصنام (٣) .

ومنهم بعض التركمان مع قليل من النساطرة المسيحيين
ومن المسلمين . وللوثنين منهم لغة تختلف عن لغة
الآخرين (٤) . وتقع هذه المدينة في اتجاه الشرق الشمالى
الشرقى . وشعبها ليس شعبا تجاريا ، انما هو زراعى ،
لديه الكثير من القمح . ويوجد بذلك القطر عدد من الآديرة
والأبداد (بيوت الأصنام) التى تزخر بأوثان مختلفة
الأنواع والأوصاف (٥) . وإلى هذه الأوثان التى ينظرون
اليها بأقصى غاية التوقير ، يقدمون القرابين أيضا ، وإذا
ولد لهم ابن وكلوه الى رعاية أحد أوثانهم . ويربى الأب
تكريما لذلك الرب شاة فى بيته حتى اذا انقضى حول ، وحل
يوم العيد الخاص بذلك (الصنم) اقتادوا الابن ومعه الشاة
الى حضرة الصنم حيث يقرب الحيوان قربانا له . فيسلقون
اللحم ثم يحملونه ويضعونه أمام الصنم ، ويقفون بين يديه
حتى يفرغوا من صلاة طويلة ، مدارها الابتهاال الى الصنم
أن يحفظ صحة طفلهم (٦) ، وهم يعتقدون أنه فى أثناء
هذه الفتنة يكون الصنم امتص جميع عصارات اللحم

اللذيذة • فأما ما يتبقى من الشاة فانهم يحملونه الى البيت،
ويجمعون كل أقاربهم وأصدقائهم فيتناولونه جميعا في
احتفال بالغ التبثل والتقوى • ثم يجمعون العظام ويحفظونها
في جرار أنيقة •

وينال كهنة الصنم نصيبهم وهو الرأس والأرجل
والأحشاء والجلد ومعها بعض أجزاء من اللحم • ولعبدة
الآوثان هؤلاء فيما يتعلق بالموتى مراسم احتفالية خاصة •

فعند وفاة أحد ذوى المكانة من الناس ، ممن تتجه النية
الى احراق جثته ، (٧) يدعو الأقارب المنجمين ليجمعوا ،
ويعلمونهم بالسنة واليوم والساعة التى ولد فيها، وعند ذلك
يعمد هؤلاء الى استطلاع خريطة البروج ، حتى اذا تحققوا
من البرج (الاقتران النجمى) أو العلامة والكوكب المتحكم
هناك ، حددوا اليوم الذى سيقام فيه الاحتفال بالجنابة •

فاذا تصادف أن لم يكن نفس الكوكب عندئذ فى الطالع،
أمروا بالاحتفاظ بالجثمان أسبوعا آخر أو أكثر ، بل حتى
الى مدة ستة أشهر أحيانا قبل السماح باقامة مراسم الحفل •

وأما فى الحصول على ظاهرة مرضية ، وخوفا من
التعرض لآثار مؤثرات معاكسة ، لا يجروء الأقارب على حرق
الجثة حتى يحدد المنجمون الزمن المناسب (٨) واذ يصبح من
الضرورى بناء على هذا الاعتبار أن يظل الجثمان طويلا
بالمنزل ، ورغبة فى التحصن من عواقب التعفن الرمى ،
يجهزون نعشا مصنوعا من ألواح الخشب التى سمكها شبر ،
والتي تحبك بعضها فى بعض حبكا جيدا وتطلى بالطلاء ،
فيضعون فيها الجثة ، ومعها مقدار من الصمغ العطرة
والكافور وغيره من العقاقير ، فاما مواضع الأوصال وخطوط
الالتحام فانهم يطلونها بخليط من القار والجير ثم يغطى
الكل بعد ذلك بالحريير •

وفى أثناء تلك المدة تفرش المائدة كل يوم بالخبز والحمز
وغيرهما من المؤن ، وكلها تظل قائمة الزمن الكافى لتناول
وجبة ملائمة واللازم كذلك لروح المتوفى - التى يزعمون
أنها حاضرة تلك المناسبة - لاشباع نفسها من روائح الأطعمة •

وفى بعض الأحيان يشير المنجمون على أقارب المتوفى
بالأ يحمل جثمانه من المنزل من الباب الرئيسى ، وذلك تبعا
لاكتشافهم من هيئة البروج ، أو بأية طريقة أخرى أن اتباع
مثل ذلك الطريق يجلب النحس ، ومن ثم ينبغى حمله من
جانب آخر من المنزل (٩) بل الحق انهم يجبرونهم فى بعض
الحالات على فتح ثغرة فى الحائط الذى يتصادف وجوده قبالة
النجم الخير ذى الطالع الموائم ، وحمل الجثة من تلك الفتحة ،
باقناعهم بأنهم ان أبوا فعل ذلك ، فان روح المتوفى سيثار
سخطها على العائلة وتنزل بهم بعض الأذى •

ومن ثم ، فاذا حلت أية نائبة بأحد البيوت ، وأصيب أى
شخص ينتسب اليه بحادثة أو خسارة ، أو ألم به موت مبكر ،
لم يفت المنجمين نسبة ذلك الحادث الى جنازة لم تتم أثناء
صعود الكوكب الذى ولد تحته القريب المتوفى ، بل تمت على
العكس عندما كانت الجنازة معرضة لتأثير طالع سيئ ، أو
لأنها لم تخرج من الباب الصحيح •

ولما كان الاحتفال بحرق الجسد ينبغى أن يتم خارج
المدينة ، فانهم يبتنون بين مسافة وأخرى على الطريق الذى تمر
منه الجنازة مبانى خشبية صغيرة لها سقائف يغطونها بالحريز ،
وكلما وصلوا الى واحدة منها وضعوا الجسد تحتها • ويضعون
أمامه أنواع اللحم والشراب ، ولا يزالون يكررون ذلك حتى
يصلوا الى النقطة المحددة ، معتقدين ، فى كل ما يعملون ،
أن الروح تنتعش وتكتسب القوة والطاقة على مجابهة الحرق
الجنازى •

وتم مرسوم احتفالي آخر يمارس في هذه المناسبات •
فانهم يحضرون عددا من قصاصات الورق ، مصنوعا من لحاء
نوع معين من الشجر ، وقد رسمت عليها بالألوان أشكال
الرجال والنساء ، والخيول ، والجمال ، وقطع العملة ،
والثياب ، فيحرقونها مع الجثة جميعا ، وهم على اقتناع بأنه
في العالم الآخر سيستمتع الراحل بخدمات ومنافع الخدم
والأنعام وجميع الأشياء المصورة على الورق (١٠) •

وفي أثناء هذه الاجراءات أجمع ، تتردد أصوات جميع
الآلات الموسيقية التابعة للمكان وتملأ الأسماع بطنين
لا ينقطع (١١) • والآن وقد تحدثنا عن هذه المدينة ، فانا
ستذكر بعد ذلك مدنا أخرى ، تقع الى الشمال الشرقي ، قرب
رأس الصحراء •

الفصل الثامن والثلاثون

عن منطقة كامول ، وعن بعض
العادات الغريبة المتعلقة بضيافة
الغرباء .

ان كامول منطقة تقع داخل الولاية الكبرى المسماة
تانجوث ، الخاضعة للخان الأعظم ، كما أنها تحوى كثيرا من
المدن والقلاع ، تسمى الرئيسية منها باسم كامول أيضا (١) .
وتقع هذه المنطقة فى المسافة التى تتوسط صحراويين ، واعنى
بذلك الصحراء الكبيرة سالفه الوصف ، وأخرى أقل اتساعا ،
يقارب قطرها مسيرة ثلاثة أيام (٢) .

والسكان هناك وثنئون يعبدون الأصنام ، ولهم لغتهم
الخاصة (٣) . وهم يعيشون على ثمار من الأرض ، يملكونها
بوفرة ، كما يتمكنون من تزويد المسافرين بحاجتهم (٤) .

والرجال منغمسون فى الملذات ، ولا يهتمون بشئ عدا
اللعب على آلات الموسيقى والغناء والرقص والقراءة والكتابة
حسبما جرت به عادة الاقليم ، وبعبارة موجزة الجرى وراء
كل نوع من أنواع التسلية (٥) . وعندما يصل الغرباء
ويرغبون فى الحصول على السكن والراحة والاستقرار فى
بيوتهم ، فانهم يحصلون هنا على درجات الاشباع . اذ أنهم يعطون
زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم وغيرهن من أقاربهم من النساء
أوامر ايجابية بامتناع ضيوفهم بكل رغبة يرغبونها ، على حين
يفادر الرجال بيوتهم وينسحبون الى المدينة فيعيش الغريب
فى الدار مع الاناث كأنما هن زوجاته ، ويرسل الرجال كل

ما يلزم الدار من الضروريات ، وهو شيء ينبغي أن تفهم أنهم يتوقعون في مقابله مالا ، كما أنهم لا يعودون الى بيوتهم مادام الغرباء مقيمين فيها -

ويعد هؤلاء القوم تنازلهم هذا عن نساء عائلتهم لضيوف عارضين ، يتخذون نفس حقوق الزوج ويلقون نفس الاستمتاع كأنما هي زوجات لهم ، تشريفا وتكريما ورفعاً لسمعتهم ، وذلك باعتبار أن حسن وفادة الضيوف ، الذين أصبحوا (بعدما لقوه في رحلتهم من مخاطر ومتاعب) بحاجة الى الراحة والاستجمام ، عمل مستوجب لمرضاة آلهتهم ومحسوب فيه استئزال البركات في عدد أفراد عائلاتهم ، وأن يزيد ما لديهم من مواد وخير ، وأن يعود عليهم بالسلامة من جميع الأخطار ، كما يورثهم عاقبة موفقة في كل ما يعلمون - ونساؤهم بلغن الغاية في الجمال حقا ، والغاية في الشهوة الحسية ، والغاية في الاستعداد للتوافق في هذه الناحية مع ما يوصيهن به أزواجهن -

وقد حدث في وقت أقام فيه مانجو (ما نكو) خان بلاطه في هذه الولاية ، وقد بلغت مسامحه هذه العادة الفاضحة ، أنه أصدر مرسوما يأمر أهل كاسول أمرا جازما بضرورة الاقلاع عن عرف يجللهم بالعار البالغ ، ويحرم على الأفراد تزويد الغرباء بالمسكن ، فيضطر هؤلاء الغرباء أن ينزلوا بدار ايواء عامة أى مسافر خانه (aravanserai) وأطاع السكان يحزن وآسى أمر مولاهم مدة ثلاث سنوات ، ولكنهم اذ وجدوا في نهاية الأمر أن الأرض كفت عن أن تؤتي ثمارها المعهودة وأن كثيرا من الحوادث المحزنة حدثت لعائلاتهم ، صمموا أن يبعثوا الى الخان الأعظم وقدا مفوضا بأسمائهم لكي يرجوه أن يتفضل بالاذن لهم بمعاودة عادة توارثوها بكل اكبار عن آبائهم وأواليهم في أقدم العصور ، وخاصة أنهم حينما توقفوا عن ممارسة أعمال الاكرام واشباع الغرباء بالمتعة ، حل بمصلحة عائلاتهم دمار دائم

مطرد • فلما أن استمع الخان الأعظم لهذا الملتبس أجاب
بالتالى : « لما يظهر عليكم من بالغ اللهفة على الاستمرار فى
شناركم وخزيكم ، عليكم الأمر كما تريدون • فاذهبوا
وعيشوا حسب عاداتكم وأعرافكم الدنيئة ، واسمحوا
لزوجاتكم بأن يواصلن تقبل الأجور الحقيرة عن بغائهن » •

وبهذا الجواب عاد المندوبون الى بلادهم ، فبثوا فى قلوب
الناس جميعا أعظم البهجة ، وهم لا يزالون حتى يومنا هذا ،
يراعون عاداتهم القديمة (٦) •

الفصل التاسع والثلاثون

عن مدينة تشنشييتالاس

بعد منطقة كامول تجيء منطقة تشنشييتالاس ، التي تتاخم الصحراء في ناحيتها الشمالية وطولها مسيرة ستة عشر يوما (١) . وهي تابعة للخان الأعظم ، وتشمل مدنا وحصونا عديدة .

ويتألف سكانها من طوائف دينية ثلاث : فتؤمن قلة منهم بالمسيح ، على المذهب النسطوري ، وآخرون يتبعون ملة محمد ، ثم فئة ثالثة تعبد الأوثان . ويوجد في هذه الناحية جبل ، تنتج مناجمه الفولاذ وكذلك الزنك أو الآثمد (٣) . وتوجد بالمثل مادة لها طبيعة عظام (سحلية) السمندر ، الخرافية وذلك لأنها متى نسجت قماشاً وألقيت في النار ، ظلت غير قابلة للاحتراق (٤) .

وقد علمت الطريقة التالية لتجهيز تلك المادة من أحد رفاق السفر ، واسمه كورفيكار ، وهو توركماني ذكي جدا تولى ادارة عمليات التعدين بالولاية لمدة ثلاث سنوات . وتألف المادة الخام المحترقة المأخوذة من الجبل من ألياف غير بعيدة الشبه من خيوط الصوف . حتى اذا عرضت تلك الألياف للشمس لتجف ، تدق في هاون من نحاس ، ثم تغسل بعد ذلك حتى تنفصل عنها كل المواد الترابية . فاذا تم بذلك تنظيف الألياف وفصلها بعضها عن بعض ، غزلت خيوطا ونسجت قماشاً . ولتببيض النسيج ، يضعونه في النار ،

ويتركونه فيها زهاء الساعة ، حيث يخرجونه غير مضار بالنار وأبيض كالثلج • ثم انهم ينظفونه بعد ذلك بنفس العملية ، كلما تصادف أن ألت به بقع ، اذ لا ينظفه محلول منظف عدا النار الحارقة (٥) • فأما عن السمندر في صورة ثعبان ، ويظن أنه يقيم في النار ، فاني لم أتمكن من اكتشاف أى أثر له في الأقاليم الشرقية • ويقال انهم يحتفظون في روما بفوطة منسوجة من هذه المادة ، لف فيها Sudarium محرمة للرب ، وقد أرسلت هدية من أحد أمراء التتار الى الحبر الأعظم في روما •

الفصل الأربعون

عن منطقة سكوير ، التي ينتج بها
الراوند ، ومنها ينقل الى جميع أقطار
العالم •

عند مغادرة المنطقة المذكورة أخيرا ، والتقدم مدة عشرة أيام في اتجاه الشرق الشمالى الشرقى ، من خلال اقليم به قليل من المساكن ، والقليل مما يستحق الذكر من أى شىء ، تصل الى منطقة تسمى سكوير ، تقوم بها مدن وقلاع كثيرة ، تسمى الرئيسية منها سكوير (١) • والسكان عبدة أصناع على وجه الجملة ، يخالطهم بعض المسيحيين (٢) • وهم خاضعون لسلطان الخان الأعظم • والولاية المترامية التي تضم هذه المناطق والمنطقتين اللتين سيرد ذكرهما بعد ، تسمى تانجوت ، وينتج بكل أرجائها الجبلية أفخر أنواع الراوند بمقادير كبيرة ، والتجار الذين يحصلون على أحمال ضخمة منه يحملونه من موقعه الى جميع أرجاء العالم (٣) • ومن الحقائق الدارجة أنهم عندما يتخذون ذلك الطريق ، لا يستطيعون المخاطرة فى الجبال بأية دواب حمل عدا تلك التي تعودت على الاقليم ، وذلك بسبب النبات السام الذى ينمو هناك ، والذى لو تناولته البهائم جعل حوافرها تسقط ، ولكن بهائم المنطقة لدرايتها بخطر ذلك النبات تحرص على تجنبه • ويعتمد أهل سكوير فى معاشهم على ما تنبته الأرض من ثمار وعلى لحوم ماشيتهم ، كما أنهم لا يشتغلون بالتجارة • والمنطقة صحية الى أكمل حد ، وبشرة السكان سمراء بنية •

الفصل الحادى والأربعون

عن مدينة كامبيون ، المدينة
الرئيسية لولاية تانجوت - وعن
طبيعة أصنامهم وعن طريقة عيش
أولئك الذين يختصون بين الوثنيين
بخدمة الدين - وعن التقويم الذى
يستخدمونه - وعن عادات بقيمة
السكان الآخرين بصدد الزواج .

ان مدينة كامبيون ، كبرى مدن تانجوت (١) ، ضخمة
وفخمة وسلطانها ينبسط على الولاية بأكملها (٢) . وغالبية
السكان تعبد الأصنام ، ولكن فيهم من يتبعون ملة محمد
وبعض المسيحيين . وللمسيحيين ثلاث كنائس ضخمة وجميلة
بالمدينة (٣) . فأما الوثنيون فلهم بيوت دينية كثيرة ، أى
أديرة وأبداد (بيوت الأصنام) قد بنيت على نسق عمارة
البلاد ، وفيها يقوم جمع غفير من الأوثان ، منها ما هو من
الخشب ، ومنها ما هو من الحجر وما هو من الطين ، وكلها
مغطاة بالذهب . وهى منحوتة بأسلوب رائع ، وبعضها شديد
الضخامة ، كما أن بعضها الآخر صغير الحجم (٤) . ويبلغ طول
الأول منها عشر خطوات كاملة كما أنها ترقد فى وضع
مضطجع ، والتمائيل الصغيرة تقف خلفها وعليها سيماء
التلاميذ (أى الحواريين) وهى تؤدى تحية عامرة بالتوقير (٥) .
والضخم منها والصغير يلقي أجلا لا مفرطا . والأشخاص
المختصون بخدمة الدين بين هؤلاء الوثنيين يعيشون ، حسب
أفكارهم على الأخلاقيات والفضائل ، عيشة أقوم من الطبقات

الآخري ، اذ يمتنعون عن استمراء الشهوات الجسدية والحسية (٦) ومما يجمل ذكره أن الاتصال الجنسي غير المشروع ، لا يعد عند هؤلاء الناس على الجملة جريرة خطيرة كما ان المبدأ السارى بينهم هو أنه متى كانت الأنثى هي البادئة بالعرض فلا اثم ولا جريرة في المباشرة ، ولكن الاتصال يعد اثماً ان تقدم بطلبه الرجل - وهم يستخدمون تقويماً مماثل تقويماً في كثير من الأوجه ، يلتزمون بمقتضى قواعده . أن يمتنعوا أثناء خمسة أو أربعة أو ثلاثة أيام من الشهر عن سفك الدم ، وعن أكل اللحم والطيء ، وذلك مثل عاداتنا فيما يتعلق بيومي الجمعة ، والسبت والسهر للعبادة عشية أعياد القديسين (٧) -

ويتخذ سواد الناس من العلمانيين لأنفسهم عدداً من الزوجات يصل الى الثلاثين ، ومنهم من يزيد عن ذلك ومنهم من ينقص . حسب قدرتهم على إعالتهم ، وذلك لأنهم لا يتلقون أية بائنة منهم ، بل على العكس يعرضون لزوجاتهم بائنة من ماشية وعبيد ومال (٨) والزوجة الأولى تحتفظ على الدوام بالمنزلة العليا في العائلة ، ولكن اذا لاحظ الزوج أن واحدة منهم لا تحسن معاملة غيرها من الزوجات ، أو اذا هي أصبحت من ناحية أخرى منفرة له ، أمكنه طردها . وهم يأخذون الى فراشهم أقربهن منهم قرابة دم ، بل حتى يتزوجون حمواتهم . وهناك خطايا مميتة أخرى كثيرة ينظر اليها عندهم بغير اكتراث وهم يعيشون في هذا الصدد كالسائمة في الحقول . وفي هذه المدينة أقام ماركو بولو مع أبيه وعمه ، مدة تقارب العام ، وهو أمر حتمته عليهم ظروف مشاغلهم (٩) -

الفصل الثانى والأربعون

عن مدينة ايزينا - وعن أنواع
الماشية والطيور الموجودة بها - وعن
صحراء ذرعها مسيرة أربعين يوما نحو
الشمال •

فاذا أنت خرجت من مدينة كامبيون هذه ، ورحلت اثنى
عشر يوما فى الاتجاه الشمالى بلغت مدينة تسمى ايزينا (١) ،
تقع عند بداية الصحراء الرملية ، وداخل ولاية تانجوث •
والسكان هنا وثنئون • ولديهم الجمال والكثير من الماشية
بمختلف أنواعها • وهنا تجد صقور الحر (Lanner-falcons)
وكثيرا من الصقور الممتازة وتسد ثمار الأرض ولحوم الماشية
حاجات الأهالى ، كما انهم لا يشتغلون بالتجارة • والمسافرون
الذين يمرون من هذه المدينة يختزنون لأنفسهم مؤنا تكفيهم
أربعين يوما ، وذلك لأنهم عندما يغادرونها للتقدم شمالا ،
يستغرقون تلك المدة الزمنية فى عبورهم صحراء ، لا يبدو
فيها أثر لدار ولا ديار اللهم الا قلة فى فصل الصيف تعيش
بين الجبال وفى بعض الوديان • وفى هذه المراكز ، التى
ترتادها حمر الوحش وغيرها من الحيوان الوحشى أيضا (٢) ،
يجدون الماء وغابات من أشجار الصنوبر • حتى اذا عبرت
هذه البدياء ، وصلت الى مدينة تقع على جانبها الشمالى ،
تسمى كراكوران • وتتبع جميع المناطق والمدن سالفه الذكر
وأعنى بها ساكيون وكامول وتشنتشيتالاس وسكوير
وكيمبيون وايزينا - ولاية تانجوث الكبيرة •

الفصل الثالث والأربعون

عن مدينة كاراكوران ، أولى المدن
التي بُنيت فيها التتار مقر حكمهم •

يقارب محيط مدينة كاراكوران (١) ثلاثة الأميال ،
وهي أول مكان أسس فيه التتار مقر حكمهم في الأزمنة
السحيقة • ويحيط بها استحكام حصين من الثرى ، نظرا لقلّة
وجود الحجر بتلك المنطقة • وإلى خارج ذلك الاستحكام ،
وعن كُتب منه ، تقف قلعة ضخمة ، فيها قصر جميل يشغله
حاكم المكان •

الفصل الرابع والأربعون

عن أصل مملكة التتار - وعن
الاقليم الذى منه جاءوا - وعن
خضوعهم السابق لأون خان ، وهو
أمير من الشمال ، يسمى أيضا
بريستر جون (القس يوحنا) •

سنقص على مسامعك الآن الظروف التى بدأ منها هؤلاء
التتار ممارسة السيادة والحكم • كانوا يسكنون فى اقليمى
جورزا وبارجو الشماليين (١) ، دون أن تكون لهم مساكن
ثابتة ، أى دون مدن ولا أماكن محصنة ، وهناك كانت تمتد
سهول مترامية ، ومرعى طيب وأنهار كبيرة وماء غدق :
(كثير) • ولم يكن لهم ملك خاص بهم • بل كانوا تابعين
لأمير قوى ، كان يسمى بلغتهم الأصلية - فيما بلغنى -
أون خان (٢) ، وهو اسم يظن بعضهم أنه يراد به بريستر جون
عندنا (٣) • واليه كان هؤلاء التتار يقدمون عشر ماشيتهم
(وهى الزيادة فيها) • وبمضى الوقت زادت القبيلة زيادة
مفرطة الى حد أن أون خان - أى القس يوحنا - وقد خاف
قوتهم ، دبر خطة لتفريق شملهم شيئا فحتم عليهم أن
يتخذوا مناطق محددة من الأرض سكنا لهم • وتمشيا مع هذا
الرأى أيضا فانه كلما سنحت فرصة ، كشبوب عصيان فى أية
ولاية من الولايات الخاضعة له ، كان ينتقى بطريق القرعة
ثلاثة أو أربعة فى المائة من هؤلاء القوم ، ليعملوا على القضاء
عليه ، وبذلك أخذت قوتهم تضمحل تدريجيا • وكان يعمد

بالمثل أيضا الى ارسالهم فى حملات أخرى ، ويرسل بينهم بعض كبار ضباطه ليتحققوا من أن مقاصده نفذت فعلا • وأخيرا أدرك التتار ربيعة العبودية التى كان يحاول أن يوقعهم فيها ، فصمموا على اقامة اتحاد صلب بينهم • ولما رأوا أنه لا يدبر لهم الا تدميرهم النهائى ، دبروا خطة الانتقال من الأماكن التى كانوا يسكنونها آنذاك ويمموا صوب الشمال عبر بيداء مترامية • حتى اطمأنوا تماما أن المسافة التى تفرق بينه وبينهم تضمن سلامتهم اذا ما رفضوا بعد ذلك أن يؤدوا الى أون خان الجزية المعتادة (٤) •

الفصل الخامس والأربعون

عن تشنجيس خان ، أول أباطرة
التتار ، وحربه مع أون خان ، وخلصه
إياه ، واستيلائه على مملكته
لنفسه .

بعد انقضاء رددح من الزمان على هجرة التتار الى هذا
المكان ، وقرب عام ١١٦٢ للميلاد (١) ، قاموا باختيار
رجل اسمه تشنجيس خان ملكا عليهم ، وهو رجل
أوتى استقامة مستحسنة ، وحكمة عظيمة وفصاحة مؤثرة ،
وقد برز بينهم بشجاعته . فبدأ حكمه برفع ميزان العدالة
والاعتدال فى المعاملة حتى أحبه الناس ووقروه ربا معبودا
أكثر منه عاهلا حاكما ، ودعا اشتهاره بعظيم السجايا ومكارم
الصفات فى ذلك الجزء من العالم ، جميع التتار ، على تفرق
شمهم ، الى وضع أنفسهم تحت امرته .

فلما أن وجد نفسه هكذا على رأس العدد الوفير من
الكماة الشجعان ، امتلأ طموحا فى الخروج من الصحارى
والبرارى التى تكتنفه من كل جانب ، وأصدر اليهم الأوامر
بالتسلح بالقسى وغيرها من أسلحة أتقنوا استخدامها فيما
ألفوه من عادات أثناء حياة الرعى . وعند ذلك انتقل الى بسط
سيادته على المدن والولايات ، وكان من أثر اتصافه بالعدل
وغيره من الفضائل ، أنه حيثما ذهب ، ألقى الناس على
استعداد للخضوع له واعتبار أنفسهم من السعداء لو أدخلوا
فى حمايته وعطفه .

وعلى هذا النحو تملك ناصية تسع ولايات تقريبا .
وليس فى نجاحه أى عجب ، اذا ما تأملنا أنه فى تلك الفترة
كانت كل مدينة ومنطقة اما محكومة بشعبها نفسه أو بملك
صغير أو أمير ، ولما لم يكن قائما بينهم اتحاد عام ، كان من
المحال عليهم فرادى مقاومة قوة عاتية كقوته .

وكان عند اخضاعه تلك الاماكن يعين عليها الحكام ،
الذين كانوا مثاليين فى سلوكهم بحيث لم يكابد السكان شيئا
من العناء ، لا فى أشخاصهم ولا ممتلكاتهم ، كما أنه تبنى
بالمثل سياسة أخذ كبراء الناس معه الى ولايات أخرى مع
منحه اياهم الجعول والعطايا (٢) . فلما أن شاهد كيف كانت
مغامراته تكمل ببالغ النجاح ، صمم على أن يحاول القيام
بأشياء أعظم وأعظم .

وبناء على هذه الفكرة بعث بالسفراء الى بريسترجون
محملين برسالة مخادعة ، عرف مقدما أن ذلك الأمير لن
يستجيب لها ، طالبا يد ابنته (٣) . وعندما تلقى الماهل
الطلب صاح غاضبا : « من أين نشأت هذه القصة عند
تشنجيس خان ، الذى يتجراً - مع علمه بأنه خادمى - بطلب
يد ابنتى ؟ » ، وقال : « ارحلوا على الفور ، وأعلموه عنى بأنه
ان عاد ثانية الى هذا الطلب أنزلت به قطة مهينة » .

وشارت ثائرة تشنجيس خان لهذا الجواب ، فجمع جيشا
عظيما ، دخل على رأسه أراضى بريسترجون . وخيم بعسكره
فى سهل عظيم يسمى سهل التندوك ، وأرسل الى الملك رسالة
يطالبه فيها بالدفاع عن نفسه . وتقدم الأخير بالمثل الى
السهل بجيش عرمرم ، واتخذ موقعه على مسافة تقارب عشرة
أميال من جيش عدوه (٤) . وأمر تشنجيس خان وهو فى
هذه الضائقة منجميه وسحرته أن يعلنوا من سيكون الفائز
من الجيشين فى القتال المقبل . وعند ذلك تناولوا قصبه
خضراء ، وقد شقوها بالطول الى قسمين ، كتبوا على أحدهما
اسم مولاها وكتبوا على الآخر اسم أون خان . ثم وضعوهما

على الأرض وبينهما مسافة قريبة ، واعلموا الملك انه
أثناء نطقهم تعازيمهم ، ستتقدم قطعنا القصب مقتربتين
أحدهما من الأخرى وسيكون النصر نصيب الملك الذى
سترى قطعه وهى تعلو فوق الأخرى . واجتمع الجيش
كله ليكون شهيدا على هذا الحفل ، وبينما كان المنجمون -
منشغلين بتلاوة كتبهم فى السحر ، شاهد الجمع القطعتين
تشرعان فى التحرك والاقتراب وبعد فترة زمنية وجيزة ،
شوهدت التى تحمل اسم تشنجيس خان تعلو فوق قمة
غريمتها . (٥) .

وعندما شهد الملك وعصيته من التتار ذلك ، زحفوا
مبتهجين لمهاجمة جيش أون خان ، فاخترقوا صفوفه وشتتوا
شملة تشتيتا . ولقى أون خان مصرعه ، وأصبحت مملكته
غنيمة للفاتح ، وتزوج تشنجيس خان ابنته . وبعد هذه
المعركة استمر ست سنوات فى فتح ممالك ومدن جديدة
وضمها تحت لوائه ، حتى أصابه أخيرا ، أثناء حصاره قلعة
تسمى ثايجن (٦) ، سهم فى ركبته ، فمات متأثرا بجرحه
ودفن فى جبل الطاي .

الفصل السادس والأربعون

عن ستة أباطرة متعاقبين
للتتار ، وعن الاحتفالات التي تقام
عند حملهم ليدفنوا بجبل آلتاي •

خلف تشننجيس خان في العرش ، سيهن خان ، وكان
الخان الثالث هو بائين خان ، فأما الرابع فهو ايسوخان ،
والخامس مونجو خان والسادس قبلاي خان (١) الذي صار
أعظم وأقوى من كل من عداه منهم ، وذلك لأنه ورث
ما ملكه أسلافه ثم عاد بعد ذلك في مدى حكم دام ستين
عاما (٢) ، فاجتاز ، فيما قد يقال ، سائر ما تبقى من العالم
ولقب « خان » أو « كان » هو المعادل لامبراطور في لغتنا •
وجرت العادة على الدوام ، وبلا أدنى اختلاف ، أن يحمل
جميع الخانات العظام والرؤساء من جنس تشننجيس خان
ليدفنوا في جبل ما مرتفع يسمى جبل آلتاي ، ومهما يكن
المكان الذي يتصادف موتهم فيه ، ولو كان على مسيرة مائة
يوم ، فانهم رغم ذلك يحملون الى هناك •

وجرت العادة بالمثل أيضا ، أثناء موكب سير جنازة
هؤلاء الأمراء ، أن يقوم من عليه من حراس وركب بذبح أى
أشخاص يتصادف أن يلتقوا بهم على الطريق قائلين لهم :
« ارحلوا الى العالم الآخر وهناك كونوا في خدمة مولاكم
المتوفى » ، وذلك لاعتقادهم الراسخ بأن جميع من يقتلونهم

على هذا النحو يصبحون بالفعل خدما له فى العالم الآخر .
 وهم يفعلون نفس الفعل بالخيال ، حيث يقتلون أنجبها عترة
 حتى يتمكن من استخدامها هناك . ولما أن حملت جثة مونجو
 (مانكو) الى هذا الجبل ، قتل الخيالة الذين رافقوه ، وقد
 آمنتوا بهذه الفكرة العمياء الرهيبة ، ما يقارب عشرين ألف
 شخص ، تصادف وقوعهم فى طريقهم (٣) .

الفصل السابع والأربعون

عن حياة التجوال التي يعيشها
التتار - وعن عاداتهم المنزلية
وطعامهم وما تتصف به نساؤهم من
فضيلة وصفات ناضجة •

والآن وقد بدأت الحديث عن التتار ، فاني سأزيدكم
بيانا عنهم • لا يقيم التتار بأرض واحدة أبدا ، ولكن متى
اقترب الشتاء انتقلوا الى سهول منطقة أدفا ، لكي يجدوا
مراعى كافية لماشيتهم ، كما أنهم في الصيف ينتجعون المواقع
الباردة في الجبال، التي يتوافر فيها الماء والخضرة ، وتتخلص
فيها ماشيتهم من مضايقة ذباب الخيل وغيره من الحشرات
العضاضة •

ولا يزالون أثناء شهرين أو ثلاثة يصعدون باطراد
أرضا أعلى فأعلى ، وينتجعون مراعى جديدة ، وذلك لأن
العشب لا يكون كافيا في محل واحد بعينه لاطعام الجموع
الغفيرة التي تتألف منها قطعانهم (١) • وأكواخهم
أو خيامهم مصنوعة من قضبان مغطاة باللباد ، ونظرا لأنها
مستديرة تماما وتوضع مع بعضها البعض على صورة لطيفة ،
فانهم يستطيعون جمعها في حزمة واحدة ويحولونها ربطات ،
يحملونها معهم أثناء هجراتهم ، على ضرب من العربة له أربع
عجلات (٢) • ومتى آن أوان اقامتها مرة ثانية جعلوا واجهة
المدخل متجهة الى الجنوب.(٣) •

وفضلا عن هذه العربات، فلديهم نوع ممتاز من المركبات ذات العجلتين، وهى مغطاة. كذلك باللباد الأسود وبطريقة فعالة جدا، بحيث انها تحمى من يستقلونها من البلل اثناء يوم كامل من المطر. وهذه كلها تجرها الثيران والجمال، وتستخدم فى حمل زوجاتهم وأطفالهم وجميع ما لديهم من مواعين وما يلزمهم من مؤن (٤). والنساء هن اللائى يتولين شئونهم التجارية، فهن اللائى يشتترين ويبيعن، ويزودن أزواجهن وخدمهن بكل ما يلزمهم من الضروريات (٥) وذلك لأن وقت الرجال موجه بأكمله للصيد والتصقير وكل ما يتعلق بالحرب وحياتها من أمور. ولديهم خير ما فى العالم من صقور وكذلك خير الكلاب.

وهم يقتصرون تماما فى طعامهم على اللحم واللبن، مع تناول ما تصل اليه أيديهم من حصيلة الصيد، وحيوان معين صغير، وقريب الشبه من الأرنب، ويسمى فأر فرعون، يوجد بوفرة عظيمة فى فصل الصيف فى منطقة السهول (٦). ولكنهم يأكلون أيضا اللحم بكل أصنافه وأوصافه: الخيل والجمال، بل حتى الكلاب، شريطة أن تكون سمينة. وهم يشربون لبن الأفراس، الذى يعالجونه بطريقة تجعل فيه صفات النبذ الأبيض ونكهته. وهم يسمونه فى لغتهم «كيمورس» (٧). ولا يبرز نساءهم فى العالم أحد من النساء بما ركب فيهن من عفة واحتشام فى الخلق، ولا من حب لأزواجهن وأداء واجباتهن نحوهم.

والخيانة لفراش الزوجية لا تعد بينهن فحسب رذيلة تعاب وتمس الشرف، ولكنها أيضا تعد فضيحة شنعاء (٨)، وذلك بينما يأخذك الاعجاب من ناحية أخرى اذ تلاحظ وفاء الأزواج لزوجاتهم، اللائى وان ربما بلغن فى العدد عشرة أو عشرين، فانه يسود بينهن درجة من الوئام والاتحاد جديرة بأعظم الثناء. فلو تخذش مسامعك لفظة جارحة، اذ أن تجارتهن تشغل اهتمامهن كله (كما أسلفنا اليك)

فضلا عن مشغولياتهن المنزلية ، كامداد العائلة بالطعام
الضرورى ، والاشراف على الخدم ، والعناية بالأطفال ، التى
هى مشغلة مشتركة بينهن جميعا . وفضايا الحشمة والعفة
فى زوجاتهم انما هى أجدر بالثناء ، نظرا لأنه يباح للرجال
اتخاذ أى عدد يرغبون فيه من النساء (٩) .

ونفقتهن على الزوج ليست بالكبيرة ، كما أن المنفعة
التى يحصل عليها من اشتغالهن بالتجارة ، ومن الأعمال التى
لا يبرحن يشتغلن فيها على الدوام ، تمد ضخمة فى واقع
الأمر ، وبناء على ذلك فانه عندما يستقبل شابة كزوجة له ،
يدفع لوالديها مهرا (١٠) على أن للزوجة الأولى امتيازا هو
الحصول على الاهتمام الأعلى ، كما أنها تعد أكثرهن شرعية ،
وهو أمر يشمل أيضا الأطفال المولودين منها . ونتيجة لهذا
العدد غير المحدود من الزوجات ، فان الذرية أكثر وفرة منها
بين أى شعب آخر . وعند وفاة الأب ، يستطيع الابن أن يتخذ
لنفسه الزوجات اللائى يخلفهن أبوه ، باستثناء أمه وحدها .
وهم لا يستطيعون أن يتخذوا من أخواتهم زوجات ، ولكنهم
يستطيعون عند وفاة اخوتهم التزوج من زوجة الأخ (١١) .
ويحتفل بكل زواج بأبهة جليلة ومراسم عظيمة .

الفصل الثامن والأربعون

عن آلهة التتار السماوية
والأرضية ، وعن طرائق تعبدهم -
وعن ملابسهم ، وأسلحتهم ،
وشجاعتهم في القتال ، وصبرهم
على صنوف الحرمان ، وطاعتهم
لقادتهم .

اليكم الآن مذهب التتار وعقيدتهم : فهم يؤمنون باله
له طبيعة رفيعة وسماوية - وهم يحرقون له البخور في
المباخر ، ويرفعون اليه الصلوات ابتغاء الاستمتاع بصحة
العقل والبدن (١) - ويعبدون آخر بالمثل يسمى «ناتيجاي» ،
ويحتفظ كل فرد من أفراد الشعب في منزله بتمثال له مغطى
باللباد أو غيره من قماش - وهم يضمنون الى هذا الاله زوجة
وأطفالا ، واضعين الزوجة عن يساره والأطفال أمامه ، وهم
في وضع من التحية المترعة بالتوقير .

وهو الذي يعدونه الرب الذي يتولى شئونهم الدنيوية ،
ويحمى أطفالهم ، ويحرس ماشيتهم وحبوبهم (٢) وهم يقدمون
اليه احتراماً كبيراً ، ولا يفوتهم في كل وجبة أن يقتطعوا
قطعة سميكة من اللحم يمسحون بدهنها فم الاله ، وكذلك فم
زوجته وأطفاله - ثم يقذفون خارج الباب بقليل من الشراب
الذي هبىء فيه اللحم ، كتقدمه للأرواح الأخرى (٣) .

فاذا تم ذلك ، اعتبروا أن ربهم وأسرته حصلوا على
نصيبهم الواجب ومضوا في طعامهم وشرابهم بغير مراسم

أخرى • ويرتدى العنى بين هؤلاء الناس ثياب القصب
والحرار مع جلود السمور الأسود والسمور الأبيض (القاتم)
وغيرها من حيوان •

واسلحتهم هي القسي والقضبان (الدبابيس)
الحديدية والحراب في بعض الحالات ، ولكن القوس
هو السلاح الذى هم فيه خبراء يجيدون استخدامه
الى أقصى حد ، وذلك لتعودهم ، منذ نعومة أظفارهم
أطفالا ، على استخدامه في رياضاتهم (٤) • وهم يرتدون
دروعا دفاعية مصنوعة من جلود الجاموس الغليظة وغيرها من
البهائم ، بعد تجفيفها بالنار لتصبح بذلك مفرطة الصلابة
والقوة • وهم شجعان في إمارك الى درجة الاستبئاس الأهوج ،
اذ لا يقيمون وزنا كبيرا لحياتهم ، ويعرضون أنفسهم بغير
تردد لكل أنواع الخطر • وهم قساة القلوب •

كما أنهم قادرون على احتمال كل أنواع الحرمان ، واذا
اقتضت الضرورة أمكنهم العيش شهرا كاملا على لبن أفراسهم
وعلى ما يتصادف لهم صيده من حيوان وحشى • وتطعم
خيولهم الكلاً وحده ولا تحتاج الى الشعير أو غيره من الحبوب •

والرجال معتادون على البقاء على صهوات الخيل يومين
وليلتين بغير ترجل ، وينامون على هذا الوضع وخيولهم ترعى
الكلاً • ولا يفوقهم شعب على ظهر البسيطة في الجلد على
الشدائد ، ولا هو يبدي صبرا أكثر منهم على الحرمان بجميع
أنواعه • وهم يطيعون رؤسائهم طاعة مطلقة ، ونفقات
اعالتهم قليلة •

وبهذه السجايا ، وهى البالغة الجهورية في تكوين
الجند ، تهيأت لهم اللياقة لاخضاع العالم ، كما حدث في
الواقع في شطر ضخمة منه •

انصـل الـتاسـع والـاربعون

عن جيوتس التتار ، والطريقة التي
تشكل بها ٠٠ وعن نظام زحفهم وعن
مؤنهم - وعن طريقتهم في مهاجمة
العدو .

عندما يزحف أحد كبراء الرؤساء من التتار في حملة
عسكرية ، يجعل نفسه على رأس جيش مؤلف من مائة ألف
راكب ، ينظمهم بالطريقة التالية : فيعين ضابطا على كل
عشرة رجال وآخرين لقيادة كل مائة وكل ألف وكل عشرة
آلاف على التعاقب .

وهكذا يحدث أن عشرة من الضباط الذين يقودون عشرة
رجال يتلقون أوامره ممن هو على امرة مائة ، وكل عشرة
من هؤلاء يتلقون الأوامر ممن يقود ألفا ، وكل عشرة من
هؤلاء الآخرين ممن يقود عشرة آلاف .

وبهذا الترتيب لا يتحتم على كل ضابط الا أن يرعى
تدبير أمور عشرة رجال أو عشرة مجموعات من الرجال ،
وعندما تحين أمام قائد هذه المائة ألف مناسبة لتجهيز فصيلة
لأية خدمة معينة ، يصدر أوامره الى قادة عشرات الآلاف ،
ليزوده كل منهم بألف رجل ، ويصدر هؤلاء أوامره بالمثل
الى قادة الألف ، الذين يوجهون أوامره الى من يقودون مائة ،
حتى يصل الأمر الى الذين يقودون عشرة ، فيوجهون فورا
العدد المطلوب الى رؤسائهم من الضباط الأعلى .

ويجده الطريقة يسلم مائة رجل لكل ضابط يأمر ألفا ،
وألف رجل لكل ضابط يأمر (يقود) عشرة آلاف (١) • وكل
مجموعة من مائة رجل تسمى توك Tuc وكل عشرة من هؤلاء
يكونون تومان Toman (٢) • وعندما يتقدم الجيش لاداء
خدمة ، يرسلون أمامه كوكبة من الرجال تتقدمه مسيرة
يومين ، وتوضع فصائل في جناحيه ومؤخرته رغبة في
الحيلولة دون مهاجمته على حين غرة •

فاذا كانت المهمة بعيدة ، لم يحملوا معهم الا الشيء
القليل ، وذلك يكون بوجه خاص ما يلزمهم من وسائل
التخييم ، وأدوات الطبخ • اذ هم يعيشون في معظم شأنهم
على اللبن كما أوضحنا ، ولكل رجل في المعدل ثمانية عشر
حصانا وفرسا ، واذا تعب الحصان الذى يركبونه بدلوا به
آخر • وهم مزودون بخيام صغيرة مصنوعة من اللباد ،
يتقون بها المطر • واذا حزبتهم الظروف ، فى أثناء تنفيذهم
مهمة تحتاج الى السرعة ، فان فى مستطاعهم الزحف عشرة
أيام طباقا بغير تجهيز أطعمة ، ويعيشون فى أثناء تلك المدة
على دم خيولهم ، اذ يشق كل رجل عرقا ويشرب من دم
ماشيته (٣) • وهم يختزنون اللبن أيضا ويتخذونه مئونة
بعد أن يفلظوه ويجففوه حتى يصبح فى حالة عجينة يابسة
(أو خثارة) تجهز بالطريقة التالية : فانهم يغلون اللبن
وبعد أن ينزعوا منه الجزء الدسم أو القشدة عندما
تصعد الى السطح ، يضعونها فى وعاء منفصل كزبدة ، وذلك
لأنه مادام الزبد فى اللبن فانه لن يصلب أبدا • ثم يعرض
اللبن للشمس حتى يجف •

وعند خروجهم للخدمة العسكرية يحملون معهم ما يقارب
عشرة أرطال لكل رجل ، ويوضع مع هذه المادة المجففة فى
كل صباح مقدار نصف رطل فى زق من جلد (أو قرية صغيرة
صغيرة) مع القدر اللازم من الماء • وبفضل حركتهم وهم
ركوب تهتز محتويات القرية اهتزازا عنيفا ويتكون منها
ما يشبه العصيدة الخفيفة فيتناولونها وجبة غداء (٤) •

وعندما يتقدم هؤلاء التتار للاشتباك في القتال فانهم لا يطبقون على الاعداء ابدا ، وانما يظلمون يحومون حولهم ، ويطلقون عليهم سهامهم من هذا الجانب اولا ثم من ذاك بعد ذلك ، متظاهرين أحيانا بالفرار ، وهم يطلقون السهام الى الخلف أثناء فرارهم على متعبيهم، فيقتلون الرجال والخيول، كأنما يقاتلونهم وجها لوجه .

وفي مثل هذا الضرب من القتال يتصور الخصم انه احرز نصرا ، بينما هو قد خسر المعركة في الواقع ، وذلك لان التتار حين يلحظون الضر الذي انزلوه به، يستديرون اليه ثم اذ يجددون القتال يتغلبون على ما بقى له من جند ، فيأخذونهم أسرى رغم الجهود المضنية التي يبذلون - ودربت خيولهم أحسن تدريب على التغيرات السريعة في الحركة ، حتى انها لتبادر بالدوران على الفور في كل اتجاه لدن صدور الاشارة اليها ، وبفضل هذه المداورات : (المناورات) السريعة تمت لهم انتصارات كثيرة .

وكل ما روى هنا يدور حديثه حول العادات الأصلية لرؤساء التتار ، ولكنهم في الزمن الحاضر داخلهم الشيء الكثير من الفساد (٥) . فمن يقيمون منهم في أوكاكا قد تبنوا - وقد نسوا شرائعهم الخاصة - عادات القوم الذين يعبدون الأوثان ، كما اتخذ من يسكنون الولايات الشرقية عادات العرب المسلمين (٦) .

الفصل الخمسون

عن قواعد العدالة التى يراها
هذا الشعب - وعن نوع خيالى من
الزواج يعقد بين الأطفال الموتى من
مختلف العائلات .

تقام شئون العدالة بينهم بالطريقة التالية : فمتى اتهم
شخص بسرقة لا تستحق انزال عقوبة الموت به ، حكم عليه
بعدد معين من الضربات بالعصا - سبعة أو سبعة عشر أو
سبعة وعشرون أو سبعة وثلاثون أو سبعة وأربعون أو
ما يرتفع الى مائة وسبعة ، حسب قيمة السلعة المسروقة
وظروف السرقة ، وكثير منهم يموتون تحت هذه العقوبة (١) .
ومتى كانت العقوبة على سرقة حصان أو أى شيء آخر ، الأمر
الذى يضع مرتكبها تحت طائلة عقوبة الاعدام ، حكم عليه
بالموت ، وينفذ الحكم بشطر جسمه بالسيف شطرين (٢) .
ولكن متى كانت لدى اللص الموارد الكافية لسداد تسعة أمثال
قيمة السلعة المسروقة ، نجا من كل عقوبة أخرى بعد ذلك .
ومن الأمور المألوفة أن كل رئيس قبيلة أو غيره من الناس
ممن يملكون قطعانا كبيرة من الماشية ، كالخيل أو الأفراس
أو الجمال أو الثيران أو الأبقار ، يميز أنعامه بوسمها بميسمه
الخاص ، ثم يتركها ترعى حرة طليقة فى أية ناحية من نواحي
السهول أو الجبال ، دون تكليف رعاة برعايتها ، وإذا تصادف
أن واحدة منها اختلطت مع ماشية الملاك الآخرين ، ردت الى
الشخص الذى عليها ميسمه . وعلى العكس من ذلك فان
للأغنام والأعناز أشخاصا يقومون عليها - وجميع ما لديهم

من انواع الماشية ضخمة الحجم وسمينة ومفرطة الجمال(٣) .
 واذا كان لرجل فى الماضى ابن وكان لرجل آخر ابنة ، وان
 ربما كانا ميّتين مند بضعة اعوام ، فان لديهم عادة عقد
 زواج بين طفليهما المتوفيين ومنح البنت للشاب . وهم
 يرسمون فى الوقت نفسه على قطع من الورق اشكالا بشرية ،
 لتمثل الخدم مع الخيل وغيرها من حيوان ، والثياب من جميع
 الأنواع والنقود وكل قطعة من قطع الأثاث ، ثم يلقون فى
 اللهب بكل هذه الأوراق ، ومعها عقد الزواج ، الذى يحرر
 بالطريقة النظامية المقررة ، حتى يمكن نقل هذه الاشياء عن
 طريق الدخان المتصاعد (فيما يعتقدون) الى أطفالهم فى
 العالم الآخر ، وحتى يمكن أن يصبحوا زوجا وزوجة بالشكل
 المطابق للمعرف . وبعد هذا الحفل يعتبر الوالدان والوالدتان
 أنفسهم أصهارا ، كأنما قامت رابطة حقيقية بين أطفالهم
 الأحياء (٤) . الآن وقد أدلينا اليك ببيان عن عادات وأعراف
 التتار ، وان لم نتعرض بعد للأعمال الباهرة والمغامرات
 المقدمة التى قام بها خانهم الأعظم ، الذى هو سيد التتار
 جميعا ، فاننا سنعود الآن الى موضوعنا الأول ، أعنى الى
 السهل المترامى الذى كنا نعبه عندما توقفنا لنقص تاريخ
 هذا الشعب .

الفصل العادى والخمسون

عن سهل بارجو قرب كراكوران -
وعن عادات سكانه - وعن المحيط
الواقع على مسيرة أربعين يوما منه -
وعن الصقور التى تنتج فى الأراضى
الواقعة على حدوده وعن اتجاهات
المجموعة النجمية الشمالية كما
تبدو لمشاهد بتلك الأصقاع •

إذا أنت غادرت كراكوران وجبال الطائى ، التى بها
كما أسلفنا اليك ، مقابر الأسرة الامبراطورية التتريه ،
تتقدم باتجاه شمالى من خلال اقليم يسمى سهل بارجو ، يمتد
مسافة تقارب مسيرة أربعين يوما (١) • والشعب الذى يقطن
تلك المنطقة يسمى المكريتى (Mekriti) (٢) ، وهو قبيلة
غليظة الفؤاد ، تعيش على لحوم الحيوان ، الذى يعد أكبره
حجما مقارنا للأيل (Stag) فى طبيعته ، وهم يستخدمونه
أيضا فى أغراض السفر (٣) • وهم يقتاتون كذلك بالطيور
التي ترتاد بحيراتهم ومستنقعاتهم الكثيرة ، كما يقتاتون
بالأسماك أيضا • وتلتمس الطيور هذه المياه فى موسم ذوبان
الثلوج أى أثناء الصيف • ولأنها تكون آنذاك بسبب خفة
(نقص) ريشها ، عاجزة عن الطيران فان الأهالى يقبضون
عليها بلا صعوبة •

ويطل هذا السهل على المحيط فى طرفه الشمالى •

وتشابه عادات الناس وأعرافهم مثيلاتها التى سبق
وصفها عند التتار ، كما أنهم من رعايا الخان الأعظم • وليس

لديهم قمح ولا خمور ، ومع انهم يحصلون على فوتهم في الصيف من الصيد ، الا أن البرد في الشتاء من فرط الشدة بحيث لا يستطيع طير ولا بهيمة أنعام المكث فيه هناك (٤) . وبعد رحيل اربعين يوما ، فيما يقال ، تصل الى المحيط (الشمالي) (٥) .

بالقرب من هذا السهل جبل ، تجعل فيه وفي السهل المجاور . النسور والبزاة الجواله (Peregrine falcons) عشوشها . وليس هناك انسان ولا أنعام ، فأما الطيور فليس منها الا نوع يسمى Bargelak ، والصقور التي تتخذ منه طعاما . والطير الأول يقارب الحجل في حجمه ، وله ذيل كذيل الخطاف (Swallow) ، وبرائن تشبه برائن نوع الببغاء ، وهو سريع الطيران .

وعندما يرغب الخان الأعظم في الحصول على مجموعة من البزاة الجواله (وهي نوع ممتاز من الصقور) يرسل في طلبها من هذا المكان ، وهناك جزيرة تقع قرب الشاطئ . توجد بها السناكير بأعداد يمكن معها تزويد جلالته بأية كمية يريدونها (٦) .

وينبغي الا يظن أن السناكير (Gerfalcons) التي ترس من أوربا ، ليستخدما التتار تحمل الى بلاط الخان الأعظم . اذ أنها لا تذهب الا الى بعض رؤساء التتار أو غيرهم من الرؤساء ببلاد المشرق ، المتاخمة لأقاليم الأرمن والكومان .

وتقع هذه الجزيرة بعيدا في الشمال بعدا يجعل مجموعة النجوم القطبية تبدو خلفك وكأنما لها ، بشكل جزئي ، اتجاه جنوبي (٧) .

والآن وقد تحدثنا على ما ترى ، عن المناطق الواقعة الى جوار المحيط الشمالي ، فاننا سنصف الولايات الواقعة أقرب الى مقر حكم الخان الأعظم ، ثم سنعود الى ولاية كاميون ، التي ورد ذكرها من قبل .

انفصل الثانى والخمسون

عن مملكة أرجينول ، المجاورة
لمملكة كامبيون، وعن مدينة سنجوى -
وعن فصيلة من الثيران مكسووه
بشعر مفرط النعومة - وعن شكل
الحيوان الذى ينتج المسك ، وطريقة
الحصول عليه - وعن عادات سكان
ذلك الاقليم - وجمال نسائهم *

عند مفادرة المسافرين كامبيون ، والتقدم مسيرة خمسة
أيام نحو الشرق ، كثيرا ما يصابون فى أثنائها بالرعب لما
يسمعون أثناء الليل من أصوات الأرواح ، يصلون الى مملكة
تسمى : أرجينول (١) ، خاضعة للخان الأعظم ، وداخله فى
ولاية تانجوت - وتقع داخل حدود هذه المملكة امارات
عديدة ، سكانها على الجملة من الوثنيين مع قلة من
النساطرة المسيحيين ومن عباد محمد - (كذا !!؟؟) *

والمدينة الرئيسية بين مدن كثيرة وأماكن حصينة هى
أرجينول - ويمضى بك الطريق من هنا فى اتجاه جنوبى
غربى فيحملك الى كاثاى ، وفى هذا الطريق تجد مدينة
تسمى سنجوى (٢) تقوم فى منطقة بذلك الاسم نفسه ،
توجد بها مدن وقلاع كثيرة ، تابعة بالمثل لتانجوت، وخاضعة
لسلطان الخان الأعظم ويتألف سكان هذا الاقليم على نحو
رئيسى من الوثنيين ، على أن هناك أيضا بعض المسلمين
والمسيحيين *

وهنا يوجد كثير من الماشيه البرية النى يمدن سببيها ،
من حيث الحجم ، بالافيال - ولونها خليط من بياض وسواد ،
كما انها بالغه الجمال للناظرين • ويتدلى الشعر على كل جرة
من أجزاء جسمها أملس ناعما ، فيما عدا الكتف ، حيب
ينتصب مرتفعا ما يقارب ثلاثة أشبار • وهذا الشعر أو أقل
الصفوف أبيض كما أنه أنعم وأرق من الحرير (٤) •

وحمل ماركو بولو بعض ذلك الشعر الى البندييه ،
بوصفه تحمة عجيبة ، وعلى ذلك الاعتبار بمسه قدره جميع
من راوه • واخذ كثير من تلك البهائم فى حالة وحشيه بم
انس ، وجاءت السلالة المنتجة بينها وبين البقرة العادية ،
حيوانات ممتازة ، واقدر على تحمل التعب من أى نوع اخر •
وهى متعوده على حمل أحمال أثقل وعلى القيام فى الزراعة
بضعف المجهود الذى يستطيع عمله النوع العادى من اليران ،
وذلك لأنها تجمع بين النشاط والقوة (٥) وفى هذا القطر
يتم الحصول على أنقى وأثمن أنواع المسك (٦) •

والحيوان الذى ينتجه لا يزيد عن العنزة حجما ، ولكنه
يمائل الطبقى فى شكله • وهو يسمى بلغة التتار جودرى
Gudderi (وهى لفظة قريبة الشبه من كلمة جؤذر العربية) ،
وغلافه يماثل غلاف الصنف الأكبر حجما من الغزلان • فأما
أقدامه وذيله فهى نفسها ما للظباء ، ولكنه أجم ليست له
قرونها • وهو مزود بأربع أسنان بارزة أو أنياب ، طولها
ثلاث بوصات ، اثنتان منها فى الفك الأعلى وتجهان الى
أسفل ، واثنان فى الفك الأسفل وتجهان الى أعلى ، وهى
تعد صغيرة بالنسبة لطولها ، كما أنها بيضاء كالعاج • وهو
على الجملة حيوان جميل •

ويتم الحصول على المسك بالطريقة التالية : فعندما يكتمل
القمر بدرا ، يتكون كيس أو تورم فيحى من الدم المتجلط
حول منطقة السرة ، وعندئذ يعمد الذين يشتغلون فى صيد
الحيوان للاستفادة من ضوء القمر لهذا الغرض ، فيقطعون

انغشاء ، ثم يجففونه بعد ذلك ، هو ومحتوياته في الشمس (٧)
وعند ذلك يتجلى أبداع نوع معروف من المسك . وتصاد
منه أعداد غفيرة ، ويستمرىء الناس أكل لحمه (٨) .

وأحضر ماركو بولو معه الى البندقية راس وارجل حيوان
منها مجففة . ويشغل سكان هذا الاقليم بالتجارة والصناعة .
ولديهم الحبوب بوفرة . وامتداد الولاية مسيرة خمسة
وعشرين يوما (٩) . ويوجد بها نوع من التدرج : (الفزان
(Phesani حجمة ضعف حجم ما عندنا ، ولكنه أصغر
شيئا ما من الطاووس . وطول ريش الذيل سبعة أشبار او
ثمانية (١٠) .

وهناك أيضا تدارج أخرى ، تعادل تدارجنا حجما
ومنظرا ، فضلا عن أضرب جمّة من الطيور الأخرى ، النى
يمتاز بعضها بالريش الجميل . والسكان وثنينيون (١١) .
والناس هناك ميالون الى البدانة ، كما أن أنوفهم صغيرة .
وشعرهم أسود ، ولا تكاد تنبت لهم لحية أو قد تنبت لهم بضع
شعرات متناثرة على الذقن (١٢) . ونساء الطبقة العليا
مجردات بالمثل من شعر الجسم ، وبشرتهن شقراء . كما ان
جسومهن جميلة القد ، ولكنهن خليعات منحلات . والرجال
كثيرو الولع بمجالس النساء . كما أنهم طبقا لشرائعهم
وتقاليدهم يستطيعون أن يتزوجوا من النساء ما طاب لهم
من عدد ، شريطة أن يستطيعوا اعالتهن .

واذا كانت احدى الشابات جميلة ، ولو فقيرة ، أغرى
الأغنياء باتخاذها زوجة لهم ، وللحصول عليها ، يقدمون
الهدايا النفيسة لوالديها وأقاربها ، اذ أن الجمال هو الصفة
الوحيدة التى يقدرها الجميع . والآن سنغادر هذه المنطقة
ونتحول الى الحديث عن أخرى ، تقع الى الشرق أكثر .

الفصل الثالث والخمسون

عن ولاية أجريجايا ، وعن مدينة
كالاتشا - وعن عادات أهلها - وعن
أنسجة الحملة المصنوعة هناك *

متى رحلت عن أرجينول ، وتقدمت شرقا مدة ثمانية أيام، وصلت الى اقليم يسمى أجريجايا (لايزال تابعا لولاية تانجوت الكبرى، وخاضعا للخان الأعظم،) وهو يحوى كثيرا من المدن والقلاع ، تسمى الرئيسية منها كالاتشا(١) * والسكان على وجه الجملة وثنىون، على أن هناك ثلاث كنائس للنساطرة المسيحيين * وهم يصنعون بهذه المدينة أنسجة خملة جميلة ، هى.أجمل ما عرف منها فى العالم ، يصنعونها من وبر الجمل ، كما يصنعونها كذلك من الصوف الأبيض (٢) وهى ذات لون أبيض جميل * ويشترى التجار منها مقادير ضخمة، ويحملونها الى أقطار أخرى كثيرة ، وبخاصة الى كاثاي * والآن اذ نغادر هذه الولاية فسنحدث عن أخرى ، تقع فى (الشمال) الشرقى ، وتسمى تندرک ، وبذا ندخل فى الاقليم التابع لبريسترجون *

الفصل الرابع والخمسون

عن ولاية تندوك ، التي يحكمها
أمراء من غرة بريسترجون ، ومعظم
سكانها من المسيحيين - وعن
رسامة فسوسهم - وعن قبيلة من
شعب يدعى الأرجون ، هو أشد أهالي
هذه الأقاليم وسامة وأكثرهم علما .

فأما تندوك (١) . وهى تابعة لأملاك البريسترجون (٢) ،
فهى ولاية شرقية ، يقوم بها كثير من المدن والقلع - تخضع
لسلطان الخان الأعظم . وظل جميع أمراء تلك الأسرة
خاضعين منذ أن أخضع البلاد شنجيس الامبراطور الأول -
وتسمى العاصمة تندوك أيضا . والملك الذى يجلس على
العرش الآن من سلالة بريسترجون ، ولا يزال محتفظا بلقب
بريسترجون ، واسمه جورج . وهو مسيحي وقسيس فى
آن واحد . وكذلك غالبية السكان فانهم أيضا من المسيحيين .
ويتولى هذا الملك جورج حكم بلاده اقطاعا من الخان الأعظم ،
وهى ليست فى الواقع الممتلكات الأصلية لبريسترجون
بكاملها ، ولكنها جزء معين منها ، والخان ينعم عليه دوما ،
وكذلك على جميع أمراء بيته وبناته وغيرهن من اناث الأسرة
الملكية زوجات لهم . وفى هذه الولاية يتوافر بكثرة الحجر
الذى يصنع منه اللون اللازوردى ، كما أنه من أجود الأنواع .
وهنا أيضا يصنعون منسوجات من وبر الجمل . ويكسب
الناس معاشهم بها من الزراعة والتجارة والاشتغال بالأعمال
الآلية . ومع أنهم يخضعون لسلطان الخان الأعظم ، فانه

نظرا لأن الملك ، كما قلنا ، مسيحي ، توجد حكومة البلاد في أيدي المسيحيين • على أنه يوجد بين السكان مع ذلك جماعات من عبدة الأوثان وأتباع دين محمد (٣) وهناك بالمثل طبقة من الناس عرفت باسم الأرجون (٤) ، لأنهم يولدون عن اختلاط جنسين ، هما أهالي تندوك وهم عبدة أوثان ، والمسلمون •

ورجال هذا الاقليم أكثر شقرة وأملح وجوها ممن في الأقاليم الأخرى التي كنا نتحدث عنها ، كما أنهم كذلك أحسن تعليما وتجار أحسن خبرة وأكثر مهارة •

الفصل الخامس والخمسون

عن مقرر حكم الأمراء من أسرة
بريسترجون ، وقوم ياجوج
وماجوج - وعن عاداتهم - وعن
نسبهم الحرير - وعن مناجم الفضة
التي تشغل هناك •

كان يوجد بولاية تندوك هذه ، المركز الرئيسى لحكم
الملوك الملقبين بريسترجون ، عندما حكموا تثار هذه الولاية
وما يجاورها من أقاليم ، وهى التى يحتلها خلفاؤهم حتى
هذه الساعة • وجورج سالف الذكر ، هو الرابع فى الانحدار
من بريسترجون ، الذى يعد رأسا لأسرته • وهناك منطقتان
يمارسون فيهما سلطانهم • وهما يسميان فى قسمنا هذا من
العالم (يعنى أوربا) ياجوج وماجوج ، ولكن الأهالى هناك
يسمونهما أونج ومونجول ، وفى كل منهما جنس من الناس
يتميز عن الآخر • فهم فى أونج ياجوج وفى المونجول
تثار (١) • وأنت حين تسافر مسيرة سبعة أيام مخترقا هذه
الولاية فى اتجاه شرقى ، الى كاثاى ، تمر على مدن كثيرة
يسكنها وثنيون ، فضلا عن المسلمين والنصارى النساطرة (٢) •
وهم يكسبون معاشهم عن طريق التجارة والصناعات ،
والنسيج ، وأنسجة خيوط الذهب المرصعة باللآلىء والمسماة
نشتشى Nascici ، فضلا عن أنواع الحرائر المختلفة
القوام والألوان ، والتى لا تختلف عما يصنع فى أوربا ، الى
جانب أضرب جمّة من الأقمشة الصوفية • وكل هؤلاء الناس
رعايا الخان الأعظم • وهناك مدينة تسمى سنديتشن تشتهر

بصناعة جميع أنواع الأسلحة وكل مادة وسلعة ضرورية
لتجهيز الجيوش * ويوجد بالمنطقة الجبلية من الولاية مكان
يسمى ايديفا ، به منجم غنى بالفضة ، تستخرج منه مقادير
كبيرة من ذلك المعدن (٣) * وهناك أيضا كثير من الطير
والبهائم *

الفصل السادس والخمسون

عن مدينة تشانجانور - وعن أنواع
مختلفة من الكركى - وعن الحجل
والسماني التي تربي بتلك المنطقة
بأمر الخان الأعظم .

تصل عند مغادرتك المدينة والولاية سالفة الذكر ،
وسفرك ثلاثة أيام ، الى مدينة تسمى تشانجانور ، ومعناها
(البحيرة البيضاء) (١) . وللخان الأعظم بهذا المكان قصر
فخم أولع بزيارته لأنه محاط بمساحات من الماء وجداول جارية ،
تتخذها كثير من البجع مثوى ، كما أن هناك سهلا يانعا يوجد
به الكركى والتدرج والحجل وغيرها من الطيور بأعداد
غفيرة . وهو يستمد أعلى درجة من التسلية من التصقير
بالسناقير والبزاة ، وذلك نظرا لوجود الصيد هنا بوفرة
عظيمة . وهم يعدون في صنف الكركى (Cranes) وحده خمسة
أنواع (٢) :

النوع الأول أسود تماما مثل الفحم وله أجنحة طويلة .
والصنف الثاني له أجنحة أطول من أجنحة الأول ولكنها
بيضاء ، كما أن ريش الأجنحة ممتلئ بنكت مستديرة كنكت
الطاووس ، ولكنها ذهبية اللون شديدة اللمعان ، والرأس
حمراء وسوداء وجميلة الشكل ، والعنق أسود وأبيض ،
والمنظر العام للطائر مفرط الجمال .

والصنف الثالث في حجم الكركى الذي يوجد عندنا
(بايطاليا) .

اما الرابع فهو كراكى صغيرة ، ريشها مخطط تخفيطاً
 جميلاً باللونين الاحمر واللازوردى *
 والخامس ذو لون رمادى ورأسه أحمر وأسود ، كما انه
 طائر كبير الحجم (٣) * .

وبالقرب من هذه المدينة واد ينتابه عدد ضخم من
 الحجل والسمانى ، التى من أجل اطعامها يأمر الخان الاعظم
 بأن يزرع الدخن والجاورس : (Millet and Panicums) وغيره من
 الحبوب الملائمة لاطعام هذه الطيور على جانبى الوادى فى كل
 موسم ، ويصدر الأوامر المشددة ألا يقدم اى فرد على جنى
 الحبوب ، حتى لا تفتقد الطيور التغذية * . وينتشر هناك
 أيضاً كثير من الحراس لوقاية الصيد، حتى لا يأخذه أو يدمره
 أحد ، فضلاً عن توليهم القاء الدخن للطيور أثناء الشتاء *
 وبلغ من اعتياد الطيور تناول طعامها على هذا المنوال ، انها
 تتجمع على الفور من كل حذب وصوب عند نثر الحبوب وصغير
 الرجل لها * .

ويعطى الخان الأعظم توجيهاته كذلك ببناء عدد من المباني
 الصغيرة لتأوى الطيور اليها أثناء الليل ، ونتيجة لهذه الرعاية
 والاهتمام يجد على الدوام وفرة موفورة من الصيد عندما
 يزور هذا الاقليم ، بسبب شدة البرد ، يأمر بأن ترسل اليه
 أحمال جمال من تلك الطيور ، حيثما تصادف أن كان بلاطه
 فى تلك اللحظة (٤) * . واذا تغادر هذا المكان فاننا سنوجه الآن
 طريقنا مسيرة ثلاثة أيام نحو الشمال الشرقى * .

الفصل السابع والخمسون

عن سراى الخان الأعظم الجميلة
بمدينة شانلو - وعن مجموعته من
أفراس الاستيلاد البيضاء ، التي
يقرب بلبنها قربانا سنويا - وعن
العمليات العجيبة التي يؤديها
المنجمون في حالة رداءة الجو - وعن
المراسم التي يؤدونها في قاعة السراى
الملكية - وعن وضعين للسائلي
(التسولين) الدينين مع ذكر طرائق
عيشهم *

عند مغادرة المدينة أنفة الذكر ، والتقدم مسيرة ثلاثة
أيام فى اتجاه شمالى شرقى تبلغ مدينة تسمى شانلو ، بناها
الخان الأعظم قبلاى الذى له الولاية الآن (١) وأصدر أمره
فبنى له فيها قصر من الرخام وغيره من الأحجار الجميلة :
قصر ، يجمع بين اثاره الاعجاب لرشاقة تصميمه وبالمهارة
التي تجلت فى تنفيذه - وجميع قاعاته وغرفه مموهة
بالذهب فائقة الجمال *

وللسراى واجهة تتجه نحو داخل المدينة ، وتتجه الواجهة
الأخرى نحو السور ، ويمتد من كل طرف من أطراف المبنى
سور آخر يمتد ، بحيث يضم ستة عشر ميلا تشغل دائرة من
السهل المجاور ، لا يمكن الوصول اليها الا من خلل القصر (٢) -
وتوجد داخل حدود هذا البستان الملكى مروج ثرية
بنضرتها وجمالها ، تسقيها نهيرات كثيرة ، ترعى فيها أضرب

كثيرة من الحيوان ما بين ابل واعناز ، لتكون طعاما تفتدى به الصقور وغيرها من الطيور المستخدمة فى الطراد ، وتقوم بيوتها أيضا بنفس الأراضي .

ويقارب عدد هذه الطيور المائتين ، كما أن الخان الأعظم يذهب الى هناك بشخصه مرة كل أسبوع على الأقل ليتفقدوها . وكثيرا ما يحدث أثناء تجواله على صهوة جواده فى أرجاء هذه الغاية المسورة ، أن يكون معه فهد صغير أو أكثر، محمولة على ظهر جواد خلف حراسها (٣) ، وعندما يروق له اصدار التوجيهات بانزالها ، فانها تصيد على الفور وعلا أو عنزا ، أو أيلأ أسمر ، يلقيه لصقوره ، وبهذه الطريقة يبهج نفسه .

وبنى الامبراطور جوسقا ملكيا وسط هذه الأراضي ، حيث تنبت أجمة جميلة من الشجر ، يقوم على بهو معمد ذى أساطير جميلة مموهة بالذهب والورنيقى : (الورنيش) . وحول كل عمود يلف تنين ، مذهب هو الآخر ، ذيله ، بينما تدعم رأسه بروز السقف . وقد امتدت برائنه أو مخالفه يمنة ويسرة على امتداد السقف المعمد (٤) .

والسقف من عصى البامبو (الخيزران) ، وهو أيضا مموه بالذهب ، كما أنه من مدهون بطلام خاص بحيث لا يصيبه البلل بأى ضرر . ان محيط (البامبو) أعواد الخيزران المستخدمة فى هذه الأغراض هو ثلاثة أشبار كما أن طولها عشر قامات ، وبعد قطعها عند المفاصل تشق الى قسمين متعادلين ، بحيث تشكل برابخ أى ميازيب ، وبهذه (اذ توضع خلف خلاف مقعرة ومحدبة) يغطى الجوسق ، ولكن لتأمين السقف من فعل الرياح ، تربط كل خيزرانة عند نهايتها بالاطار (٥) . ويطنب البناء من كل جانب من جوانبه (كما تطنب الخيمة) بأكثر من مائتى خيط حريرى شديد المتانة ، والا فانه نتيجة خفة المواد يكون عرضة للانقلاب تحت ضغط قوة الرياح الشديدة .

وهذا الجوسق بأجمعه يشاد ببراعة فى التحايل بالغة ،
بحيث يمكن تفكيك الاجزاء أجمع ، ورفعها ، ثم اقامتها
بانية حسبما يهوى جلالته .

وقد اختار هذه البقعة للمسلاة والترويح عن النفس ،
بسبب الجو المعتدل والهواء الصحى ، فهو من ثم يتخذ منها
مقاما على مدى ثلاثة أشهر من السنة هى يونية ويولية
وأغسطس ، كما أنه دأب كل عام فى اليوم الثامن والعشرين
للقمر ، وفى آخر هذه الشهور أن يرحل من هناك ، ويتوجه
الى مكان معين ، لكى يقدم بعض قرابين معينة على الطريقة
التالية :

ينبغى ألا يغرب عن فهمنا أن جلالته يحتفظ برعائل
من الخيل والأفراس تقارب عدتها عشرة آلاف ، وكلها فى
بياض الثلج الناصع (٦) . فأما لبن هذه الأفراس فلا يجرو
احد على شربه ما لم يمت بالقربى الى الأسرة المنحدرة من
جنكيزخان ، وذلك باستثناء أسرة واحدة أخرى فقط تسمى
البوريات ، وهى أسرة منحها ذلك العاهل هذا الامتياز
الشرىف ، مكافاة لها على أعمال باسلة مجيدة أتتها فى ميدان
القتال بين يديه (٧) والحق أنه بلغ من شدة الاحترام
ألا يجرو أمرؤ على وضع نفسه أمامها أى بمعنى آخر على
اعتراض حركتها حتى وهى ترعى فى المروج أو الغابات
الملكية .

وذلك لأن المنجمين ، الذين يستضيفهم فى خدمته ،
والذين يجيدون بتعمق الفن الشيطانى للسحر ، قد أعلنوا
أن من واجبه أن يقوم فى اليوم الثامن والعشرين للقمر فى
أغسطس من كل عام بنثر اللبن المأخوذ من هذه الأفراس فى
الهواء ، على سبيل التكريم لجميع الأرواح والأصنام التى
يعبدون ، التماسا لاسترضائها وضمان حمايتها للشعب ،
اناثا وذكرانا وللماشية والدواجن والحبوب وغيرها من
ثمرات الأرض ، من أجل ذلك يستمسك جلالته بالقاعدة التى

مر ذكرها ، ويتقدم فى ذلك اليوم المعهود الى البقعة التى يقدم فيها بيديه قربان اللبن ، وفى هذه المناسبات يروح هؤلاء المنجمون ، أو السحرة كما قد يمكن تسميتهم ، يعرضون فى بعض الأحيان مهارتهم بطريقة مدهشة ، وذلك انه لو تصادف أن تلبدت السماء بالغيوم وبدت نذر سقوط المطر ، يصعدون الى سطح السراى التى يسكنها الخان الأعظم آنذاك ، ويفضل قوة تعزيماتهم يمنعون سقوط المطر ويوقفون العاصفة ، بحيث انه بينما تمر فى المنطقة المحيطة عواصف من مطر ورياح ورعد ، فان السراى نفسها تظل غير متأثرة بعناصر الطبيعة (٨) . والذين يقومون بمعجزات من هذا القبيل أفراد من بلاد التبت والكزмир ، وهم طبقتان من الوثنيين أعمق براعة فى فن السحر من سكان أى قطر آخر . وقد أقنعوا العوام أن تلك الأعمال انما تتم بفضل ما عليه حياتهم من قداسة وما فى تعذيبهم لذواتهم من مزايا ، واذ يستغلون السمعة التى أحرزوها على هذا النحو ، فانهم يظهرون أمام الناس بحالة قدرة وغير محتشمة ، غاضين النظر عما ينبغى لهم من الالتزام نحو أخلاقهم وكذا عن الاحترام الواجب لمن يظهرون فى حضرته . فهم يتركبون وجوههم قدرة على الدوام بغير غسل ويظل شعرهم أشعث غير ممشط ، ويعيشون فى قدارة تامة (٩) . وفوق هذا فانهم مغرمون بهذه الممارسة البهيمية والمرعية وهى أنه متى حكم على أى مجرم بالاعدام ، حملوا جثته وشووها على النار ، ثم التهموها التهاما ، فأما الأشخاص الذين يموتون ميتة طبيعية فانهم لا يأكلون أجسامهم (١٠) .

وفضلا عن التسميات أنفة الذكر التى يتميز بها بعضهم عن بعض ، فانهم يسمون أيضا باسم الباكسى ' Baksi ' ، الذى يطلق على طائفتهم أو هيئتهم الدينية، على نحو قولنا الرهبان، والوعاظ وصفار القسس (١١) . وهم من بالغ الخبرة

بفئهم الجهنمى ، بحيث يمكن أن يقال عنهم انهم يفعلون كل ما يريدون ، واليك مثالا لذلك ، وان ظن أنه يتجاوز حدود التصديق فانه متى جلس الخان الأعظم لتناول الطعام ، بقاعته الرسمية (وهو الأمر الذى سيوصف بتفصيل أكثر فى الكتاب التالى) ، فان المائدة التى توضع فى الوسط تجعل على ارتفاع نحو ثمانية أذرع ، ويقوم على مسافة فيها مقصف (بوقيه) ضخم ، قد رصت عليه جميع أوعية الشراب - والآن ، فان هؤلاء الرجال يستطيعون بفضل فنهم الخارق للطبيعة أن يجعلوا قناني الخمر أو اللبن أو أى شراب آخر تملأ الكؤوس تلقائيا بغير أن تمسها أيدي الأتباع ، كما يجعلون الكؤوس تتحرك فى الهواء عشر خطولت حتى تصل الى يد الخان الأعظم . فاذا أفرغها عادت الى أماكنها من حيث أتت .

ويتم هذا بحضرة من دعاهم جلالته لشهود العملية (١٢) فاذا اقتربت أيام أعياد أوثانهم ، يذهب هؤلاء الباكسى الى قصر الخان الأعظم ، ويخاطبونه على النحو التالى : « مولانا ، ليكن معلوما لجلالتكم ، انه اذا لم تقدم الى أربابنا قرايين فانها فى غضبها ستنكبنا بالمواسم العجاف ، فتصيب حبوبنا بالآفات ، وماشيتنا بالأوبئة ، وغيرها من الأرزاء » وعلى هذا نلتمس الى جلالتكمن نحنا عبدا معينا من الأغنام لها رعوس سوداء (١٣) ، مع كثير من أرطال البخور ومن نبات الصبر ، حتى نتمكن من أداء المناسك المعتادة بكل ما يجب نحوها من جلال » . على أن كلماتهم لا توجه الى مسامع الخان الأعظم مباشرة ، بل الى بعض كبار الموظفين الذين ينقلون الرسالة اليه . فأما هو فلا يفوته على الاطلاق حين يتلقاها أن يوافق على ملتسمهم بأكمله ، وطبقا لذلك فمتى حل الموعد قربوا الشاه ، حتى اذا صبوا السائل الذى سلق فيه اللحم . أمام أوثانهم يتم قيامهم بمراسم العبادة . وتوجد بهذا القطر أديرة عظيمة ، وهى والحق يقال من الرحابة والاتساع بحيث يمكن اعتبارها مدنا صغيرة ، ومنها ما يصل عدد

رهبانه الى ألفين ، كلهم مخلص فى خدمة ألهتهم ، طبقا لعادات الشعب الدينية المقررة •

ويرتدى هؤلاء الرهبان ثيابا أفضل زيا مما يرتديه سائر السكان ، وهم حليقو الرؤوس واللحية (١٤) ويحتفلون بأعياد أوثانهم بأقصى ما يمكن من جلال ، ومعهم جوقات من الموسيقى الصوتية والشموع المتقدة •

ويباح لبعض أفراد هذه الطبقة اتخاذ زوجات • على أن هناك كذلك هيئة دينية أخرى ، يسمى أعضاؤها بالسنسيم ، يحافظون على امتناعات دقيقة ويعيشون عيش تقشف بالغ ، اذ لا يتناولون الا نوعا من النخالة الناعمة طعاما ، والتي ينقعونها فى الماء الدافئ حتى ينفصل الجزء الدقيقى تماما من النخالة ، ثم يأكلونها وهى على تلك الحال • وتعبد هذه الطائفة النار ، وتعدها بقية الطوائف منشقة ، لأنها لا تعبد الأصنام كما يعبدون (١٥) •

وهناك فارق كبير بينهما فيما يتصل بالقواعد المرعية فى هيئتهما ، وهؤلاء الوارد وصفهم أخيرا لا يتزوجون بأية حال • وهم يحلقون رؤوسهم ولحاهم كالأخرين ، ويلبسون ثيابا من الخيش ذات لون أسود أو كاب ، ولكن حتى لو كانت خامة ثيابهم من الحرير ، فان اللون لا يتغير (١٦) وهم ينامون على حصر خشنة ، ويقاسون مع شطف العيش أكثر مما يقاسيه أى شعب فى العالم (١٧) • والآن سنترك هذا الموضوع ونمضى فى سبيلنا متحدثين عن الأعمال العظيمة والعجيبة للمولى والامبراطور الأسمى قبلاى خان •

الهوامش

● هوامش الفصل الأول

– التمهيد :

- (١) ان هذا التمهيد الذى حذفه مارسدن ، مترجم هنا عن النص اللاتينى الذى نشرته الجمعية الجغرافية الفرنسية ، وهو موجود فى الترجمة الفرنسية الاولى التى نشرتها تلك الجمعية عينها ، وفى بعض المخطوطات الايطالية على انه ادرج بشكل مختصر فى نص بونى الايطالى .
- (٢) تذكر الترجمة الفرنسية المبكرة تأريخا بأنه عام ١٢٩٨ وهو امر يبدو ان التمهيدات الايطالية تتفق معه .

– الفصل

- (١) بالدوين الثانى كونت فلاندره وابن عم لويس التاسع ملك فرنسا ، الذى حكم من ١٢٣٧ الى ١٢٦١ ، كان آخر اباطرة اللاتين بالقسطنطينية .

(٢) ان الفترة التى نصها فى نسخة راموسيو

«dove all' horo soleva star eun podestà di Venitia, per nome de messer Lo Dose.

والتي كتبت عنها مقالا خاصا ، يقابلها شيء فى الترجمات اللاتينية ولا الفرنسية ولا فى النص الايطالى الذى أصدره بونى . وقد فتحت مدينة القسطنطينية الولايات اليونانية فى ١٢٠٤ ، على يد جيوش الفرنسيين والبنادقة المتعاونة – وكان الآخرون تحت قيادة دوجهم ذائع الصيت هنرى داندولو شخصا . وعند تقسيم البلاد والغنائم الهائلة التى وقعت فى حوزتهم – خص الجمهورية نصيب (ضم تمثال الخيول البرنزىة الشهير لليسيبوس) أعظم مما خص الامبراطور الذى انتخب فى تلك المناسبة ، أما الدوج العجوز الذى أبى قبول اللقب الامبراطورى ، وان قبل لقب امير رومانيا ، فقد احتفظ بدائرة اختصاص مستقلة تضم ثلاثة من اجزاء المدينة الثمانية مع استقلاله بمحكمة منفصلة ، وختم أيامه وهو على رأس جيش كان يحاصر مدينة أدرنة . وليس هناك ما يؤيد أن اى واحد من خلفائه فى المنصب الرفيع لرئيس

الجمهورية اتخذ من المدينة الامبراطورية مقاما . اذ يقول جييون :
 « قلما سمح للدوج ، وهو بمثابة عميد للدولة ، بترك دفة الأعمال في
 الجمهورية . ولكن كان يقوم بعمله الكفيل أو نائب الملك . الذي كان
 يمارس السيادة العليا على جالية البنادقة - وذلك هو البودستا والذي
 يسمى احيانا بالكفيل (Bailo) و احيانا بالآمر الذي يدور الحديث
 هنا عن حكمه المعاصر ، والذي كانت أهميته السياسية في الامبراطورية
 المنحلة انذاك ، لا تقل الا قليلا عن أهمية بالدوين . وذلك بينما كانت
 تلك الأهمية في نظر أسرة بولو ، بوصفهم مواطنين بنادقة - أعظم
 كثيرا في الراجح . وكان اسم الشخص الذي يتولى أعطاء الكفالة في
 وقت وصولهما فيما ترويه مخطوطة سورنزو المسيو بونت ده فينيكسيا
 - وفي ١٢٦١ التي استردت فيها الامبراطورية أو بمعنى أخص المدينة ،
 من قبضة اللاتين - كان البودستا هو ماركو جرادنيجو .

(٣) يقول مارسدن : « ان هناك أسسا قوية تدعو الى الاعتقاد
 بأن هذا التاريخ ١٢٥٠ غير صحيح وإن ورد بجميع الاصدارات وفي
 المخطوطة التي توجد منها نسخ في المتحف البريطاني ومكتبات برلين -
 يحدد بدء الرحلة بعام ١٢٥٢ ، كما أن بعض الأحداث الواردة في السياق
 تجعل من الواضح أن رحيل رحلتنا على الأقل ، من القسطنطينية ،
 لابد أنه جرى بعد منتصف القرن بوضع سنوات ولعل ذلك لم يكن أبكر
 من ١٢٥٥ ولم يرد شيء عن عدد العنين التي تعطلا أثناءها بنقل
 المدينة ، ولكن عند أي احتساب لمدة وصولهما أو رحيلهما ، سيأخذنا
 الدهش لأن جريناوس ، الذي أصدر طبعة بال وباريس في ١٥٣٢ ومن
 بعده العلامة مولروبيرجيرون ، يدخلان بغض النظر عن الخلط والتناقض
 التاريخي في نسختيهما تاريخ ١٢٦٩ الذي يجيء بعد ثمانى سنوات من
 طرد الامبراطور بالدوين ، وكان في الحقيقة هو العام الذي عادا فيه الى
 سورية من رحلتهما التارية الأولى .

(٤) نظرا لأن رخاء دولة البندقية و ثراءها وأهميتها السياسية
 نشأت كلها عن تعاملها التجاري ، (فان مهنة التاجر كانت توضع في
 أعلى درجة من التقدير ، كما أن اشرافها كانوا من أشد مغامريها اقداما
 في التجارة الخارجية وربما جاز ان يطلق على هذه الدولة الرفيعة ذلك
 النعت الفاخر الذي جاء على لسان أشعيا عن صور القدومة التي
 يصنفها بأنها : صور المتوجة (بكسر الواو) التي تجارها رؤساء .
 متسببها ، موقرو الأرض (اشعيا ٢٣ : ٨) .

(٥) ان صولدايا هو الاسم الذي أطلق في العصور الوسطى على
 المكان الذي يسمى الآن سوداك الميناء اليورو وهو راسكيزي عند

القدماء) وهو يقع قرب الطرف الجنوبي لشبه جزيرة القرم أو توريك خرسونينوس وهو يوصف بهذه الكلمات « قرب منتصف الولاية المذكورة باتجاه جنوبي ، كأنما على زاوية حادة أو نقطة تقدم مدينة اسمها صولدايا قبالة سينوبوليس مباشرة » وهناك يصل جميع تجار تركيا الذين يمرون إلى داخل الأقطار الشمالية ، أثناء رحلتهم إلى الخارج ، وعندما يعودون نحو بلادهم من روسيا أيضا ومن الأقطار الشمالية .
آنفة الذكر - إلى تركيا - ، انظر : برشاش المجلد ٣ ص ٢ .

(٦) يدعى هذا الأمير التتري عادة باسم بريكه (Bereké) خليفة باتو ويقال انه اخوه أيضا وباتو هو ابن توشى ، الابن الأكبر لجنكيزخان وقد ورث بريكه نصيبه في ممتلكات جده (وان لم يملكه مستمعا بولاية تامة عليه) : الأقطار الغربية قايشاق أو كيشاك وآلون وروس وبلجار وتوفى سنة ١٢٥٦) .

(٧) ان بولجار أو بلجار أو بلغار ، التي ورد نكرها هنا ، هي اسم لمدينة ومنطقة سترامية الأطراف في بلاد القطار ، تقع إلى الناحية الشرقية من نهر الفولجا ، ويسكنها الآن الباشكير ، وهي تميز في بعض الأحيان عن بولجاريا الواقعة على نهر الدانوب بتسميتها بولجاريا الكبرى . فلما أسارا فهي مدينة سراى (مع اضافة أداة التعريف في أولها) الواقعة على الذراع الأيمن لنهر الفولجا ، أو أشقوبا . ولم تكن استراخان التي نكرها بالدوتنى بيجولتى واقعة في نفس الموقع الذي تقوم فيه تلك المدينة الآن ، ولكن استراخان القديمة دمرت هي وساراي معا على يد الامبراطور تيمور في شتاء عام ١٣٩٥ . وكانت مدينة ساراي القديمة قريبة بعض الشيء من مدينة استراخان القديمة - فورستر .

(٨) ان هؤلاء « التتار الشرقيين » ، كما يسمون بهذه التسمية ، وان لم تمتد ممتلكاتهم شرقا إلى ما يتجاوز ولايات بلاد فارس وخراسان ، انما أطلق عليهم هذا الاسم رغبة في تمييزهم عن التتار الغربيين (أو بعبارة أصح التتار الشماليين الغربيين) الواردة نكرهم في الهامشة السابقة والذين احتلوا المناطق الواقعة إلى جوار نهر الفولجا ، ومنها إلى تخوم - أو إلى ما وراء تخوم - أوربا . وأميرهم هنا الذى اسمه الاعو أو هالامو ، هو هولكو ذائع الصيت ، ابن تولي أو تولوي ، كما أنه شأن باتو مانكو وقبلاي (والآخرين هم اخوته) هو حفيد جنكيزخان . ونظرا لاناطة أخيه الأكبر مانكو أعباء القيادة به في الولايات الجنوبية من الامبراطورية غادر قره قورم ، قبل زيارة روبروكيس لتلك العاصمة التترية بزمان قليل ، وفي عام ١٢٥٥ عبر

نهر جيحون (Oxus) بجيش كبير . وفى السنة التالية قضى على جنس أو طائفة الاسماعيلية ، الذين يسمون أيضا بالملاحدة ، وسيقدم عنهم فيما بعد بيان خاص ، ثم وجه جيوشه على مدينة بغداد ، التى عمل فيها النهب فى ١٢٥٨ ، وأعدم المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين . وعند وفاة مانكو فى ١٢٥٩ أصبح هولاكو بالفعل صاحب الكلمة العليا والسيادة بالعراق الفارسية والبابلية ومعهما خراسان . ومع ذلك فإنه ظل معترفا بولاء اسمى مقتون بالاحترام لأخيه قبلاى ، الذى اعترف به الجميع رأسا للأسرة المغولية وجعل مقر حكمه فى بلاد الصين . ووافقه منيته فى ١٢٦٥ بمدينة توريس أو تبريز ، عاصمة ملكه .

(٩) ليس ثمة شك فى أن هذه هى أوكانك التى ذكرها أبو الفداء ، وهى التى يمكن أن يظن أن طريق رحالتينا امتد منها نحو مدينة جايك ، على النهر المسمى بذلك الاسم ، ثم بعد ذلك الى نهر سيحون .
(١٠) الواضح أن النهر العظيم الذى عبره رحالتنا ، والذى ربما جاز لهما ، لشدة عظمه أن يظن أنه خليق بأن يوضع فى مصاف أنهار الفرس ، كان نهر سيحون ، الذى يسمى أيضا بنهر سر (سرداريا) .
(١١) الصحراء المذكورة هنا هى صحراء كارك ، الواقعة على جوار نهر سيحون أوسر ، والتى لا مقر للمسافرين القادمين من الشمال أن يقطعوها للوصول الى بخارى .

(١٢) لا شك أن هذه المدينة الشهيرة ، التى لا يسهل أن يقع خطأ فى اسمها ، ولم يطمس اسمها الناسخون تقوم بخدمة مادية ثابتة هى تحديد الاتجاه العام لطريقهما . وذلك لأنهما وقد تقدما شمالا من بلاد القرم ، لم يكن فى وسعهما بلوغ بخارى الا لعبور الأنهار العديدة التى تصب مياهها فى القسم الأعلى أو الشمالى من بحر قزوين .

(١٣) يبدو أن هذا هو الأمير الذى يدعوه يتيه ده لأكرواه باسم براك كان ويسميه ده هيربيلوه براك خان (براق خان) ابن حفيد جاغتاي (جاجاتاي) ، الابن الثانى لجنكيز خان ، الذى ورث ما وراء النهر ، Transoxiana أو المنطقة التى يمتلكها الآن تتر الأوزبك . ويروى ده هيربيلوه أن براك حاول اغتصاب مملكة خراسان من قبضة أباقا ابن هولاكو . ولكن لابد أن يكون ذلك القول خاطئا ، وذلك لأن وفاة براق يضعها المؤرخون علامة فى عام ١٢٦٠ (بينما يحددها ده هيربيلوه بعام ١٢٤٠ بغير دقة مسئولة) ، ووفاته هولاكو فى ١٢٦٥ .

(١٤) عين مانكو أخاه قبلاى نائبا للملك ببلاد الصين . ومنح هولاكو حكم كل ما يستطيع انخاله فى طاعته من ولايات آسيا الجنوبية .

حتى اذا عاد هو نفسه الى الصين فى ١٢٥٨ ، مات اثناء حصار هونشيو ، بمقاطعة سه تشوين فى العام التالى . وكان قبلاى فى ذلك الوقت بمقاطعة هوكوانج ، وهو يواصل جهوده لجعل من نفسه سيدا على قوتشانج فو ، عاصمتها ، حتى استدعى عنها ليخمد فتنة اتارها اخوه الأصغر ارتكبها ، الذى تركه مانكو نائباً عنه فى قره قورم . حتى اذا قنع بارغام امبراطور الصينج ، الذى كان يحكم مانجى ، او الصين الجنوبية ، على دفع جزية سنوية تراجع الى الشمال ، وفى ١٢٦٠ نودى به خاناً أعظم بمدينة شانج تو ، التى أصبحت منذ ذلك الحين مقامه الصيفى . ويرى مع ذلك ، انه تردد فى حمل اللقب رداً من الزمان ، ولم يعلن قبوله حتى وصل مبعوث من قبل أخيه هولاكو (الذى يظن بعضهم انه كان اكبر ستا) ، يحضه على قبول منصب الامبراطورية . ويحق لنا - عقلا - أن نظن أن هذا المبعوث هو الشخص الذى وصل الى بخارى ، فى طريقه من بلاد فارس الى خاتاي ، فى نفس الوقت الذى تعطل فيه بتلك المدينة كل من نيقولو وماقيوبولو ، وبهذا يتأكد أن المدة كانت قرابة عام ١٢٥٨ .

(١٥) ينبغى أن يفهم أن هذا الابهام فى تحديد مقر حكم الخان الأعظم ينطبق على خاتاي ، أو الصين الشمالية ، التى ندر أن غاب الامبراطور عنها أو عن المنطقة المجاورة المسماة كارتشن ، التى تقع بها شانج تو .

(١٦) المقصود من قوله : امبراطور الرومان هو الامبراطور الذى يحكم بالقسطنطينية ، يونانيا كان أم رومانياً . ويسمى أقصى المشاركة تلك الأقطار التى تشكل الآن ممتلكات الترك فى أوربا وآسيا الصغرى ، باسم مبهم عام هو بلاد « الروم » كما يسمون الواحد من سكانها باسم « رومى » .

(١٧) يحق لنا عقلا أن نشكبه (بغير أن يساورنا أى شك فى البعثة نفسها) فى أن العبارات التى وضعت هنا على لسان الامبراطور، سواء فيما يتعلق بعبادة التتار أو ألوهية المسيح ، قد بولغ فيهما بسعل حساسة للناسخين المسيحيين . ولا شك أن حالة قبلاى ، الذى يعرف عنه أنه صاحب عقل ناشط مستطلع ، حيث يطلب أن يزود بعسد من المرسلين (المبشرين) من أوربا ، ليعلموا رعاياه التتار الجهلة فى شؤون الدين ، وبخاصة فى ممارسة الفنون النافعة ، لا تتجاوز كثيراً ما فعله منذ ذلك الحين فى أحيان عديدة أمراء على أمم نصف متبربرة لم ترسخ بيتها بالفعل المقدس جذور مبادئ القرآن وتعاليمه . وفيما يتعلق بالزيت المقدس فاننا نجد شاردان يذكر أهميته على الوجه

التالى : « ان ما يبيعونه (يعنى رجال الدين الأرمنيين) باغلى ثمن هر الزيت المقدسة ، التى يسميها الروم باسم « الميرون » Myrone » وتزعم غالبية المسيحيين الشرقيين أن هذا الزيت بلسم يبرىء السقام البدنية من كل ادواء النفس . والبطرك هو وحده صاحب الحق فى تقديسه . وهو يبيعه للأساقفة والقسس . ومنذ حوالى اثنى عشر عاما صمم بطريرك فارس على منع رجال الكنيسة الأرمنيين بكل أرجاء الشرق من التزود بالزيت المقدس الا من عنده ، فأما قساوسة تركيا فانهم يتزودون به منذ أمد بعيد من بيت المقدس ، من لدن البطريرك الأرمنى الذى يقيم بها والذى هو فيها الرئيس الأعلى لجميع المسيحيين الأرمنيين بالامبراطورية العثمانية » .

انظر Voy. en Perse مج ١ ص ١٧٠ (السطر ٤ من فوق) .

(١٨) كثيرا ما تذكر الكتابات الصينية « لوحات الشرف ichikoue التى تسلم لكبار الموظفين أو الضباط عند تعيينهم فى مناصبهم . وترصد عليها القابهم بحروف من الذهب ، وهى تخولهم امتيازات جساما اثناء السفر واللوحه التى ورد ذكرها هنا يمكن أن تعد من نفس النوع تقريبا . وهى تسمى فى لغة كانتون الأوربية السوقية باسم النوط الامبراطورى الأعظم ، وهى كلمة يعبر بها عن معنى « الخاتم . أو السمة أو الكفالة أو الرخصة أو جواز السفر » .

(١٩) حذف اسم المكان الذى تخلف فيه خوجاتال بكل من نسخة مارسدن ومن النص الفرنسى ومن بعض النسخ الإيطالية .

(٢٠) أطلقنا هذا الاسم (لاياسوس) نقلا عن النص اللاتينى بدلا من غزة Giazza ، التى أوردتها نسخة مارسدن ، وهو تحريف واضح . والمكان المقصود ميناء يقع على الجانب الشمالى من خليج الاسكندرونه ، أو هو اسوس ، التى تسمى فى خرائطنا وكتب الجغرافيا الحديثة عندنا باسماء مختلفة منها لاجازو وأبازو وإياسو ولألاس ولاياسا .

(٢١) ان Acre وهى عكا بالعربية انما هى مدينة بطليمائيس القديمة ، وهى مدينة بحرية بفلسطين ، استولى عليها الصليبيون من المسلمين فى ١١١٠ . ولكنها وقعت فى ١١٨٧ فى يد صلاح الدين . ولكنها انتزعت منه عنوة فى ١١٩١ على يد القوات المسيحية بقيادة فيليب اوجست ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا . وفى ١٢٦٥ وأيضاً فى ١٢٦٩ (أى قرب المدة التى وصل فيها الى هناك رحالتانا) هاجمها بيبرس سلطان مصر بغير طائل . وفى ١٢٩١

استردت نهائيا من قبضة المسيحيين ، كما دمر شطر كبير منها ، على يد سلطان مصرى آخر هو خليل من دولة المماليك البحرية . على أن عكا ارتفعت فى الأزمنة الحديثة فجأة من التأخر الذى وقعت فيه خمسة قرون ، وأصبحت ذائعة الصيت للمرة الثانية بسبب المقاومة الظافرة الصامدة العزيمة التى أبدتها حاكمها الجزار باشا فى ١٧٩٨ و ١٧٩٩ ، بمساعدة عمارة بحرية بريطانية صغيرة وبفضل الشجاعة التى أبدتها قائدها الممتاز ، ضد الجهود الشرسة والدموية التى بذلها نابليون الذى عزا مصر .

(٢٢) توفى البابا كلمنت الرابع فى التاسع والعشرين من نوفمبر من عام ١٢٦٨ . ومن هنا تكون وفاته حديثة عندما وصل رحالتنا الى عكا فى أبريل ١٢٦٩ . وربما جاز لنا أن نلاحظ أن تاريخ وصولهما يذكر مختلفا فى المخطوطات . فمنها ما يشير الى ١٢٦٠ ، بينما النص اللاتينى يذكر ١٢٧٠ كما تذكر نصوص غيره ١٢٧٢ على أن بعض المخطوطات تحدد الثلاثين من أبريل موعدا لوصولهما .

(٢٣) تثبت سجلات أخرى أن عكا كانت مقاما لمنسوب الكرسي البابوى حوالى تلك المدة .

(٢٤) تذكر نسخة بال وكذا الترجمة اللاتينية المبكرة ، والخلاصات الايطالية ، أن عمر ماركو ، الذى قدر له أن يكون مؤرخ العائلة ، لم يزد آنذاك على خمسة عشر عاما فقط . فان كانت هذه القراءة صحيحة ، وما اخالها الا كذلك ، فلا بد أن الوالد الذى وصل الى عكا فى ١٢٦٩ ، ويمكن أن يفترض أنه بلغ البندقية فى ١٢٧٠ ، غادر وطنه حوالى عام ١٢٥٥ . (انظر الهامشة ٣ ص ١٣ ويبدو أن سن التاسعة عشرة انما عين لكى يستقيم مع ميعاد السفر الذى يظن أنه عام ١٢٥٠ .

(٢٥) حدث فعلا فى هذه الحالة أن شغل الكرسي البابوى مدة تقارب ثلاث سنوات ، نتيجة لما يدور فى مجمع الكرادلة من مكائد ، ثم رأى فى النهاية أن يفوض اختيار البابا الى ستة من الكرادلة ، فوقع اختيارهم على ثيالدو من بياتشيرا فى اليوم الأول من سبتمبر ١٢٧١ . ورغبة فى الحيلولة مستقبلا دون ما يسببه مثل هذا التأخير من مضايقات وقضائى ، تقرر انشاء نظام : « اجتماع الكرادلة conclave » (على غرار مبدأ يماثل طريقة اختيار المحلفين عن طريق الجدول بانجلترا) .

(٢٦) ونجده قد تسمى فى قائمة الأحيار Ponitiffs ذوى السيادة باسم « ب » جريجوريوس العاشر بالسنطينوس ، وقد تم

انتخابه ، كما ذكرنا ، فى العاشر من سبتمبر ١٢٧١ • وكان عند ذلك يقوم بأعمال القاصد الرسولى فى سوريا • ولكن نظرا لأن الخبر نـمى الى علمه بسرعة ، فانه تمكن من الرحيل من هناك سريعا فى يوم ١٨ نوفمبر التالى ونزل فى برنديزى بالقرب من أوترانتو فى يناير ١٢٧٢ •

(٢٧) فى ذلك الحين كان ليون أو ليفون الثانى يحكم فى أرمينية الصغرى . التى كانت عاصمتها هى سيس كما أن أياص أو أيازو هى مينائها الرئيسى • بينما لعب أبوه الذى تسميه هايتون ويسميه كتاب العرب باسم حاتم ، دورا بارزا فى المفاوضات والمصافقات الأخيرة ، بعد أن سحب هولاکو من بلاط مانكوخان الى بلاد فارس واشترك فى حروبه مع المسلمين • وكان حصيل فى ١٢٧٠ على موافقة أباقا أبى هولاکو ، وهو عندئذ مولاه ذو السيادة (Liege Sovereign) على نقل تاج أرمينية الى ولده ليدن بسبب كبر سنه واصابته بالوهن والسقام ، وقد تم تسجيل أهم مآثره وأعماله على يد سميح وقريبه ومعاصره ، الذى أصبح من رجال الكنيسة بعد أن أبلى بلاء طويلا وجليلا فى الأعمال العسكرية • وقد أصدر عمله هذا جرفيايوس فى بال وپاريس عام ١٥٣٢ بعنوان : « Haithonis Armeni de Tartaris Liber » ، كما أصدره ثانية أندرياس مولر فى ١٦٧١ تحت عنوان :

«Haithoni Armeni Historia Orientalis : quoe eadem et de Tartars inscribitur» .

وانظر أيضا مختصر التاريخ لأبى الفرج ص٠ ص٢٢٨ - ٣٥٧ ، (الشهيرة بابن العبرى) (١٢٢٦ - ١٢٨٦) وانظر : ده جينى Hist. Gén. الكتاب ١٥ ص ١٢٥ - ٢٤٩ •

(٢٨) وكما يمكن أن يفرض من أن رحالتينا بدءا رحلتها قرب الوقت الذى أفلح فيه البابا جريجورى من عكا ، فإن الموعد ثابت بحكم بيئة لا يكاد الشك يرقى اليها ، بأنه نهاية ١٢٧١ أو بداية ١٢٧٢ •

(٢٩) كان هذا السلطان هو بيبرس والملقب بالبندقدارى - سلطان مصر الملكى (التى عناها المؤلف بكلمة (بابل) ، وقد فتح آنذاك الشطر الأكبر من بلاد الشام ، وغزا أرمينية بالفعل (فى عام ١٢٦٦ أو ما يقارب ذلك) وأعمل الذهب فى مدينتى سيس وأيبس • وفى ١٢٧٠ بسط سلطانه على أنطاكية ، وذبغ أو أسر جميع السكان المسيحيين ، وهدم كنائسها ، وهى أفخم كنائس الشرق وأشهرها • ولابد أنه حدث قرب بداية عام ١٢٧٢ ، أن رحالتينا دخلا أرمينية • ومع أنه لم يذكر وجه خاص أن هجوما تم على يد السلطان فى تلك المدة ، فإن من الواضح أنه لم يكف عن أرهاق بلاد الشام المجاورة بغاراته المتلاحقة • وعلى

الرغم من هذا الفتح الجسيم الذى اوردنا ذكره من تورنا ، فاننا نجد
ثانية فى ١٢٧٦ يغزو ولاية الروم المتاخمة لأرمينية الصغرى مباشرة
من ناحية الشمال . ولابد أن الهجمات المباشرة كانت دائمة لا تنقطع ،
وهى وحدها ربما كان فيها الكفاية لمنع رجلى الدين من التقدم أماما مع
رفيقيهما الأكثر منها مغامرة ، واللذين لم يلتقيا مع ذلك بالعدو .

(٢٠) من المعلوم أن فرسان اسبتالية (مستشفى) القديس يوحنا
بأورشليم ، وفرسان الهيكل (أو الداوية) ، هيتان ديريتان عسكريتان
كبهرتان ، نشأتا عن التعصب الدينى للحروب الصليبية وأصبحتا أشد
دعامة القضية المسيحية بآسيا انتظاما وفعالية . وليس بمسبغ أن
مجموعة من فرسان الهيكل كانت تعسكر فى هذا الجزء من أرمينية
التي ينبغي أن نسميها بأشائليك مرآش (رغبة فى الدفاع عنها ، وأنه
كان طبيعيا أن يلتصق الكاهنان حماية قائدها ، الذى ربما كان عميدا
لها ، وإن كان الأرجح أنه ليس سوى فارس من تلك الهيئة .

(٢١) لابد أن مقر حكم قبلاى العادى فى تلك المدة كان مدينة ين
كنج (قرب الموقع الذى تقوم فيه الآن مدينة بكين) وذلك بينما كان
منشغلا فى وضع أساسات عاصمته الجديدة تاتو ، التى ستذكر ذكرا
خاصا فى سياق الكلام « Sequel » ، على أن العمليات الحربية ،
أو تنظيمات الولايات المفتوحة حديثا ، ربما استدعت مع ذلك زيارة
مدن أخرى . وربما وجده رحالونا فى الجزء الغربى من ممتلكاته .
يقول دوهاند : « أنه أقام بلاطه فى أول الأمر ، فى تاي يوين فو عاصمة
ولاية شان سى ، ثم نقله بعد ذلك الى بكين » . انظر مج ١ - ص ٤٩٦ .
(Descript. de la Chine)

(٢٢) عندما زار تشولا ما التبت (فى ١٧٧٩ - ٨٠) إمبراطور
الصين السابق فى بكين ، استغرقت رحلته (وإن جاءت مما نعدده
اقليما مجاورا فى طريق حركته منذ ذلك التاريخ الجنود الصينية) عشرة
أشهر ، تعطل فى أربعة منها بأحد الأماكن بسبب الثلوج المترامية .

(٢٣) لعلها : المغولية (أو المنغالية) والايغورية والمانشوايه
والصينية . وربما جاز لنا أن نظن أن الأخيرة منها أقلها أرجحية ، ولكن
لا يجوز أن نستنتج أية استنتاجات من هجائه للأسماء الصينية
بالحروف الأوروبية ، وبخاصة لو راعينا حالة النص المحرفة . ويقول
النص اللاتينى أن ماركو « تعلم التتارية وأربع لغات أخرى » . وتقول
النسخة الفرنسية « أنه تعلم لغتهم وأربع طرق مختلفة للكتابة » .

(٢٤) ينبغي لنا وقد عرض علينا هنا الاسم مجردا ، دون ذكر أية
ملاحظات عدا شدة بعده من عاصمة الصين ، أن نفترض أن المقصود

به هو احدى مدن خراسان . وهو امر لا اعتراض عليه الا فى احتمال مروره فى تلك الولاية عندما زار بلاد التتار لأول مرة ، وأنه لم يذكره هنا كمكان عرفه من قبل . وكانت تلك الولاية (بالاضافة الى فارس) تحت حكم الابن الثانى لهولاكو ، الذى خلف أخاه أباقا واتخذ اسم أحمد خان ، عند اعتناقه الدين الاسلامى . وربما عد من قبل الانتهاك لأصول مجاء الكلمات فى الكتاب ، أن نظن أن المقصود بالاسم هو خورزميا ، الشاه خوارزم Kharism عند الجغرافيين المحدثين .

(٢٥) ورد فى نسخة راموسيو أن المدة هى « Ventisei anni » أى ست وعشرون سنة ، ويحاول برشاس تفسير الذى ينبغى فهم هذا العدد عليه ، ولكنى أفضل فى هذه الحالة ، اعتبار القراءة الواردة فى الترجمة اللاتينية التى بها XVII annos أى سبعة عشر عاما ، أكثر تمشيا مع الواقع . ومن المحقق أن العائلة لم تبارح عكا ، فى عودتها الى الصين ، قبل نهاية ١٢٧١ . ولما كانت هناك أسباب تدعو الى الاعتقاد بأنهم لم يملغوا بلاط الامبراطور قبل ١٢٧٣ أو ١٢٧٤ ، ولا مكثوا هناك بعد ١٢٩١ ، يترتب على ذلك أن مدة خدمة ماركو لا يمكن أن تكون تجاوزت سبعة عشر عاما الا ببضعة اشهر قليلة . فالسنوات الست والعشرون تضم جميع المدة التى انقضت منذ الزيارة الأولى التى قام بها أبوه وعمه فى ١٢٦٤ أو ١٢٦٥ .

(٣٦) مع أننا لا نجد فى المراجع التاريخية التى وصلت الى ايدينا لتلك المدة ، أى ذكر لزوجات أرغون خان ، الا أن الاسم الذى كتب هنا وهو « بولجانا » « Boljana » ، كما أنه ورد فى طبعة بال اللاتينية وكذا فى مخطوطة المتحف البريطانى « بالجانا » يرد ، مع وجود فارق طفيف فى التهجئة ، بين أسماء نساء تلك الأسرة . وكانت ابنة جاغتاي ، ابن جنكيز خان وعم هولاكو ، تدعى بولغان خاتون ، كما يتجلى ذلك من « روضة الصفاء » تأليف ميرخوند . على أن النصين اللاتينى والفرنسى والنص الايطالى فى اصداره بوئى ، تسمى الملكة بولجارا .

(٣٧) خلف أرغون خان ، ابن أباقا خان وحفيد هولاكو ايلخان ، عمه أحمد خان نيقودار على عرش فارس ، وخراسان وأقاليم أخرى مجاورة فى ١٢٨٤ . وكان أول عمل فعله ، كما ينبئنا ده جنى De Guignes (LIV. XVII, p. 265) أن أرسل الى الامبراطور قبلاى بوصفه كبير العائلة والعاهل الذى يتلقى ولاءه ، متلمسا تقليده مقاليد الحكم فى ممتلكاته . واذن لابد أن تكون وفاة ملكته ، المتحدث عنها هنا ، حدث - استفاء من الظروف المذكورة فى سياق الكتاب فى قريب من عام ١٢٨٧ ، كما أنه هو نفسه مات ١٢٩١ - وتضمن جميع ترجمات

العمل بغير استثناء على كتابة الاسم أرغون Argon ، وهي تهجئة
تقترب كثيراً من التهجئة الفارسية .

(٢٨) كان الخان الأعظم ، الذى قيل بأن عائلة هذه الملكة تنتم فى
بلاطه بإقليمى كاتايا ، العم الأعلى (عم الوالد) لأرغون زوجها ،
ويحتمل أن الملكة نفسها كانت من نفس الأسرة المالكة المغولية وأنها من
ذس العترة التى ينتمى إليها جنكيز خان . فكان قلقها منصباً إذن على
الآ يفض زوجها من قدر نفسه ومن ذكراها ، بعقد زواج مع أية أنسانة
من سلالة أقل نبلاً منهم . هلو نظرنا الى الظروف إذن فى ضوءها
الحقيقى ، سيتضح أن ما تد يظن لأول وهلة قصة رومانسية ، ملك
الهند يرسل سفارة الى امبراطور الصين ، بقصد الحصول على زوجة ،
انما هو ببساطة صفقة بسيطة وطبيعية لأحد صغار أفراد أسرة عظيمة بتقدم
الى رأس البيت بلمس منه الاذن له بتقوية أواصره ، بالزواج بواحدة من
بين بنات أعمامه من الدرجة الثانية فيما يرجح ، وذلك أنه يجوز لنا أن
نزع أنه لو لم تكن هذه الأنثى واحدة من بنات عترة قبلى الباشرة ،
(كأن تكون حفيدة له مثلاً ، نظراً لتقدمه فى السن آنذاك) لما كانت
هناك حاجة تدعى الى القيام بطلب بالغ الرسمية كهذا . أما فيما
يتعلق بالمسافة الفاصلة بين فارس والصين ، التى قد تتخذ اعتراضاً
على احتمالية هذه الواقعة ، فإن من المعلوم جيداً أنه كانت هناك بين
جميع فروع هذه الأسرة المغولية ، مهما ترامت مسافة البعد بين الواحد
منها والآخر ، اتصالات مستمرة ، ظلت قائمة حتى تلك المدة ، كما أن
أرغون نفسه تقدم الى نفس الملك وتلقى منه قرار تنصيبه . غير أنه ظهر
فى هذه الحالة أنه لم يعد فى الامكان التغلب على الصعوبات المحيطة
برحلة العودة بطريق البر .

(٢٩) كان موقع خاتاي ، أو كاتايا ، (أو كاتاي كما كان سميها
عادة كتاب العصور الوسطى) مثار مناقشات كثيرة بين العلماء .
ولكن لا إخال من يرجعون الى من كتبوا من الشرقيين فى تقويم البلدان
(الجغرافيا) والتاريخ ، لا من اليونانيين ، يشكون فى أنهم يطلقون
الاسم على الولايات الشمالية لما نسميه الآن باسم الصين . وهى الولايات
التى فتحها جنكيز خان وابنه أكتاي Oktai منتزعين أياها ،
لا من حكومة صينية ، بل من جنس من التتار الشرقيين ، يسمى باسم
نيوتشييه وكن ، وهو جنس أخضع تلك الولايات قبل ذلك بمائة وعشرين
سنة . وليس من السهل القطع فى هل يقصرون الاسم بدقة على تلك
الولايات وحدها ، أو يدخلون فى كاتاي بعض الأجزاء المجاورة من
بلاد التتار ، خارج سور الصين الأعظم ، وذلك نظراً لأن بياناتهم عن

رحلات ماركو - ١٧٧ .

تلك المناطق أبعد ما تكون عن الدقة . على أتى أرجح أن الوضع الأول هو الواقع .

(٤٠) تختلف هذه الأسماء اختلافاً طليفاً في الترجمات والاصدارات المختلفة ، حيث تظهر بأشكال يولاتاي وجولاتاي وايوسكا وأيوسكا المختلفة ، وأجوزا وكويلا . ولعلها شوهت جميعاً تشويهاً كثيراً أثناء نقلها من مخطوطات غير واضحة الكتابة . والنص اللاتيني يسميهم أولاتا واليوسكا وكور . على أنه ليس لهم جميعاً أية أهمية تاريخية .

(٤١) كانت إحدى زوجات هولاكور ، وهى أم أحمد خان نيقودار (عم أرغون) ، تسمى كوتاي خاتون ، وهو اسم كوجاتين (وتكتب أيضاً جوجاتيم وكوجاتين) كانت تحريفاً له . وكثيراً ما تلحق لفظة خاتون ومعناها « السيدة » ، بأسماء الاعلام أو تكون جزءاً منها وتطلق على سيدات الطبقة العليا الفارسيات والتتريات .

(٤٢) لابد أن هذه الحروب شبت حوالى عام ١٢٨٩ ، وعلى الأرجح فى بلاد ما وراء النهر ، (Transoxiana) بين أحفاد جاجاتاي أو زاكاتاي (أو جاجتاي أو جغتاي الموسوعة الميسرة) وهم قوم تاريخهم غامض بوجه خاص . ولكن هناك أسباباً كثيرة تدعو الى الاعتقاد بأنهم هم أو أى أمير من أمراء المغول ، قلما عاشوا فى هدوء . وأثيرت الفتن كذلك ، قرب بلاد الصين ، على يد أخ أصغر لقبلاى ، حاول أن ينازعه عرش الامبراطورية .

(٤٣) ان ما يسمى هنا بالهند الشرقية ، ينبغى الا يفهم على أنه قارة الهند ، بل هو بعض الجزر الواقعة فى الأرخيبيل الشرقى ، وربما كانت هى جزر الفلبين ، أو لعلها ساحل تسياميا أو تشاميا ، التى يتحدث مؤلفنا ، فى جزء آخر من العمل ، بأنه زارها . والرحلة المذكورة هنا جاءت عقب الحملة العظيمة والكارثة أيضاً التى كانت عبقرية قبلای الناشطة سبباً فى دفعه الى خوضها على مملكة اليابان ، وينبغى ملاحظة أن النصوص اللاتينية والفرنسية وكذلك الايطالية التى نشرها بونى ، لم تذكر شيئاً عن السفن وإنما تجتوىء بمجرد ذكر أنه كان عائداً من سفارة بالهند .

(٤٤) ربما بدت الاشارة الى ذلك الدافع الاقتصادى شيئاً شاذاً ، لولا أن التعلق بالمال كان من النقاط الضعيفة فى اخلاق قبلای ، كما أن الطرق التى كان يستخدمها فى جمعه ، أو اغماضه العين عن عماله حين يستخدمونها ، كانت موضعاً للكثير من اللوم .

(٤٥) ورد فى الترجمة اللاتينية أنه عين سفراء من قبله لدن هؤلاء العواهل ليصحبوا البعثة . ولكن نظرا لأن هؤلاء الأشخاص لم ترد عنهم أية اشارة فيما بعد . وان وجدت مناسبة واضحة (هى قوائم الرميات) ، فان النسخة الايطالية تعد أحق بالتفصيل .

(٤٦) عما يحدث فى الأزمنة الحديثة ، فى الجزء الشمالى من بلاد الصين ، وبخاصة فى نهر بى هو ، من حيث تزويد السفن المعدة للاستخدام فى الرحلات بالبلاد الأجنبية البعيدة ، « باربع » ساريات ، نعتمد على « بارو » حيث يقول . « من المحال علينا ألا نعد الملحوظات التى أوردها هذا الرحالة القديم (ماركو بولو) عجيبة ومشوقة وقيمة . وقد ما تتعلق بالامبراطورية الصينية ، فانها تحمل فى طياتها الدليل على صدقها جملة . فلقد اقلع من الصين بأسطول يتكون من أربع عشرة سفينة ، تحمل كل منها أربع ساريات أو (صوار) وقد قسمت عنابرها الى مقاصير منفصلة . وقد شاهدنا مئات عديدة منها أكبر حجما وأوصافا ، وهى تستخدم فى الرحلات الى البلاد الأجنبية ، وكلها تحمل أربع « ساريات » . انظر Travels in China ص ٤٥ . وورد فى الترجمة اللاتينية : « ولكل منها أربع صوار كما أن كثيرا منها كان يقلع باثنى عشر شراعا » . ومن المعلوم الآن أن المواعين (السفن) الصينية لا تحمل الآن أى نوع من الشراع الثانى الأعلى .

(٤٧) ربما صح لنا أن نستنتج أن اقلاع هذه البعثة المسترعية للاعجاب من بى هو أى نهر بكين ، بناء على الظروف المذكورة فى أجزاء الكتاب المختلفة ، حدث قرب بداية عام ١٢٩١ ، وكان ذلك قبل وفاة الامبراطور قبلاى بثلاث سنوات ، وقبل وصول آل بىولو الى البندقية بأربعة أعوام فى ١٢٩٥ .

(٤٨) ترد بعض تفاصيل هذا الجزء من الرحلة فى الكتاب الثالث الفصل العاشر ، حيث تسمى الجزيرة المسماة هنا جاوة باسم جاوة الصغرى ، ومن الجلى أن المقصود بها هو سومطرة . وسيتضح أنهم كانوا ينتظرون حدوث التغير فى اتجاه الرياح الموسمية فى ميناء يقع فى شمال تلك الجزيرة ، قرب المدخل الغربى لمضيق ملقه .

(٤٩) الموضع الذى بلغته البعثة فى خاتمة المطاف ، لم يرد ذكره بصورة مباشرة فى أى جزء من العمل ، بيد أن هناك أسسا قوية للاستدلال أنها كانت ميناء هرمز (أرمز) الشهيرة . أما عن الأمير المدعو أرغون خان فانظر هـ ٣٧ ص ٩ .

(٥٠) لا تزيد نسبة الوفيات هذه عما يمكن توقعه فى سفن مكتظة بأناس لم يعتادوا رحلات على مثل ذلك الطول وقضوا اشهرها كثيرة

راسين فى مضيق ملقه ، ومع أن نسبة الوفيات كان يتوقع أن تصل الى ثلث عددهم بأجمعه ، فانها لم تتجاوز ما لقيه لورد آتسون وملاحون آخرون ممن عاشوا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

(٥١) توفى أرغون خان ، حسبما تروى الأسناد التى تتبعها ده جينى ، فى الشهر الثالث من السنة التسعين بعد الستمئة للهجرة . التى تقابل شهر مارس من عام ١٢٩١ لميلاد السيد المسيح .

(٥٢) ان الشخص المدعو هنا كيا اكاتد أو كياكاتو Chiacato فى التهجئة الايطالية ، والذى يوصف بأنه حاكم البلاد باسم ابن الماك المتوفى ، كان هو قاي خاتو ، الابن الثانى لأياقاخان ، فهو من ثم أخى أرغون ، الذى قيل انه استولى على العرش عند وفاته (وان جاز أنه لم يكن يؤدى عمله الا وصيا على صاحب العرش أو حاملا له) مثيراً بذلك حقد ابن أخيه الذى كان قاصراً .

(٥٣) الاسم الذى يكتب هنا قاسان أو كاسان ، ويدعوه ده جينى كازان ، هو تشارزان خان ، الابن الأكبر لأرغون . ولكنه لم يعتل عرش فارس الا فى نهاية عام ١٢٩٥ ، بعد وفاة والده بمأيدانى الخمس سنوات . وكان أرسله للقامة بخراسان ، تحت رعاية أتابك (محافظ) يسى نوروز ، وهو الذى أقنعه باعتناق الدين الاسلامى قبما بعد ، وتسمى باسم محمود . ولا يبدو أنه كان يلقى وهو فى تلك الولاية تحرشا من عمه قاي خاتو ، وتدل هذه التوصية منه ، بوجوب نقل الأميرة الى الأول بوصفه ممثلا لأبيه ، على أن العلاقة بينهما لم تكن علاقة عداة فعلى . وفوق هذا يدل الظرف أنه عندما انتقلت مقاليد الحكم عند قتل قاي خاتو الى بايدو (وهو حفيد لهولاكو ينتسب لفرع آخر) ، وزحف غزان بجيش الى الرى (Rages) لتأكيد مدعياته فى الوراثة ، كان اول طلب تقدم به هو تسليم قتلة عمه اليه . وبعد كفاح مشكوك فى عواقبه دام ثمانية أشهر ، أدى خروج أكبر ضباط الغاصب شانا عن طاعته الى تدميره والقضاء عليه ، واعتلى عرش فارس حوالى السنتين اللتين أعقبتا وصول الأميرة ، التى لم يرد عنها بعد ذلك أى خبر .

(٥٤) سيرد ذكر تفصيلى أكثر عن هذه الناحية ، وعن الشجرة التى يقال أنها استمدت منها اسمها فى الفصل العشرين من الكتاب .

(٥٥) هذا هو المر المهم المعروف لدى القدماء باسم المضيق القزوينى Porta Caspice (تمييزاً له عن ممر رودبار) ، والذى يسميه الجغرافيون الشرقيون مضيق خوار أو خور ، وهي مشتقة من

كلمه فارسية معناها واد بين جبلين (أى خور بالمعريية) ، أو عن مدينة صغيرة . تحمل نفس الاسم قرب المدخل الشرقى - ويقول رنل . « ان هذا الشق العجيب يسمى الآن مضيق أو ممر خوار (وهى تشورا عند القدماء) ، اخذاً من مدينة أو ناحية فى المنطقة المجاورة . وهو يقع عند نهاية الصحراء الملحة الكبرى ، وهى الواقعة الى الشمال نصا من أصفهان ، وعلى بعد حوالى خمسين ميلا شرقا من خرائب الرى دريند وكذا ممر (Rages) ، وقد مر فيه الاسكندر وهو فى طريقه من الرى الى آريا وباكتريا (Bactria) ، وقد وصفه بوجه خاص كل من دلا فالى وهربرت بين المحدثين ، وبلينى بين القدماء . وطوله ممانية أميال وعرضه على الجملة أرجعون ياردة » . انظر :
Geographical System of Herodotus (examined and explianed)
ص ١٧٤ ، هامش .

(٥٦) ربما دفعنا الجزء السابق من القصة الى الظن بأن مقام قاي حاتر كان يقع فى احدى المقاطعات الجنوبية ببلاد فارس . غير أننا نجد هنا على العكس ، أنه فى تطابق تام مع تواريخ ذلك الزمان - كان يقع على الطريق بين المكان الذى كان فيه غزان معسكرا على الضفة الشرقية لممر قزوين وبين قطر ارمينية ، الذى كان رحالونا يشقون طريقهم اليه . ووفقا لذلك ينبئنا د . هربيلوه وده جنى وغيرهما ، أن قصبة امراء تلك الأسرة المالكة كانت مدينة تبريز (Tauris) بآذربيجان ، ولكنهم كانوا كثيرا ما يسكنون (وخاصة فى الصيف) بهمدان فى الجبال ، ليكونوا أقرب الى الحدود السورية .

(٥٧) يمكن أن نستنتج بناء على ما ورد فى الهامشة السابقة ، أن هذا المكان كان تبريز .

(٥٨) لما كان وزن المارك ثمانى اوقيات ، فلا بد أن اللوحات كانت عالية الدقة بخير ضرورة كما كانت ثقيلة الوزن الى حد ضجر . على أن الترجمات الأخرى للكتاب لا تحدد لها وزنا ولا حجما ، كما أن بعضها تذكر أنها ليست سوى لوحتين اضافيتين .

(٥٩) ويدل هذا على أن سيادة رأس العائلة كانت لا تزال معتزلا بها من تلك الفروع ، وربما كانت لدى قاي خاتو أسباب خاصة دعته الى المبادرة الى تنفيذه توددا ، إذ يقال ان غزان هو أول من نبذ هذا النوع الطفيف من التبعية الاقطاعية ، وربما لم يرسل سفيرا من قبله الى الصدين يطلب اقرار تنصيبه فى عرشه .

(٦٠) يلمس في وصف السلوك الوارد هنا برهانا على الشك العام الذي كان يعتل في انفس الناس حول حقه في العرش ، وان حاش رؤساء المعول يظاهرون بانهم يعدونه شيئا متوقفا على انتصابهم . ويجمع المؤرخون على التشهير باخلاقه واتهامه بالفجور . ولما كان هؤلاء الأمراء (الرؤساء) يستعززون الغضب لان الذي يحكمهم مير على مثل هذا الفساد البالغ ، « يكرهه رعاياه بقدر ما يحتقره الاجاب » . فادهم قمرروا عزله وعرضوا التاج ، لا على غزان ، الذي ربما طوه صغير السن جدا او بالغ الضعف في قوة البدن بحيث لا يتواءم وهدمهم ، بل على بايدو ، وهو حفيد لهولاكن وابن عم للملك الراحل . وكان اتند حاكما على بغداد . ودارت رحى معركة ، وجد فيها ثاى خاتو ، وهو شخص شجاع ثبت الفؤاد ، ان قائدا رئيسيا من رجاله خانه ، وكان يقود احد اجنحة جيشه ، فانهزم ثم خنق فيما بعد . عن التفاصيل الموسعة لهذه العمليات ، استنادا الى خوند امير ، انظر La Bibliothèque Orientale تحت مادة « Baidu » ، انظر ايضا مادة جانجياتو ، « والدى نجد انه يسمى ايضا كايكتو وكايكتو » . يلاحظ خوند امير ان الاسم الحقيقي لهذا الامير هو آيكاثو او جايكاثو . واذن ، فينبغى لنا ان نتعلم منذ هذه اللحظة التردد قبل ان نعيب على مرفنا هجاءه . حيث تختلف طريقة كتابته لهذا الاسم الغريب اختلافا هينا الى ادنى حد ، ان كانت تختلف اطلاقا ، عن بعض هذه المراجع الثقة ومن الظروف الجديرة بالملاحظة حقا ، ان أحد الدوافع الرئيسية المنسوب اليها تمرد امراء المغول على هذا الامير ، محاولته انشاء نظام عملة ورقية في ممتلكاته يماثل المتبع ببلاد الصين - انظر De Guignes, Hist de Huns, الكتاب ١٧ ص ٢٦٧ .

(٦١) نصب قبلاى ، الذى ينطق الصينيون اسمه هوبيلى او هويليه ، بينما يخلعون عليه في « حورلياتهم » التاريخية اسم « تشى تسو » ، خانا اعظم في عام ١٢٦٠ ، واصبح امبراطورا للصين في ١٢٨٠ ، عند تدمير أسرة صونج ، وهى أسرة كانت تحكم في مانجى او الولايات الواقعة الى الجنوب من نهر كيانج العظيم ، وتوفى في ١٢٩٤ وعمره ثمانون عاما . وليس عجيبا ان نبا حدث بالغ الأهمية كهذا لدى جميع قبائل المغول او التتار ، يجد سبيله الى البلاط الفارسى ومن ثم يطرق مسامع رحالينا ، القائمين بتلك البعثة المهمة .

(٦٢) كان اتند الطرق امامهم قصرا الى تبريز مباشرة بمر من خلال بدليس ببلاد كردستان ، الى حلب ، ولكن تصادف في هذا الوقت ان سلاطين مصر ، الذين كان ملوك فارس مشتبهين معهم بلا انقطاع

فى حروب ، كانوا يسيطرون على جميع موانئ سوريا ، وما كانوا
 ليعبروا جوازى سفرهم ادنى احترام • على طريقهم البرى المار
 بجورجيا (الكرج) الى ترابيزون على ساحل البحر الأسود كان اقصر
 واسلم • كما أنهم عندما يصلون الى ذلك المكان يكونون تحت حماية
 الأمير المسيحي ، الذى حكمت أسرته مملكة ترابيزون المستقلة الصغيرة
 من ١٢٠٤ الى ١٤٦٢ •

● هوامش الفصل الثانى

(١) يتطابق هذا التمييز بين الأرمينيتين الى الكبرى والصغرى مع ما جده عند بطليموس وجغرافىي العصور الوسطى ، وان حدثت تقسيمات أخرى لتلك المنطقة آسيا منذ أن اخضعت للإمبراطورية العثمانية . ويحدد بوشنج أرمينية الصغرى بأنها تضم ذلك الجزء من كابادوكيا وكياكيا ، الذى يمتد على طول الجانب الغربى من أرمينية الكبرى ، وأيضاً على الجانب الغربى من نهر الفرات أما عن أنها كانت تمتد جنوبى جبال طوروس فى أيام الملك هايتون وكانت تضم كيليكيا (compestris) وهو أمر لم يكن قائماً فى الأزمان القديمة ، فان لدينا عن ذلك سنداً لا يمحى هو ذلك المؤرخ .

(٢) تبعاً لما يظهر من الفقرة المقترحة فى الهامشة السابقة ، وكذا من مصادر أخرى من أن سيس كانت هى عاصمة أرمينية الصغرى ، اتناء حكم آل ليون وآل هايتون ، نميل الى الظن بأن « سياستوز » الوارد ذكرها هنا ، وهى الاسم القديم لمدينة سيس تلك ، أو لمدينة قامت فى نفس موقعها . أجل ان من الراضح من جغرافية بطليموس ، انه كانت هناك أماكن كثيرة بآسيا الصغرى لها أسماء سياستيا ، وسباستيه وسباستويوليس (بالاضافة الى واحدة فى سوريا) ، كما انه فى تعداده لمدين كيليكيا (قيلقيا) ، نعثر على مدينة اسمها سياسته ، أضيف اليها نعت « اوجوستا » فى الترجمة اللاتينية التى صدرت بالبندقية فى ١٥٦٢ . وربما يكون ليون الاول - (الذى يسمى العرب البلاد نسبة الى اسمه ، بلاد ليون أو بلاد سيس) قد أقام المدينة الحديثة على أساسات هذه القديمة ، وربما كان الاسم اليونانى لا يزال غالباً . على أنهم ينبئوننا مع ذلك أن المدينة التى قامت قبل سيس عاصمة لأرمينية الصغرى ، كان اسمها سيس أو ماسيس ، وهى ميسيوسنيا القديمة . وينبغى لنا أن نعترف أنه اذا لم يكن المصدر والسند متناقضاً والظن ، فان جرس (بكسر الجيم وسكون الراء) هذه الأسماء ربما ساقنا الى الظن ان الاسم الحديث ان هو الا اختصار لمسيس وأن سياستوز ببيل دن موبسيوسته . وسيرى القارئ فى جزء ثال من الفصل أن مدينة سفاستا أو سيفاسته وهى سيواس أو سيفاس العصرية ، يجرى الحديث

عنها هي ظررف يظهر انها تميزها تماما عن العاصمة الأرمينية . وذلك نظرا لان العول انتزعوها حديثا من أمراء السلاجقة .

(٣) تقع لاجاسو أو اياس بمنطقة سبخة منخفضة تكونت من غرين نهري سيحان وجيحان (بكليكييا) (المنجد) وهي (كما أوضح لى الكولونيل رنل) تقع عند المصب الحالى للنهر الأخير . وقد انتقلت تجارتها الى الاسكندرونة فى الجهة المقابلة الى الجانب السورى للخليج .

(٤) ان لفظة بلاد المشرق أو Levant هي ترجمة للكلمة الاناضول نعا عن اللفظة اليونانية (Aratol'n) المشتقة من Ortus, Oviens التى تدل على القطر الواقع الى « نحو الشرق » من بلاد اليونان . ومن تم فانه بوصفها اسما لاقليم ينبغى ان تكون معادلة لاناتوليا ، بمعناها الأوسع المقبول لدى الناس . ومن البين ان مؤلفنا يستخدمها للدلالة على آسيا الصغرى . وتعد أزمير فى الوقت الحاضر الميناء الرئيسى ببلاد المشرق (الافيانث) ، ويبدو ان المصطلح يقصر استخدامه الآن على ساطىء البحر ، وعلى الاستخدام فى الشؤون التجارية وحدها .

(٥) عن أرض الميعاد أو فلسطين ، التى لا تمتد شمالا أبعد من مدينة صور ، ينبغى ان يفهم ان المقصود منها هنا هو سوريا أو على الأقل القسمسمى Coelo-Syria التى تتاخم كيليكيا أو القسم الجنوبى من أرمينية الصغرى . ولما كانت لفظة سوريا (أو الشام) ، وهى التسمية الأعم تضم فلسطين ، كما ان الاسم الثانى كان ايسان الحروب الصليبية مألوفاً أكثر لدى الأوربيين من الاسم الأول ، فليس عجيباً ان يخلط بينهما فى بعض الأحيان . والعرب (Saracens) المذكورون هنا هم رعايا سلاطين مصر المماليك ، الذين استردوا من قبضة الدول المسيحية بالشام ، ما فقدته امراء اسرة صلاح الدين ، الأيوبيون . على أن الاسم أطلق بأجزاء أخرى من الكتاب للدلالة بغير تمييز على المسلمين عامة .

(٦) كان تركمان كارامانيا جيلا من التتار ، واستقروا بآسيا الصغرى ، تحت حكم الأمراء السلاجقة ، الذين سنكتب عنهم فى الهامشة التالية بيانا . وكانت قيصرية أو قيساريا وسيفاستا أو سيفاسته ، وهى سباستوبوليس كابادوكيا البطلميوسية ، وسيراس أو سيفاس فى العصر الحاضر ، - مدنا تتبع نفس الأسرة المالكة ، فقدتها لمخول فى عام ١٢٤٢ .

● هوامش الفصل الثالث

(١) ان المفصود بتركمنيا هو على الجملة ممتلكات الأسرة السلجوقية العظيمة في اسيا الصغرى ، التي تمتد من كيليكيا وبامفيليا ، في الجنوب ، الى شواطئ بحر اليوكسين (الأسود) ، ومن بيسيديا وميسيا ، في العرب ، الى حدود ارمينية الصغرى ، بما في ذلك الشطر الأكبر من مرجيا وكبادوكيا ، مع منطقة بنطس (بنطش) وبخاصة الولايات الحديثة المسماة كارامانيا ورومية ، أو بلاد الروم . فاما عاصمة الاولى منهما فكانت ايكرونيوم التي يحرفها الكتاب الشرقيون الى قونية ، كما يحرفها كتاب الصليبيين الى كويني (Kogin) اما الثانية فعاصمتها سياسته أو سياستوبوليس التي تنطق محرفة سيراس أو سيفاس . والأمير الذي استنقت منه الأسرة السلجوقية اسمها كان بالمولد تركمانيا ، من تركستان ، على الجانب الشمالي الشرقي من نهر سيحون أو Jaxartes ولكنه في خدمة أمير للخزر (Khozar) على نهر الفولجا ، التي فر منها وأخذ يلتمس حظه فيما وراء النهر ، كما فعل بعض أفراد عائلته في خراسان . حتى اذا حازوا شهرة عظيمة ، تمكنوا في النهاية ، بفضل انضمام العديد من القبائل التركمانية الى رايثهم ، من تأسيس دولة ذات سيادة ، تعد من ناحية الاتساع ، امبراطورية ، مقر حكمها الرئيسي فارس . وتمكن فرع آخر منهم ، حوالي عام ١٠٨٠ ، من اغتصاب ولايات اسيا الصغرى البديعة من قبضة الأباطرة اليونانيين وكونوا المملكة التي نتحدث عنها الآن . وكثيرا ما شق الأمراء المسيحيون طريقهم من خلال ممتلكاتها عنوة ومرارا متكررا اثناء تقدمهم الى الأراضي المقدسة ، ويقدر المؤرخون عدد من هلكوا في هذه الحروب التمهيدية بما لا يقل عن ستمائة ألف رجل . واخيرا خضعت قوة السلاجقة للنفوذ الجارف لأسرة جنكيزخان ، حتى لقد أصبحوا في عهد مؤلفنا مجردين من كل أهمية . ولكن قامت من بين انقاضهم امبراطورية العثمانيين ، التي كان مؤسسها تابعاً لأحد أواخر سلاطين ايكرونيوم (قونية) .

(٢) لا يزال التتار التركمان يحافظون الى يومنا هذا ، على عاداتهم الرعوية القديمة ، حتى في اسيا الصغرى نفسها ، كما ان التمايز بين

قبائلهم لا يزال قائما أيضا • وتلقى سلالة الحصان « التركي » التقدير بكل أرجاء المشرق لما تتصف به من دكاء وحيوية وقوة احتمال •

(٢) يقول قاموس التراجم (The Biographical Dictionary) لقي بليز ، أسقف سباستا ، إحدى مدن كبادوكيا في القرنين الثاني والثالث ، مصرعه في عهد الامبراطور (دقلديانوس ، بقطع الرأس ، بعد ان ضرب بالسياط ومزق لحمه بامشاط الحديد •• ومن العسير تحديد كيف أصبح اختراع (تمشيط الصوف) يذسب اليه • ولكن لعله سيء ليس له تعليل أحسن من ظرف تعذيبه بالآلات المستخدمة في تمشيط الصوف) •

(٤) ان أسرة هولكو والقبائل التي تبعت رايته من الشمال ، هم الذين يلقبهم مؤلفنا على الدوام باسم التتار الشرقيين ، تمييزاً لهم عن سلالة بأتو ، الذين كانوا يقيمون قرب العولجا ، على الجانب الشمالي الغربي من بحر قزوين ثم بسطوا فتوحاتهم نحو أوروبا • على حين دخل الأول فارس من الناحية الشرقية عن طريق ما وراء النهر وخراسان •

● هوامش الفصل الرابع

(١) ان أرزنجان أو كما يكتبها العرب الذين ليس لديهم الجيم الفارسية أرزنجان ، مدينة تقع قرب حدود رومية ، ولكنها تقع داخل حدود أرمينية الكبرى مباشرة . يقول ده هريلوه : « ان هذه المدينة تتبع على الأصح بلاد أرمينية ، واستولى عليها المغول أو التتار في عام ٦٤٠ للهجرة (١٢٤٢ الميلادية) بعد هزيمة قايقسرو بن علاء الدين السجوقى ، كما استولوا على مدينتى سياسته وقيصرية » . ويقول عنها أحد الجغرافيين العرب :

Oppidum celeberrimum, elegand, amoenum, copiosum bonis rebus, incolisque opertinens ad

ويتحدث جوزافات بريارو ، أحد البنادقة ، وقد سافر الى فارس في القرن الخامس عشر ، عن مدينة اسمها أرسنجان ، قائلا انها مكان كان له من الماضى شأن عظيم ، ولكن معظمها كان آنئذ متهدما .

(٢) ان اسم نوع من القماش الذى ترجمته هنا باسم «بمبازين» ورد في نسخة راموسيو الايطالية *bochassinidi bambagio* كما ورد في الترجمات اللاتينية *bucaramus buchiramisand buchiraonus* ولا توضح معاجمنا مادته ولا تكوينه . ويعرف معجم *Cotgrave* المطبوع في ١٦١١ البوكاسين *buccasin* بأنه نوع من البركيرام الرقيق ، كان يشبه التافاه (الديباج) ويستخدم كثيراً في تبطين الثياب ، ويشبه كذلك نسيج كاليمانكو . ولكن هذا ، كما هو واضح ، لا يمكن أن ينطبق على صناعة للبومباجيرو أو القطن . كما أن معجمى *Vocabolaria della cruscà, Glossary* يتحدثان عن « البوشيرام » و « البوشيرام بامباجينو » وكلاهما يشير الى أنه تنقل عن مؤلفنا استخدامه لهذه الكلمة . وجميع الأمثلة تحمل فكرة قماش قطنى رفيع وأبيض وناعم ، وهو عكس ما يسمى الآن بوكرام . وتحدث النسخة اللاتينية المبكرة عن البوكرام والبمباتشى بأنهما شيئان مختلفان .

(٣) توجد الحمامات الساخنة الطبيعية بأجزاء كثيرة من آسيا الصغرى ، وبخاصة قرب أنكيره ، وهى انقره فى العصر الحديث ، ولا يزال الناس يرتادونها كثيراً . ويشار الى موقعها بكلمة ثرماسى *Thermae* فى خريطة رنل الموضحة « لتراجع العشرة آلاف » .

ويتحدث عنها كذلك أهالى تفليس ببلاد الكرج (جورجيا) على أنى لم
استطع أن أجد أية إشارة الى وجودها بمدينة أرزنجان فى أعمال
الجغرافيين الشرقيين .

(٤) ان أرجيرون أو أرجوزون ، هى تحريف للمفظة أرضروم ، أو
أرزوم ، أو أرض الروم ، وهو اسم مميز أطلق على مدينة تسمى أرزن ،
بوصفها آخر مكان منيع فى ذلك الاتجاه ، يتبع امبراطورية الروم .
يقول أبو الفداء فى كتابه : « المختصر فى تاريخ البشر » :
« *Arzerrûm est extremus finis regionum Rumacorum ab oriente. In
ejus orientali et septentrionali latere est fons Euphratis* ».

(٥) ان داريزن التى وردت فى الطبعة اللاتينية الأقدم أرزيو ،
وفى الملخصات الإيطالية أرتشيري وأرزيرو ، هى المدينة التى تسمى
الآن باسم أرجيس ، والتى تقع على حافة بحيرة فان ، وكانت تسمى
قديما أرسسا بالوس . يقول ماكدونالد كنيار : « أرجيش مدينة تحوى
سنة آلاف نسمة ، وتقع على الجانب الشمالى الغربى للبحيرة ، على
مسيرة ثلاثة أيام من فان . وفى البحيرة أربع جزر ، يوجد على واحدة
منها دير أرمنى ، وثلاثمائة قسيس » انظر

Memoir of the Persian Emp.

ص ٣٢٨ و ٣٢٩ . ولعلنا نلاحظ أن هذه الأماكن كانت تقع فى طريق
عودة مؤلفنا من توريس (تبريز) الى ترابيزون .

(٦) تقع بابيرث (وهى بابيرث فى خرائط دانفيل ورنل) بين
الجبال ، فى اتجاه شمالى من أرضروم ، ولما كانت كلمة بيرت *Purt*
معناها فى الأرمنية قلعة ، ولما كان الجغرافيون العرب مضطرين لعدم
وجود حرف الـ *پ* الفارسية فى لغتهم أن يستبدلوا به حرف الباء العربى
فان الراجع ان النطق والهجاء الأول بالباء الفارسية هو الأصح .
ويلحظ جوزافات باربارو هذه القلعة على نحو خاص ويقول عنها :
Partendo d'essa (Trabisonda)

*Pen ander à Thauris ... il primo luogo notabile che si trova, è
uno castello in piano in una valle d'ognitorno circondata monti.*

انظر : *Viaggio in Persia* ص ٤٨ طبعة ١٥٤٥ .

(٧) مع أن هذا المنجم بالذات ربما يكون استنفد ، فان من
المعروف أن بهذا الجزء من أرمنية مناجم للفضة .

(٨) ان جبل أرمنية (وهو المسمى أرارات فى الكتاب المقدس) ،
والذى استوت عليه سفينة نوح فيما يعتقد مسيحيو تلك البلاد ، موجود غير
بعيد من مدينة أريفان أو اروان . ولكن المسلمين يرون أن استواء

الملك ثم فى موضع آخر • يقول ده هرسلوه : « رأى الشائع بين الشرقيين هو أن فلك نوح استوت على جبل الجودى (Gioudi) وهو أحد قمم جبل طوروس أو جورديوس ببلاد أرمينية ، ويؤيد هذه الرواية بتلك البلاد كثير من كتب التاريخ التى تقترب كثيرا من الأسطورة • يقول ابن حوقل أن الجودى جبل قرب نصيبين • ويقال أن فلك نوح (عايه السلام) ، استوت على قمة هذا الجبل • ترجمة أوستلى ص ٦٠ • يلاحظ المأجور رنل أن الجودى جزء من جبال الكردوش ، التى تقع قبالة جزيرة ابن عمر ، وأن الدراويش يحتفظون بنار مشتعلة هناك ، تكريما لنوح وفلكه •

(٩) ويلحظ موسى الخوارزمي فى كتابه « صورة الأرض » هذه الخصوبة للأرض المجاورة للجبال فيقول :

Habet antem Araratia montes atque omnem foecunditatem .

انظر : Geographia ص ٣٦١ •

(١٠) أن ينابيع البترول أو الزيت الأرضى (أو الصخرى) ، توجد بأصقاع كثيرة من العالم • والنبع أو العين التى يدور حولها الحديث هنا هى نبع باكو فى شرفان على ساحل بحر قزوين • يقول جون كارترايت ، فيما يسمى (Freacher's Travels) برحلات الواعظ : يقع بالقرب من هذا المكان ينبوع عجيب ومدمش جدا تحت الأرض ، تسبع منه وتخرج كمية مدهشة من الزيت الأسود ، تشعله جميع أجزاء فارس فى بيوتها وهم يحملونه عادة فى جميع أرجاء البلاد على ظهور البقر والحمير ، التى كثيرا ما نلتقى بها فى أسراب مجتمعة عدتها ثلاثمائة أو أربعمائة • انظر Oxford Coll. of Voyages مج ١ (ف ٧) ص ٧٣١ • ويتحدث استراهلندرج عن هذا النبع على أنه نبع نبط أبيض (Naphtha) ويميز بينه وبين النوع الأسود من البيقومين (القار) ، على أن أحسن بيان عن كل من النفط الأبيض والأسود بتلك الناحية هو الذى يقدمه كاسميفر فى كتابه Amoenitates Exoticae ص ٢٧٤ - ٨١ •

● هوامش الفصل الخامس

(١) يقصد بزورزانيا مملكة الكرج أو جورجيا ، التي تتأخم ارمينية تماما وكانت عاصمتها هي تفليس ، وابدال الجيم المعطشة « زايا » من خصائص اللهجة البندقية القديمة ، وهي اللهجة التي من المفهوم ان النسخة الأصلية لعمل مؤلفنا كتبت بها ، كما ان طريقة الهجاء بقيت محتفظا بها في بعض الترجمات اللاتينية وكذا الايطالية العامة . والذي ورد في النص اللاتيني المبكر هو جورجيا (بالجيم المعطشة) .

(٢) كثيرا ما يرد اسم دافيد أو دافيت (داود) بين قوائم الملوك الذين حكموا في جورجيا ، اذ ان ميل هؤلاء الناس الى ذلك الاسم ، يمتد في أعماق التاريخ آمادا بعيدة جدا . فليس عجيبا اذن ان يظن رحالة ان أسماء ملوك الكرج هي داود على الدوام . ويدل لقب « ملك » ان معلومات مؤلفنا مستقاة من العرب أو المغول الذين من الطبيعي أن يتبدلوا منه اللقب الوطني مبيه Mepe .

(٣) كان بحر قزوين ، الذي يطلق عليه كتاب الشرق اسم بحر الخزر ، يسمى أيضا عند الفرس بحر باكوا ، وبهذا الاسم نفسه (Mardi Bachan) يبدو في الخرائط جميعا حتى إحدى طبقات بطليموس الجغرافي التي طبعت بالبندقية في ١٥٦٢ . وهو يستمد تلك التسمية من مدينة وميناء باكوا الشهير الواقعة عند ساحله الجنوبي الغربي .

(٤) يشبر هذا الى فتح فارس وتخريبها التام بجيوش جنكيز خان ، قرب عام ١٢٢١ . فأما الجزر ، التي لا يستبعد أن عددا من السكان !لتعساء فروا اليها التماسا للسلامة ، فانها خالية من السكان في الزمن الحاضر ، أو لا يرتادها الا صائدو الأسماك دون غيرهم .

(٥) كانت مصايد الأسماك في بحر قزوين ، وبخاصة حول مصبات الفولجا ، باللغة الأهمية في جميع الأعصر . يقول البروفسور هـ . بروس : « يعد الحفش ، بين الأضرب الوفيرة العدد من الأسماك ، التي يمتلئ بها ذلك النهر ، من الأنواع الجسيمة الوفرة حقا ، ويبيخه

(أو بطارخه) بعطينا ما يسميه الروس إيكارى ونسميه نحن كافيار ، وكذلك البلوجا ، أو الدلفين الأبيض (وهو ضرب أبيض من الحفش الرئيسى) فإنه أيضا يستحق أن يذكر ، وكل واحدة منها تتراوح بين خمسة أو ستة أقدام فى الطول ، كما أن سمكها وتخافتها ضخمة بنفس النسبة . فضلا عن هذين الصنفين ، يصاد منه أيضا سمك الأوسوترين (urpos) وهو سمك آخر بالغ الضخامة ، شديد السمونة واللذة . ويحذر ذلك النهر أيضا بالسلمون ، والحفش أو الاسترلتز ، وهو لذيذ للغاية ، وذلك فضلا عن أنواع أخرى لا حصر لها قد يكون فى ذكرها أملا . انظر (Memoirs) ص ٢٣٦ . وتستوعى البلوجا نظير استرالهارج كذلك حيث يصفها بأنها « أضخم سمكة نهريّة فى العالم يمكن أكلها ، ويذكر أنه شاهد واحدة طولها ستة وخمسة عشر قدما محيطها ثمانية عشر » . ص ٢٣٧ .

(٦) يقتصر الرحالة المحدثون على مجرد تعداد شجيرة البقس من المنتجات النباتية للبلاد ، دون إشارة الى غلبة انتشارها ، ولكن امبروجو كانتارنيو ، الذى قام بأسفاره فى القرن الخامس عشر ، لاحظها ملاحظة خاصة أكثر « Eva indetta pirura » حيث نقل عن منجر : « di molti arbori in medo di bussi, ma motto maggiori » ص ١٢ ، ٦٥ .

(٧) يمكن أن يفهم من هذه الرواية التاريخية المدعاة أنهم كانوا يعتبرون أو يتظاهرون بأنهم يعتبرون فرعا من الأسرة الامبراطورية بالقسطنطينية ، التى كانت تضع النسر الرومانى بين شعاراتها .

(٨) ذلك هو الممر المشهور الممتد بين سفح جبل القوقاز (كاوكاسوس) وبحر قزوين ، الذى تقوم فيه مدينة ريند الصغيرة والحصينة أيضا ، التى يسميها العرب « باب الأبواب » ويسميها الترك « Demi Capi » أى باب الحديد . ويسميها الفرس « درياقد » ، أى « الحاجز » بين جورجيا وبين ولاية شيروان الفارسية يقسول الأروفسور هـ . بزوس : « أن الأهالى بعامة يعتقدون أن مدينة دريند بناها الاسكندر الأكبر ، وأن السور الطويل الذى كان يمتد الى البوكسين (الأسود) إنما بنى بأمره لمنع أغارات الاسكيزيين على فارس » . - انظر Memoirs ص ٢٨٤ . ويقال أن السور رُممه يزجرد الثانى من الأسرة الساسانية ، وقد حكم قرب منتصف القرن الخامس ، كما رُممه أنوشروان ، من نفس الأسرة ، وهو الذى توفى فى ٥٧٩ م .

(٩) أن الملاحظات التى لدينا توجه عام عن الشعب المسمى بالكرمانى أو الكومانيين أنها هى ملحوظات غامضة ومبهمة . على

انه يبدو مع ذلك أنهم كانوا فى أثناء القرن الثالث عشر هم سكان الأقاليم التى تقع على الجانب الشمالى الغربى من بحر فزوين ، ونستد من الفولجا نحو اليوكسين وقد أخضعهم فيما بعد وحمل محلهم فى أرضهم التتر القيشاقى . يقول جيون : « ان الكونانيين كانوا قبيلة مترية أو تركمانية عسكرت فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر على حافة مولدافيا . وكان معظمهم من الوثنيين ، ولكن بعضهم كانوا مسلمين ، واعتنقت القبيلة بأكملها المسيحية فى (١٢٧٠ للميلاد) على يد لويش ملك هنغاريا (المجر) » .

(١٠) اشتهرت بعض ولايات جورجيا وأرمينية وما جاورهما من أجزاء فارس ، فى كل العصور ، بتربية دودة القز والاتجار فى الحرير .

(١١) لست أدرى أى أنواع النسور هو المقصود هنا ، ولا نحن نستطيع ان نتأكد من صحة هجاء كلمة أفيجى . على ان شهرة الاقليم بطيور من هذا الصنف ، شىء يبدو من كتابات كثير من الرحالة . فعندما وصل شارديان الى منجربليا ، وجد ان الضرورة تحتم عليه مخادعة الترك ، بادعائه انه تاجر ، غرضه من زيارة البلاد هو الحصول على الطيور الكاسرة ليبيعه فى السوق الأوربية .

(١٢) لم أتمكن من العثور داخل حدود جورجيا ذاتها ، على هذه البحيرة الملحة الكبيرة المسماة جيلوتشالات . ولكن يقف على جزيرة فى البحيرة الواقعة قرب أريفان ، ويسمىها دافيل باسم غوق شا أى الماء الأزرق ، دير عتيق جداً ينبئنا شارديان بأنه أنشئ قبل زمانه يستمته عام ، أى فى القرن الحادى عشر ، ولابد تبعاً لذلك ان يكون موجوداً فى أيام مؤلفنا ، ولكن مياهها توصف - من جهة أخرى - بأنها عذبة وحلوة ، كما انها تفصلها عن جورجيا سلسلة من الجبال . وهناك اسباب أقوى تدعو الى الظن بأنها هى البحيرة المسماة الآن فان أو وان ، وكانت تسمى أرجش فيما مضى ، وان كانت بحيرة فان هذه تقع أبعد من ذلك فى داخل حدود أرمينية . وكانت تقع الى جوارها مدينة أوتيت بعض الشهرة تسمى خلط وأخلط . ويصف أبو الفداء محيطها بأنه يستغرق مسيرة أربعة أيام ، ويقول انها تشتهر بنوع خاص من السمك يسمى الشرتاج ، الذى يقال انه يشابه الرنجة .

(١٣) يطلق العرب والترك اسم أيتول على نهر الفولجا ، وقد حُرف هنا الى هرديل . وهذا النهر يأتى ، حسبما يروى ابن حوقل ، من بلاد الروس والبلغار ، ويقال انه يصبح فى الفصل الذى تتجمع فيه مياهه ، أعظم من نهر جيحون حيث يندفع الى البحر زائحاً فياضاً

حتى ليبدو كأنهما يعزو مياه فزوين . انظر ترجمة اوسلى ص ١٨٥ . ص ٧ - على ان أسماء ، جيحسون او اوكسسوس ، (او هاورازيا) وكور و كروس ، وراز و اراكسس ، لا تحتاج الى تعليق خاص .

(١٤) نظرا لأن ولاية غلان (التى تسمى أيضا الغيل) ، على بحر فزوين ، تسهر بتجاريتها فى الحرير ، فاننا لا نكاد نشك فى ان هذه الكتمة « النلى » انما هى اسم اطلق على السلعة لهذا السبب . وذلك شأن الفلوريتين وهو ضرب من الحرير حيث استقى او يمكن ان يفرض انه استقى اسمه من فلورنسا . ويذكر نيبور حرير غيلان الأحمر ، كما ان المفنستون ان يتحدث عن تجارة كابول مع فارس يقول : « ان الواردات من حرير غليون ورشت الخام ، والانسجة الحريرية المصنوعة فى يزد وكاشون » ص ٢٩٥ .

(١٥) عن بيان خاص عن مدينة تفليس ، عاصمة جورجيا ، انظر شاردان ، ص ٢٢٠ ع ٠ مع اللوحة . على ان طريق مؤلفنا من تبريز الى ترابيزون لم يحمله الى هذه المدينة ، وهناك أسباب تدعو الى استنتاج ان القدر القليل الذى يقوله عنها مستقى عن آخرين .

(١٦) كانت هذه المدينة فى زمن شاردان تحوى أربع عشرة كنيسة ، منها ست تابعة للمسيحيين الكرجيين ، وثمان للأرمنيين . ونظرا لأنها كانت خاضعة آنذاك للحكم الفارسى ، فقد بذلت محاولات كثيرة لتشييد المساجد بها ولكنها اخفقت جميعا ، حيث لم يفت السكان مرة واحدة ان يهدموا المبنى .

(١٧) ينبغى ان يفهم هنا ان المقصود بملك التتار (المغول) هو سليل هولاكو ، الذى كان يحكم فارس والأقاليم المجاورة ، - وليس المقصود هو الخان الأعظم .

٣ سوامش الفصل السادس

(١) تقع مدينة الموصل (بضم الميم) أو الموصل بفتح الميم وسكون الواو طبقا للمنطق العربي ، وكانت فيما مضى عاصمة أرض الجزيرة وهى الآن فى الولاية (الباشاليك) التركية التى تحمل اسمها ، على الضفة اليمنى أو الغربية لنهر سجلة ، تلقاء الموقع القديم لنينوى البائدة ، التى تتصل بها بجسر من الزوارق • ويصفها أبو الفداء وجميع الجغرافيين الشرقيين بأنها من أهم وأميز المدن الواقعة تحت الحكم الاسلامى • ومع ان مؤلفنا يدعوها بالولاية فقد يتبادر الى الذهن انه انما يصفها على الأغلب باعتبارها مدينة ، ولكن المنطقة ذاتها يسميها العرب ديار الموصل وديار الجزيرة أيضا •

(٢) معظم السكان فى هذه الأيام من العرب ، كما ان العربية هى وسيلة التفاهم بعامة بين الأهالى ، مهما يكن اصل قوميتهم أو ديارتهم •

(٣) لا شك أن هذه الكلمة ، التى كتبت فى بعض النسخ جاكوليش ، انما تعد مثالا صارخا على درجة التحريف التى تعرض لها نص مؤلفنا لسوء الحظ ، اذ أنها ليست سوى لقب « كاثولييكوس » أو الجاثاليق الذى يعرف به بطارقة الكنيسة اليونانية فى جورجيا وأرمينية • ولم أستطع التحقق من مدى استداد دائرة سلطاتهم ، ولكن علينا أن نفترض انها تضم جميع المجتمعات التابعة لنفس الملة حيثما حلت • ويشير شاردان الى جاثاليق جورجيا أو بطريقها ، الذى كان فى الوقت نفسه شقيقا لأمير البلاد المسلم •

« Mussolo e mussolino, sorta di tela bambagina, così detta dal nome del paese dove per lo più si fabbrica ».

(٤) هنا يتم بطريقة مرضية ايضا ح الأصل فى لفظة « المسلمين » فى اللغة الفرنسية وفى الايطالية (التى منها اقتبست الالفاظ الأخرى) •

على أن مؤلفنا ، ان لم يسيء ناشروه عرض ما قصد اليه من معنى • يضم تحت تلك التسمية سلعا تختلف طبيعتها اختلافا بعيدا عن المعنى الذى نطلق عليه ذلك الاسم • على أنه ليس من المستبعد أن مدينة الموصل ، وكانت فى ذلك الوقت من أكبر مستودعات التجارة الشرقية ، كما كانت فى حد ذاتها مستقرا لصناعة ضخمة ، وربما

المتوسط ، وان جرى فى عهود تالبة ان كلمة المسلمين كانت تطلق بوجه اضيف اسمها على منتجات كثيرة للنول وتحمل من هناك الى البحر تاطع على السيج الهندي الذائع الصيت او على تقليداته • وعندهما يجبرنا اعز فى بيانه عن رحلته ان : « صناعة هذه المدينة هى المسلمين (او الموصلى) ، (وهو قماش من القطن) ، يصنعونه شديد المتانة بالمع العومة ويبيعهونه للأسواق الأوربية وغيرها ، « فان من الجلى انه لا يصف قماشاً له ذلك القوام الرقيق أو التفيف الذى نسميه بالموسلين ، واما هو يصف على الأصح ذلك النسيج الذى حصل عندنا على اسم الكاليكو (أى البقعة او الذبلان على اسم مدينة فاليقوت بالهند (الشرقية) •

(٥) ان كردستان ، التى كانت تؤلف الجزء الشمالى من بلاد آشور القديمة ، منطقة جبلية تقع الى الشرق من نهر دجلة وراء اقاليم الموصل ونصيبين وماردين مباشرة وتتكلم أغلبية السكان بلهجة فارسية محرفة ، وان ماثلوا فى عاداتهم وأحوالهم البدو الأعراب ، كما يشبهونهم فى ممارسة سلب القوافل التى ليست لها حراسة كافية • وينعتهم كارترايت بأنهم « شعب لص سراق الى أقصى حد » ، وتتفق جميع بيانات كل من أعقبه من الرحالة فى وصفهم بأنهم نهابون محترفون ، وهو وضع لجمعهم ينجم عن موقعهم المحلى ، وذلك نظراً لأنه منطقة جبلية لا بد للرحالة بالضرورة من اختراقها فى عبورهم من اقليم غنى الى آخر • ويبدو أن أهم السلع التجارية بتلك البلاد هى المعفصة الجوزية gall-nuus ، (النائنة على شجر البلوط) • والقطن ونوع من الحرير يسمى كاس أوقز يصفه نيبور بأنه ينمو على الأشجار • (انظر ص ٢٦٨ Voyage, tom II ٧ •

(٦) عن بيان عن ساردين ، وهى مدينة بأرض الجزيرة ، بتاحية ديار ربيعة ، انظر رحلة نيبور • وهو يتحدث عن صناعات الكتان والقطن بها • فأما موش (بالشين المثلثة) ، فمدينة على حدود كردستان وأرمينية ، بين بدليس والفرات فى الجزء الأعلى من مجراه •

● هوامش الفصل السابع

(١) شيد الخليفة أبو جعفر المنصور ثانی الخلفاء العباسيين مدينة بغداد في قريب من عام ٧٦٥ ، وظلت مستقراً لحكم خلفائه الى يوم وفاة آخر خليفة من تلك الأسرة ، في عام ١٢٥٨ عندما وقعت تحت سلطان المغول .

(٢) هذا النهر هو Tigris الذي يسميه العرب نجلة الذي يصب في نهر الفرات ، وعند ذلك يكتسب مجراها المتحد اسم شط العرب ، ويصبان مياههما في الخليج الفارسي . ومدينة بغداد العصرية تقوم على الضفة الشرقية وتتصل بالضاحية القائمة على الضفة الغربية للنهر بجسر من الزوارق . ولكن توجد في ذلك الجانب أيضا خرائب المباني التي كانت قائمة بالمدينة القديمة مقر حكم الخلفاء . واذن يكون مؤلفنا على صواب حين يصفها بأن النهر يشطرها شطرين في زمانه . ويتحدث عنها أبو الفداء بأنها تشغل جانبي نهر نجلة كليهما .

(٣) ان كيسى أو تشيزى Chisi في التهجة الإيطالية ، جزيرة صغيرة على الجانب الشرقى لخليج فارس وتسمى قيس ، كانت تنقل اليها تجارة سيراف ، وهي ميناء على أرض القارة المجاورة للجزيرة ، ولها شهرة كبيرة عند الجغرافيين الشرقيين ، وكان ذلك النقل راجعاً ، كما هو واضح ، الى الحروب الناشبة بتلك النواحي والكوارث التي يقاسيها التجار . وليست هناك أية آثار تدل على الموقع المضبوط لمدينة سيراف هذه .

(٤) ان بالسار ، والاشيع ان تكتب بلسورا ، ولكن صحتها هي البصرة ، انما هي مدينة ذات أهمية تجارية مهمة ، تقع على الجانب الجنوبي الغربى لشط العرب ، في منتصف المسافة تقريباً بين ملتقى الدجلة والفرات ، والخليج الفارسي . وهي تقع نتيجة لهذا في طريق من يبحرون من بغداد الى جزيرة كيس (كما يلاحظ مؤلفنا) .

(٥) ربما جاز لنا أن نشتبّه في أن يكون المقصود بدلا من كلمة

« Tappeti » أي القطيفة هو كلمة Velluti أي البسط والسجاجيد،
وهي أشياء اشتهرت فارس بصناعتها على الدوام . أما فيما يتعلق
بصور الحيوانات فإن مسلمي الشيعة لم يظهروا نحوها - مثلما عرف
عن أهل السنة - ، أي تشدد في تحريم تمثيل الحيوان والطيور بالصور
في أعمالهم الزخرفية .

● هوامش الفصل الثامن

(١) تولى المستعصم بالله ، آخر خلفاء بني العباس ، مقاليد الحكم في ١٢٤٢ ، وأعدم في ١٢٥٨ . كان أميراً ضعيفاً كسولاً فاسقاً ، كما أنه كان شحيحاً كذلك ، أهمل شئون الحكم ، وتركها في يدي وزير شرير ، انتهى به الأمر إلى أن خانته وأسلمه إلى عدوه اللدود .

(٢) ورد هذا التاريخ في النسخة اللاتينية القديمة . على أن مارسدن يرى أنه ١٢٥٠ ، ولكنه يضيف أنه طبقاً لما أورده أصح المؤرخين الشرقيين رواية ، فإن هولاكو لم يكن حتى سنة ١٢٥٥ (ويسميه هايتون هاؤلانوس أو هاؤلر ، ويدعوه البروفسور جويل هولايو ، ومؤلفنا أولاءو) قد عبر نهراً بعد نهر جيحون (آموداربا) (OXUS) وفي ١٢٥٦ طالب المستعصم بمساعدته في القضاء على الاسماعيلية ، وفي ١٢٥٨ استولى على بغداد . وأن البروفسور جويل ليعمد ، استناداً إلى الحوليات الصينية ، إلى أرجاع تلك الحادثة إلى ١٢٥٧ .

(٣) ان هذه المعجزة المدعاة مفصلة هنا تفصيلاً أدق منها في الترجمات الأخرى كما أن النسخة اللاتينية تذكر أنها حدثت في توريس (تبريز) ، وليس في بغداد وأن لم يستقم ذلك مع حضور الخليفة . (والنسخة اللاتينية القديمة تذكر أنها حدثت في ١٢٧٥ ، « بين بلدان » والموصل ، « وتتفق معها النسخة الفرنسية ») .

● هوامش الفصل التاسع

(١) تقع مدينة توريس التي ينطق اسمها الفرس ويقرهم من الشرقيين « تبريز » ، في ولاية أزنجان التي تتاخم ولاية الجبل أو العراق الفارسي ، وكانت تشكل معها مملكة الميديين القديمة . وظلت على امتداد العصور مركزا ذا أهمية كبيرة . وعندما غزا المغول فارس قرب عام ١٢٥٥ ، أصبحت المقر الرئيسي للهولاكو وسلالته حتى يوم انشاء مدينة السلطانية ، عن بداية القرن الرابع عشر .

(٢) ليست كريميسور التي تكتب أحيانا كريموسور أو كورموزا أو كريموز أو كرموز سوى مدينة أرمز أو هرمز الشهيرة التي كان القدماء يسمونها هارموزا ، والواقعة عند مدخل الخليج الفارسي . وسترد مناسبات أخرى للحديث التفصيلي عنها فيما بعد . ان بلاداش كما رأينا آنفا ، هي مدينة بغداد .

(٣) يذكر شاردان سوقا (بازار بالفارسية) معينة (هي « أجمل الأسواق ») تباع فيها الجواهر و سلع أخرى لها قيمة بالغة النفاسة . ويبدو أن اللؤلؤ ، المستخرج من مصايد سيلان والبحرين بخليج فارس جميعا ، كان ينقل أولا إلى بغداد حيث يتم صقله وثقبه ، ثم ينقل منها إلى غيرها من أسواق آسيا وأوربا ، وبخاصة القسطنطينية .

(٤) لابد أن هؤلاء الفرس ، مميزين عن المسلمين ، كانوا السكان الأصليين لبلاد فارس (Farsistan) الذين احتفظوا بدين زرادشت القديم (Zoro) وكانت لهم خصيصة لذلك الدين عبادة النار ، وهم الذين نسميهم (في حالة اغترابهم العصرية عن وطنهم) باسم الفارسيين . وهم يؤلفون في زماننا هذا أغنى وأذكى طبقة من السكان الوطنيين الذين يعيشون تحت الحماية الانجليزية في بمباي .

(٥) يمتدح أبو الفداء حدائقها ، كما أن وفرة فواكهها وتعدد أنواعها استرعت نظر شاردان .

(٦) أى التتار المغوليون ، سادتهم الجدد •

(٧) ينبغي أن يفهم أن المقصود بذلك هو بلاد فارس الأصلية ،
وهى فارستان ، التى كانت مدينة برسيبوليس (اصطخر بالعربية)
عاصمتها القديمة ، مثلما أن سيراز هى العاصمة الجديدة ، ولكن يرجح
أنه يعنى المسافة بين تبريز وكاسبين (قزوین) التى يتحدث عنها فى
الفصل التالى على أنها أول مدينة ترى عند الدخول الى فارس •

● هوامش الفصل العاشر

- (١) لا شك أن هذا القديس هو القديس بارسيمايوس أسقف الرها
(Filius) في القرن الثاني •

● هوامش الفصل الحادى عشر

(١) لا شك ان قصة المجوس هذه ذات اصل شرقى ، وذلك لأنها لا تتفق والأساطير الغربية . والاسم يكتب فى مخطوطات اخرى : كالاساتا برينستا . ومن البين ان فكرة بئر اشعلته نار سماوية مؤسسه على وجود آبار أو كهوف مشتعلة بأجزاء مختلفة من آسيا ، وبخاصة بجوار باكو قرب بحر قزوين ، وعلى ساحل كرمانيا ، حيث تشهدا الكاتن بوفورت . ولكن اسم المكان يقدم للعالم بالدراسات الفارسية اقوى محك للصدق اذ لا بد له ان يدرك ان كلمات كاساتا برينستا ، انما يقصد بها كالات برستان أو ربما كالا اتيش برستان ، ومعناها الحرفى هو « قلعة عبدة النار » . اما اسم سابا أو صبا التى من المحقق انه لا يكتشف بين مدن فارس ، فربما ظن ان له علاقة ما بمبادئ الصابئة والصباية ، وهو المذهب القريب للاتصال بمذاهب الجوبرية أو الجهبورية (وهم البقية الباقية من عبدة النار بفارس) .

● هوامش الفصل الثانى عشر

(١) من المفهوم فى الاستخدام العادى لهذه المصطلحات أن المملكة تتألف من ولايات ، ولكن الذى حدث عند تقسيم الامبراطورية الهائلة التى ورثها أحفاد جنكيز خان ، أن الولاية المعطاة (اقطاعاً) لكل من ابنائه أو أحفاده تشمل ما كان قبل فتوحه ، ممالك مستقلة .

(٢) عند دخول العراق الفارسية من ناحية تبريز ، فإن أول مدينة هلمية هى قزوین (إذ لم تكن السلطانية بنيت بعد) ، وهى مدينة ظلت نى ابناء كثيرة من تاريخها مقراً لحكم الملوك . ان مؤلفنا فى تعداد هذه الممالك التمانى يلجأ أحياناً الى ايراد اسم العاصمة ، كما فى هذه الحالة ، ويورد فى أحيان أخرى اسم الولاية أو الناحية كما هو الشأن فى الحالات التى تتبع ذلك مباشرة . ويبدو أنه دون الأسماء أو أملاها حسبما طرأت على ذاكرته ، يغير نظام ثابت وبأقل اهتمام بالترتيب .

(٣) ما كان ينبغى لنا أن نتوقع ان نجد بلاد كردستان ، التى كانت تابعة لآشور القديمة ، تذكر على أنها أحد الأجزاء المؤلفة لمملكة فارس ، وان حدث فى آناء عدة أن كثيراً من أجزائها كان يخضع لتلك المملكة . ولا هى حتى ، لو ضمت ، يمكن أن يقال أنها تقع فى الجنوب . وربما امكن مع ذلك الذهاب الى أن الناحية المقصودة هى خوزستان (وكثيراً ما تكتب خورستان) وهى سوسيانا القديمة ، التى تقع عند رأس الخليج الفارسى ، فهى تبعا لذلك فى جنوب قزوین ، وليس كردستان التى تقع فى الغرب . انظر أبو الفداء فى « تقويم البلدان » .

(٤) اذا كان المقصود من كردستان هو خورستان ، فالأحرى أن يمكن أن يقال أن لور أو لير تقع فى شمالها وان كانت بالنسبة لقزوین وفارس بوجه عام ، اقلباً جنوبياً . يقول ده هريبلو : « ينبغى عدم الخلط بين اقليم لور واقليم لار أو لارستان التى تمتد على طول الخليج الفارسى . فأما اقليم لور فهو جبلى ، وكان يتبع فى الزمان الماضى الولاية المسماة خوزستان وهى سوسيانا القديمة ، « Biblioth. Orient . » .

(٥) من العسير علينا تكوين أية فكرة ظنية عن سولستان ، ولكن عثورنا على الاسم فى ترجمات أخرى ، مكتوباً سيلستان أو سيلستان

وفى الخلاصة الإيطالية القديمة سيبيستان ، لا يجعل عندى أقل شك
فى ان المقصود بها هو سيجستان ، التى تكتب أيضا سيستان ، وهى
ولاية تقع فى الجهة الشرقية من فارس

(٦) ان مدينة أصبان أو أصبهان ، التى يسميها العرب أصفهان ،
التي تقع فى الجزء الجنوبي من العراق الفارسي ، معروفة بأنها العاصمة
الفاخرة للوك الأسرة الصفوية التى فاقت إبان حكم الشاه عباس الثانى
فى الأبهة وسعة الرقعة معظم المدن الآسيوية . وقعت فى قبضة المغول
فى ١٢٢١ ، ثم استولى عليها تيمور لك فى ١٣٨٧ وانتهبها ودمرها
بقربا .

(٧) ان شيران عاصمة ولاية فارس نفسها وكذلك أيضا عاصمة
الامبراطورية الفارسية كلها فى بعض الفترات . معروفة هى الأخرى
تماما ، عن طريق أوصاف الرحالة لها ، بحيث لم يعد من الضروري
ان يقال فيها هنا أكثر من انها تجيء فى المرتبة الثانية بعد أصفهان
بين المدن الملكية .

(٨) لقي هذا الاسم تحريفا كثيرا ، فهو سونكارا فى نسخة
راموسيو ، وسوخام فى طبعة بال ، وسنقارا فى اللاتينية الأبركر ،
وكونكارا فى مخطوطة المتحف البريطاني ، وسونكارا (طبقا لرأى
مرار) فى مخطوطة برلين ، وكوركاتا فى الخلاصات الإيطالية ،
وكورتشارا فى الترجمة الإنجليزية القديمة ، وليس فى الواقع الاقربان
أو جورقان الذى أورده الجغرافيون الشرقيون ، كما انه واضح الارتباط
بمدينة هيركانيا عند الأقدمين . وموقعها عند النهاية الجنوبية الشرقية
لبحر قزوين ، الى الشمال من سلسلة جبال دمنغان وولاية قوميس أو
كوميسين .

(٩) مهما تباعد التشابه بين الأسماء فان تيموكاين (التى وردت
تيموتشايم فى نسخة بال تيمانشايم فى الطبعة اللاتينية الأقدم) فان
المقصود منها هو دمنغان بغير شك ، عاصمة ولاية قوميس الصغيرة ،
فى الناحية الشمالية الشرقية من فارس . على أن جوزافات بريارو ،
سفير البندقية لدى ذلك البلاط ، يسميها تريميجيان ، كما يسميها مواطننا
توماس هربرت ديورجومنت . على أننا نكتشف أن هذا التحريف ليس
صادرا عنه ، وذلك لأن بيترو ولافالى فى إحدى رسائله ، يشكو من
هذا الانتهاك وضعف التأكد اللذين يبدوان فى أسماء الأماكن :
« Come per esempio, quel Diargument, che l'Epitome Geographica
dice esser nome moderno de l'Hircania ».

(١٠) سبقت الإشارة الى الناحية التي أطلق عليها الشجرة الجافة . وسيعود ذكرها بتفصيل أكثر في فصل تال *

(١١) لا شك ان امتياز نوع الخيول الفارسية ، الذي لعلها تدين به الى التهجين بين السلالتين العربية والتركية ، معروف مشهور * وقد كتب شاردان بيانا تفصيليا عن صفاتها الممتازة (المجلد ٢ ف ٨ ص ٢٥ . س ٤ ، كما كتب في ذلك مالمكولم في Hist of Persia ص ٢٢ ص ١٦٦) * ولا كان الجنيه الترونواي أو الليرة (نسبة الى تور (numuds) كانت له في القرن الرابع عشر قيمة نسبية تعادل ٢٥ الى ليرة واحدة من ليرات العصر الحاضر ، فانه يترتب على ذلك أن السعر الذي كان يباع به الحصان الفارسي ببلاذ الهند كان يتراوح بين ألف وخمسمائة روبية الى ألفين *

(١٢) سبق ان اوضحنا ان كيسى او تسيوى هذه انما هي جزيرة قيس التي كانت تنقل اليها تجارة سيراف في داخل الخليج الفارسي * اما ميناء هرمز الشهيرة ، فسنحدث عنها في مذاسبة أخرى فيما بعد *

(١٣) المقصود بالتتار الشرقيين ، هو التتار المغول ، الذين دخلوا فارس من الجانب الشرقى لبحر قزوين *

(١٤) ان (الجروسي) الايطالى أو الجروت كانت عملة فضية صغيرة ، اختلفت وزنا وقيمة باختلاف الأزمان *

(١٥) يقول شاردان : « لن اتكلم مطلقا عن الجمال المطلق لنوع من النسيج مصنوع من الحرير الخالص ولا عن أقمشة الحرير المخلوط بالقطن .. إذ لن اتكلم الا عما ينتجون من ديباج مقصب (Bumm) وهم يسمونه الديباج الابريزى (Perdrix) ، أى المغزول بالمقصب .. وليس ثمة نسيج بهذا السعر الفادح بكل أرجاء العالم » * (مج ٢ ص ٨٦ ، ٤ من فوق) وحين يتحدث بونتجر عن صناعات قاشان يقول : « ان السلع الرئيسية بها هي المصنوعات النحاسية ، والبسط ، والحرائم الملونة والمنقوشة بالزهور ، والآخرية منها بديعة الجمال * وقد شربت بعضا منها مصنوعا في مفاديل عنق (ايشارب) ، وهي تصنع على غرار اثمن شيان الكشمير » * انظر : (Trav. in Beloochistan) ص ٢٤٤ *

(١٦) يزرع القمح بولايات فارس الشمالية ، كما يزرع بالجنوبية كذلك ، وان بدرجة أقل * يقول مالمكولم : « ان الشعير كثيرا ما يباع

فى فارس بفارزنج واحد للرطل ، كما ان العمح فى المتوسط لا يزيد عن
 تمن الشعير الا بمقدار الثلث » . انظر . History of Persia مج ٢ ،
 ص ٥١٩

(١٧) ان طريقة اغلاء الخمر شائعة بين الشعوب الشرقية ، ولكن
 يجوز لنا ان نرتاب متردين بين التعليين : فهل الدافع المسمى
 ههنا هو الدافع الحقيقى أم أنه لا ينبغى لنا بعبارة أخرى أن نستنتج
 أنهم كانوا يفضلون طعمها بعد الاغلاء . وقد ظل الفرس على الدوام
 أقل تدقبقا من المسلمين السنيين الآخرين ، فيما يتعلق بمعاقرة بنت
 الحان . ويذكر ببيرو دلالاالى مرسومين للشاه عباس : أحدهما يحرم
 احتساءها ، وهو أمر يدل على أن تلك السنة الدينية قد أخفقت دون
 القيام بمفعولها ، ويلغى الثانى قرار التحريم ، وذلك عندما اكتشف
 ان الناس وخاصة الجند منهم استبدلوا بالخمر تركيبا سائلا من
 الأفيون أضر بصحتهم .

● هوامش الفصل الثالث عشر

(١) ان يزدى هي ابعد مدينة تقع فى أقصى الشرق من ولاية فارس نفسها . ويصفها الكابتن كرسى الذى زارها فى ١٨١٠ بأنها : مدينة بالغة الضخامة مزججة بالسكان ، تقع على حافة صحراء رملية ، تجاور سلسلة جبلية تمتد شرقا وغربا . ثم يستطرد فيقول : « وهى تشتهر عند جميع التجار ، بما يتوفر للمضاربين من حماية ، وما يعم سكانها واملاكهم من امن . وهى السوق العظيمة بين هندوستان حراسان وبغداد وفارس ، كما يقال انها مكان تدور به تجارة اعظم مما فى أى مكان آخر بالامبراطورية الأخيرة » . انظر كتاب : Trav. in Beloochistan التذييل ص ٤٢١ .

(٢) ويلاحظ ده هربيلوه ان : « الاقمشة الحريرية التى يشتعلونها هناك ، والتي يسمونها فى تركيا وفارس باسم « قماش يزدى » يعود عليها بسوق شديدة الرواج » وفى مذكرات عبد الكريم (كشميرى « بنيانى وقائع » توفى ١٧٨٤) ايضا نقرأ عن هدية قدمها نادر شاه الى أحد السفراء ، تتكون من خمس وعشرين قطعة من ديباج يزدى المقصب .

(٣) تسمى هذه عادة باسم صحراء كرمان .

(٤) نقرأ عن حمر وحش تقدم هدايا ، ومن ثم عجائب وتحفا ، الى الشاه عباس ، وغيره من ملوك فارس . ويعلق رنل : « ان حمر الوحش التى استرعت نظر زينوفون بسرعتها ، تحمل نفس الصفة فى الرقت الحاضر . ثم ان تكزيرا فى ١٦٠٦ شاهد قطعانا منها فى الصحراء العربية ، قبالة صحراء الجزيرة مباشرة ، بنفس المنطقة التى شاهدها فيها زينوفون » . انظر Illustrations ص ١٠٠ .

(٥) تقارب المسافة بين يزد وعاصمة كرمان مائة وستين ميلا جغرافيا ، وبذلك تكون السرعة حوالى عشرين ميلا فى اليوم . بيد أن معدل سرعة السفر لقيروان (قافلة) خفيف ، كما استنبطه المايجور رنل ، اما هو فقط خمسة عشر ميلا الى خمسة عشر ونصف بالجمال أو سبعة عشر الى ثمانية عشر بالهغال ، وذلك فى الرحلات الطويلة . وربما أمكن حقا أن يفهم أن الصحراء وحدها ، باستثناء بعض أجزاء من الأرض المزروعة ، كانت تستغرق ثمانية أيام . وتذكر بعض المخطوطات انها سبعة أيام .

● هوامش الفصل الرابع عشر

(١) ان كرمان ولاية فارسية ، تقع على الطرف الجنوبي الشرقي من تلك المملكة . ويبدو أن قصرتها تحمل نفس الاسم كجاري العادة المألوفة ولكنها تعرف أيضا باسم سرجان ، كما ينطقها الفرس أو سرجان كما ينطقها العرب . « تقع مدينة كرمان » ، فيما يقول بوتنجر ، « على الجانب الغربي لسهل منبسط رحيب ، شديد اللصوق بالجبال ، بحيث ان اثنين منهما تقوم عليهما حطام حصون قديمة بالية ، يتحكما فيه تحكما تاما . وكانت في يوم من الأيام أشد مدن فارس ازدهارا ، كما انها لا تفوقها في سعة الرقعة الا العصمة اصفهان وحدها . ولم تتعرض مدينة في الشرق لتقلبات الحظ أكثر من كرمان ، ولا كانت مثلها مشهدةا لكثير من أشد الحروب تدميرا ، داخلية كانت أم أجنبية » . ص ٢٢٢ ، ويبدو أن مؤلفنا لم يكن يعد كرمان ، في زمانه ، جزءا مكملًا لفارس ، وذلك استنتاجا من عدم ادخاله اياها بين ممالك فارس وولاياتها الثماني التي عددها . ونظر اليها الانديسي أيضا في هذا الضوء في القرن الثاني عشر فهو يقول : « تقع بلاد كرمان بين بلاد فارس وبلاد مكران » . ص ١٢٩ (من الطبعة الطليانية من « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ») .

(٢) يقول شاردان : « ان اغنى مناجم فارس هو منجم الفيروز . وهم يحصلون عليه من مكانين ، أولهما نيسابور في كاراسون ، وثانيهما في جبل محصور بين هرkania وبارثيد ، على مسيرة أربعة أيام من بحر قزوين ويسمى فيرونكو » . مج ٢ ص ٢٤ ، ٤ . ويقول مالكو اسم متحدثا عن نيسابور : « يوجد حجر الفيروز بهذه الجبال » . انظر (Hist. of Aleppo) مج ٢ ص ٢٢٠ هـ .

(٣) يقول شاردان : « توجد مناجم الحديد في هرkania وفي ميديا الشمالية وفي اقليم البارسييس (الفارسييس) وفي اقليم باكتريا . وتوجد مناجم الصلب بنفس البلاد ، وتنتج مقادير كبيرة » . ص ٢٣٠ وعندئذ أخذ شاردان يصف ميزات الخاصة ، ويقارنه بصلب بلاد الهند .

(٤) لم نعثر في أي قاموس على كلمة « اندانيكو » الواردة في نسخة راموسيو ، ولا « اندانيكوم » في طبعة بال ، كما ان أحدا من المترجمين السابقين لم يحاول تأدية الكلمة بأي مصطلح يقابلها ، وانما

تركوها كما وجدوها فى نسختهم • وما كنت ، اعتمادا على أن تشابه فى صوت الكلمة ، لأتجاسر على احتمال الظن بأن المقصود منها هو « الانتيمونيوم » (المعدن المعروف بالآثمد) ، ولكنى وقد علمت من « رحلات شاردان » أن فلز الانتيمون إنما هو أحد منتجات الأقطار الواقعة فى الجانب الشرقى من فارس ، التى يتكلم مؤلفنا عنها هنا ، - اعتبر أن احتمال حدوث تحريف كهذا له بعض الوزن •

(٥) يقول بوتنجر : « قرأت فى تاريخ مخطوط عن فتح مكران ، فى السنة التسعين للهجرة ، أن كرمان كانت آنذاك مدينة شديدة الاتساع مليئة بالثروات وقد ذاعت شهرتها بروعة ما ينتج من شيلان وأسلة » ويقول أيضا أن تجارة كرمان ، وإن كانت لا تزال ضخمة لم تنتعش قط بدرجة يمكن مقارنتها بما كانت عليه قبل الاقصاء الأخيرة لسكانها • وتشتهر صناعات الشيلان فيها وفتيل اشعال البنادق ، والجوخ (Numuds) بكل أرجاء آسيا ، كما يقال إنها تبيع فرصا للعمل أمام ما يقارب ثلث السكان ، ذكورا كانوا أم إناثا •

(٦) يقول شاردان : « أن حجل (Perdrix) فارس هى ، فيما اعتقد أضخم حجل فى العالم كما أنها من حيث الطعم اللذهن جميعا » •

(٧) كان الطريق من كرمان الى الخليج الفارسى ، الوارد وصفه هنا ، يخترق فى الراجح مدينة بام أو بوم (Bumm) ، التى تقوم قرب الحد الفاصل بين ما بعد المنطقة الباردة والمنطقة الحارة بكرمان • يقول بوتنجر : « أن مقاطعة نورمانشير ، تمتد من منطقة اليباب التى تفصلها عن بلوخستان الى مدينة بوم • • • وحدها غربا هو مقاطعة كرمان ، التى تعد الآن فيما اعتقد جزءا منها ، وحدها الشرقى هو الصحراء ، كما أسلفنا اليك ، وإلى الشمال والجنوب سلسلتان من الجبال ، الأخيرة منهما أعلى كثيرا من الأولى ، ويخيل الى أنها مكللة بالثلوج فى كل الفصول ، شأنها عندما شاهدتها ، وكان ذلك فى وقت اشتد فيه القيظ فى السهل الممتد أسفلها » ويبدو أن هذه هى جبال مارن التى يقول ابن حوقل : « أنها تابعة للمنطقة الباردة من كرمان ، ويتساقط الثلج عليها » ،

● هوامش الفصل الخامس عشر

(١) ان معرفتنا بجغرافية المنطقة الممتدة بين قصبة ولاية كرمان والخليج الفارسي باللغة الضعف والنقصان ، بل انه حتى خريطة بوتنجر ، وهى أحدث ما نمتلك ، لا يظهر فيها الا اسم واحد منعزل فى تلك البقعة ، وان رصدت فيها سلاسل فى مظهر ينبىء بالدقة . ومن ثم فمن العسير تحديد المكان المقصود بكاماندو وهى فى مخطوطتى المتحف البريطانى ومتحف برلين كاماندى ، وفى الخلاصات الايطالية (ادجاماد) ، ولو وجدت دواع للاعتقاد بأن هذه المدينة التى فقدت اهميتها قبل زمان مؤلفنا ، لا تزال فى حيز الوجود . وربما أمكن ان تكون هى ميامون فى خريطة دانفيل ، التى يسميها ابن حوقل « ماهان » ولعلها كومين عند هذا الأخير : على أننا لا نقدم هذه الا على انها مجرد ظنون .

(٢) واضح أن المقصود من ريويارله ، هو رودبار ، وهو مصطلح وصفى ، ويطلق فى حالات عديدة ، على مدن أو نواح بقارس والأقطار المجاورة لها . ومعناه « نهر يجرى فى واد ومجرى أو خور أحد السيول ، وكذلك مكان تجرى فيه جداول كثيرة » ، ولقد يبدو من الظروف التى ين أيدينا ، أن الناحية التى يقال هنا انها تتجاوب وذلك النعت ، هى التى تشغل ضفاف النهر الذى يحمل فى خريطتى دانفيل ومالكولم اسم ديف رود ، ولا بد من عبوره اثناء سلوك الطريق بين كرمان وهرمز .

(٣) ان تفاحة آدم اسم أطلق على الفاكهة المسماة بالأترج أو الليمون الهندى أو الجريب فروت أو ليمون كومانوس فى رأى العالم النباتى السويدى لينايوس . ولكنه ربما قصد به هنا البرتقال نفسه أى *Pomum aurantium* الذى يسميه الفرس والعرب النارنج .

(٤) ربما كان هذا الاعتراض على تناول لحم اليمام ، كراهية محلية . إذ لا يبدو انها تعد لحما نجسا عند المسلمين عامة .

(٥) ان للدراج الفرانكولىنى « *Tetrao francolinus* » الذى يعيش ببلاد المشرق الأدنى ، أرجلا ومنقارا أحمر كما جاء بالوصف أعلاه . ويسميه الدكتور رسل *francolinus olineo* وهو المعروف لدى الفرنسيين باسم (G. Linotte) . وهى يقول ان لحصها لذيق ، ولكن

لا يلتقى المسافرون بذلك الحائز على أقل من مسيرة يوم من المدينة • انظر (Nat. Hist. of Aleppo)

(٦) هذا النوع من الثيران ، الذى يستخدم عادة فى مسورات وأماكن أخرى على الشاطئ الغربى للهند ، فى جر العربات المسماة « بالهاكرى » ، لعله استقدم من هناك الى المقاطعات الشرقية بفارس • وقد وصفه كثير من الكتاب ، كما وصفه بيور من بين أشياء أخرى غيره • انظر - Voyage en Arabie, etc. ، مج ٢ ص ٥٢ الجدول ١٢ •

(٧) تقطن هذه السلالة الممتازة من الغنم واسمها العلمى (Oris Laticandata) ، اجزاء مختلفة من آسيا وأفريقيا ، وكثيرا ما أجرى العلماء والرحالة وصفها • ويورد عنها كتاب : (The Natural) البيان المهم التالى مع لوحة مصورة • يقول رسل : « عندهم نوعان من الغنم فى المنطقة المجاورة لحلب • أحدهما يسمى غنم البدو ، وهو لا يختلف فى أى وجه عن أكبر أنواع الغنم ببريطانيا ، قبا عدا أن ذبولها أطول وأغلظ قليلا ، والنوع الآخر هو الذى يكثر الرحالة من ذكره بسبب ضخامة ذبوله الخارقة ، والصنف الأخير أكثر عددا بكثير من الأول • وهذا الذيل عريض جدا وشديد الضخامة وينتهى بذيل صغير ينقص عليه • ويكون من مادة قوامها وسط بين الشحم والناع ، ولا تؤكل وحدها وإنما تمزج باللحم الأعجم (قليل الدهن) فى كثير من ألوان طعامهم ، كما أنها غالبا ما تستخدم أيضا بدل الزبد • والذبيحة العادية من هذا النوع من الغنم تزن ، بغير الرأس والكوارع والجلد والأحشاء ، حوالى اثنى عشر أو أربعة عشر رطلا حليا (وهو يعادل خمسة أرطال انجليزية) والذبل وحده فيه ثلاثة أرطال أو ما فوقها ، ولكن أفراد أضخم السلالات التى تسمن ، ربما بلغ وزنها أحيانا حوالى ثلاثين رطلا حليا وتزن ذبول (لمة) هذه الأخيرة عشرة حلية (أو ما يعادل خمسين انجليزية) ، وهو أمر لا يكاد يصدق بعض الناس • وهذه الأغنام الشديدة الضخامة التى تحفظ فى المناطق المحيطة بحلب داخل أحواش ، لا تتعرض لخطر الاضرار بذبولها • ولكنها فى أماكن أخرى ، حيث ترمى فى الحقول ، يضطر الرعاة الى تثبيت لوح من الخشب الرقيق فى الجزء السفلى من الذبل لمنع تسلخه على الشجيرات الصغيرة والحسك وغيرها ، كما أن بعضها تتركب له عجلات صغيرة لتسهيل جر ذلك اللوح وراءها • ومن هنا تنشأ مع شئ من المبالغات الخيال ، قصة وجود عربات وراءها لحمل ذبولها • وعلى ذلك فإن اقوال شاردان حول « الأغنام ذات الذبول الضخمة » بفارس والتى يقول أن ذبولها تزن ثلاثين رطلا ، تتفق تماما مع ما ورد أعلاه •

(٨) يكثر همتون من ذكر هذه النحسينات الطينية - فهو يقول :
 « ظهر البلوخستانيون قرب مدينة جومبرون ، فى زحف سريع عليها ،
 اهزح الحاكم (الفارسى) كثيرا حتى انه وان وجد سور طيى مرتفع
 بينه وبينهم ، فانه امتطى جواده ولان بالفرار . وجاء البلوخستانيون
 اولا الى الحى الغربى من المدينة ، الذى يقوم به مصنعنا وسرعان
 ما احدثوا ممرات فى الأسوار الطينية » . انظر : (New Account of the
 East Landie Indies ج ١ ص ١٠٨ .

ويقول بوتنجر . « ان قرية بنبور قرية صغيرة سيئة البناء : وكانت
 محاطة فى يوم من الايام بسور منخفض من الطين ، به بين كل مسافه
 اخرى مواقع محصنة صغيرة . ولكن ذلك كله قد غلب عليه اليوم
 الدمار » . انظر . « Travels in Beloochistan and Sindh » ص ١٧٦ .

(٩) يسميهم النص اللاتينى القديم « اسكارانى ومالاندرينى » .
 ويخيل لنا ان الكراونيين هم سكان مكران ، وهى سقة من الأرض تمتد
 من قرب نهر الاندوس (السند) الى الخليج الفارسى ، ويشق اسمها
 من كلمة « كارانا » ومعناها « الساحل او الشاطئ او التخم » ويبدو
 انهم لا يختلفون الا قليلا عن شعب بلوخستان المجاور ، ان لم يكونوا
 من نفس الجنس . وما يذكره عنهم مؤلفنا هو صورة صادقة لعادات
 السرقة والنهب التى يشتهر بها الأخيرون . ويقول ابن حوقل : « ان
 البلوچ يقيمون بصحراء جل كيفس ، وكيفس فى لغة الفرس (البارسى)
 هى كوجه . وهم يسمون هذين السبعين باسم الكوجيين والبولوجيين .
 والبولوچ قوم يسكنون الصحراء ، وهم يفسدون فى الطرقات ولا
 يحترمون احدا » . لدينا عن عادات هذا الشعب اسد البيانات
 تفصيلا فى دفتر يوميات الملازم بوتنجر الذى يقول : « ان النهارونيين
 Nharooes اسد طبقات البلوچ وحشية وميلا الى السلب . وعلى
 حين تجدهم يعدون السرقة الفردية الخاصة ماسة بالشرف والكرامه
 الى اقصى حد ، فانهم ينظرون الى نهب اغليم والعيث فيه تدميرا وفسادا
 بحساسات مضادة لتلك تماما . بحيث يعدونه مائرة عظيمة تستحق
 اعظم التناء . واذ تقسو قلوبهم بهذا الاحساس قسوة الغولان ، فانهم
 يقومون كاهراد بقصر حكايات المساعدة التى قدموها فى مثل تلك الظروف
 والتفاخر باعداد الرجال والنساء والأطفال الذين أسروهم وحملوهم
 معهم او قتلوهم ، والقرى التى احرقوها وانتهبوها . وقطعان الماشية
 التى ذبحوها متى لم بقدرها على سحبها معهم » . وقال
 احد اهالى بلوخستان لنفس الرحالة : « نحن الآن فى مكران ، حيث
 كل فرد لص من حبث طائفته . وحيث لا يتردد الاخ فى نهب اخيه والجار
 فى سلب جاره » .

(١٠) كان نيقودار اوغلان ابن هولكو ، وحفيداً لأخى جاغتاي .
وقد خلب اخاه اباقا على عرش فارس ، متخذاً اسم احمد خان ، وكان
اول من اعلن اسلامه من ابناء أسرته . فان كان النيقودار ، الذى حاول
تجربة حظه ، كما يخبروننا هنا ، فى هذا الجانب من الهند ، قد زار
فعلاً بلاط جاغتاي ، الذى توفى فى ١٢٤٠ ، فلا بد انه كان ينتمى الى
الجيل السابق . وذلك لأن الذى حدث هو انه حتى ١٢٨٢ لم يكن أحمد
خان نيقودار اصبح حاكماً على فارس ، كما ان اثنين واربعين عاماً
فترة اطول كثيراً من أن تسمح بأن نظن بأنه المغامر الشرقى . وان ،
فريما كان هناك نيقودار أقدم من هذا بين احفاد جنكيز خان الكثيرين ،
والحق ان الاستقامة المنطقية للقصة تتطلب أن تكون حدثت قبل زمن
مؤلفنا بزمان بعيد .

(١١) لا بد لى هنا من أن استمرىء المضى فى تخمين وظن مهما
يبد جريئاً ، فسيبرره سياق الكتاب انه بدلا من مالوبار أو مالوار
(كما تكتب أحيانا) ، ينبغى ان تكون الكلمة (وكانت فى النسخة
الأصلية) لاهوار أو لاهور كما تنطق عادة . فمن خلال هذه المقاطعة ،
وليس بالتاكيد من خلال مالابار ، لا بد أن يكون هذا المغامر شق طريقه
الى دلهى .

(١٢) كانت الفاظ عز الدين وغيث الدين ومعز الدين مع اضافة
كلمة سلطان ، القابا شائعة لحكام دلهى الباتانيين (Popan) فضلا عن
الأمراء الذين كانوا يتولون الحكم بولايات امپراطوريتهم .

(١٣) تقع باداخشان ، وهى قرب منابع سيحون ، على ذلك
الجانب من مملكات جاغتاي الذى هو اقرب الى منابع أنهار الاندوس
والجانج ، فهى نتيجة لذلك على خط الزحف نحو مدينة دلهى .

(١٤) لا يمكن ان تكون كيزمور شيئا آخر عدا كشمير ، التى تقع
فى الاتجاه الممتد من باداخشان نحو لاهور وسيرهند والعاصمة .
والطريق الأشيع استعمالا يمر من كابول ، ولكن هدف ذلك الفاتح
الصغير كان التزام الجبال ، لى يخفى بذلك نواياه .

(١٥) هنا يصبح من الواضح تماما أن الاقليم الذى اخترقه عند
مغادرته كشمير هو البانجاب ، الذى تعد مدينة لاهوار أو لاهور أهم
مدينة فيه .

(١٦) لا نقرأ عند أى مؤرخ وطنى (هندى) ، عن ذلك الافتح
لدلهى على يد التتار المغوليين السابق لفتح تيمورلنك لها . ولكننا نعلم
من كتاب تاريخ هندوستان ، على ما ترجمه داو عن نص فريشتا ، ان

معز الدين بيرام شاه ، ملك دلهى ، الذى بدأ حكمه فى ١٢٢٩ ، وانتهى فى ١٢٤٢ ، وتمت فريسة لبعض المتاعب التى نسبت بينه وبين وزيره وكبار امرائه ، الذين اناروا فتنة بين جنوده ، وهى اثناء تلك الأزمة ، وردب الانباء ان مغول زنجز (جنكيز) العظيم قد طرخوا لاهور ، وان مالك ، نائب الملك بتلك الناحية ، حين وجد جده فى تمرد ، اضطر الى الفرار ليليل ، وانه كان قادما فعلا الى دلهى ، وان الأعداء نهبوا لاهور ، وان الاهالى المساكين اقتيدوا اسرى » . وفى الحين نفسه ، تقدم الوزير بالجيش على العاصمة ، التى ألقى عليها الحصار ثلاثة اشهر ونصف . حتى اذا انتشر العصيان فى خانة الامر بين صفوف المواطنين المدنيين ، سقط المكان فى عام ١٢٤١ . وألقى السلطان بيرام فى السجن حيث انتهت حياته فى مدى بضعة ايام نهاية فاجعة . وبعد ان نهب المعول الولايات الواقعة على ضفاف الغروع الخمسة لنهر الاندوس (السند) عادوا ادراجهم الى غزنه « وهكذا ترى انه فى نفس المدة المطروحة ، وهى التى سبقت او تلت قليلا وفاة جاغتاي فى ١٢٤٠ ، فان جيسا من المغول تقدم فعلا الى ولايات تابعة لملك دلهى ، ونهب مده الواقعة على التخم » .

(١٧) من بين معانى الكلمة السنسكريتية كارانا ، « الشخص المخلط السلالة » ، (والخالسى فى العربية هو المخلط بين الجنسين : الأبيض والأسود) .

(١٨) كان الاعتقاد بوجود تلك القدرات الخارقة للطبيعة نقطة الضعف الشائعة فى العصور المظلمة . ومع ان المظهر والتأثيرات تختلف اختلافا ماديا ، فربما امكن اشتتام ان هناك بعض العلاقة بين قصة الضباب هذه التى ينتجها السحر ، وخداع البصر الذى لحظه الفنستون ، اثناء رحلاته عبر ما يمكن اعتباره امتدادا لنفس الصحراء ، رغم تقسم اجزائها بواسطة الاقليم الذى يتخذ فيه السند مجراه . فهو يقول : « دهن كثير من الناس قرب حلول المساء لظهور بحيرة طويلة تشمل جزائر صغيرة جديدة . . على ان هذا لم يكن الا احد تلك الأوهام الحادة التى يسميها الفرنسيون ميراج ، ويسميها الفرس السروب (أى السراب بالعربية) . وقد خيل الى ان مرد هذه الظاهرة بخار رقيق (او شئ يشابه البخار) يساهم فوق الارض فى جو الهند الحار ، ولكن هذا المظهر كان محالفا تماما لذلك ، وعند النظر على امتداد الأرض ، لم يكن المرء يرى أى بحار اطلاقا . . ولن احاول تعليل هذه الظاهرة ، وانما سأحتزى بملاحظة انه يبدو ان ذلك لا يوجد الا فى الأماكن المستوية المساء الجافة » . - انظر : Account of Caubul من ١٦ .

(١٩) ربما لم تصل القصة الى أكثر من أن هؤلاء اللصوص ، وقد ركزوا أنفسهم فى منطقة الجبال المجاورة ، استغلوا فرصة وجود الضباب الكثيف ، ليقوموا بهجساتهم على القوافل آمنين ، وذلك على حين مكبتهم معرفتهم بالبلاد من احتلال تلك الخوانق الضيقة التى لا مندوحة للمسافرين من اختراقها •

(٢٠) لا يمكن العثور الآن فى خرائطنا على قلعة كونسمالى أو دانو سليم فى قراءة اخرى ولكن مما يجوز ملاحظته أن لفظة خان السلام الفارسية معناها « الدار الآمنة » أو « دار السلام » • يقول الفنستون :

« ان برجا صغيراً ولكنه أثيق كان يشاهد فى هذا الممر (المخترق للصحرى) ، وقد أبلغنا انه ملاذ يلجأ اليه المسافرين اتقاء لشر العشائر الناهبة التى تعيث فساداً فى طريق القيروانات (القوافل) » • ص ١٧ •

● هوامش الفصل السادس عشر

(١) « يقال انه يوجد بالجبال القريبة من هرمز ، ارض زراعية رماشية وفيرة ومعقل جمة . ولكل جبل شيخ ، ولهم جعل من السلطان أو الوالى ، ومع هذا فهم يعيشون فى طرق كرمان ، وإلى حدود فارس رسجستان . وهم يرتكبون سرقاتهم راحلين ، ويقال انهم من أرومة عربية ، وانهم جمعوا نروة طائلة » . ترجمة ر . أوزلى (للملك والمالك) لابن حوقل ص ١٤٠ .

(٢) كانت مدينة أرموز أو هرمز الاصلية تقع على الشاطئ الشرقى للخليج الفارسى ، بولاية موجوستان . ومملكة كرمان . ومن الواضح ان ابن حوقل ، فى حوالى النصف الثانى من القرن العاشر يتحدث عن هذه المدينة القائمة على البرالاسيوى حين يقول : « ان هرمز هى سوق كرمان وملنقى تجارها وميناوهم الرئيسى . وبها المساجد والأسواق ويقيم التجار فى ضواحيها » ص ١٤٢ . ودمرها أحد الأمراء الذين كانوا يحكمون فى كرمان ، من الأسرة السلجوقية حسب بعض الروايات ، أو المعول حسب بعضها الآخر . ولكن لم يتم تحقيق التاريخ المضبوط لذلك بصورة مرضية . وعند ذلك انتقل السكان بكل ما غلا ثمنه من ممتلكاتهم الى جزيرة جيبور المجاورة ، وهى تبعد حوالى مائة عشر ميلا جغرافيا عن الموقع السابق . حيث وضع الأساس لمدينة هرمز أو أرموز الجديدة . التى قدر لها ان تحضر شهرة أعظم كثيرا من سابقتها ، وان اتصف موقعها الجديد بمساوىء نقص الماء ، والتربة المتسببة بالملح والكبريت . ويصف أبو الفداء ، الذى كتب فى مطالع القرن الرابع عشر ، وكان معاصرا لمؤلفنا . المدينة الجزرية (الجديدة) واستولى البرتغاليون . بقيادة ألفونسو البوكرك الذائع الصيت ، على هذه الجزيرة من امرائها الوطنيين فى ١٥٠٧ . يقول روبرتسن : « وما لبث هرمز وهى هى أيديهم ، ان أصبحت السوق العظيمة ، التى كانت الامبراطورية الفارسية ، وجميع ولايات آسيا الى الغرب منها ، تمون منها بمنتجات الهند . وتحولت المدينة التى بنوها على تلك الجزيرة الفاحلة المعتقرة الى الماء ، الى مركز من أعظم مراكز الثروة والفخامة والترف فى العالم الشرقى » انظر : Hist. Disquisition ص ١٤٠ . ثم استخلصها منهم شاه عباس فى ١٦٢٢ بمساعدة أسطول انجليزى .

وهدم ذلك الفاتح تحصيناتها وغيرها من المباني العامة الأخرى وسواها بالأرض . ونقلت تجارتها إلى مكان على الشاطئ المجاور اسمه جامبون ، أطلق عليه اسم بندر عباس . ولكن في الوقت نفسه عمل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح للسفر في أوربا ، على تحويل التجارة العامة إلى مسار آخر ، وما لبثت التجارة التي استمرت عن طريق الموانئ القائمة على الخليج الفارسي أن اضمحلت سريعا . وفي عام ١٧٦٥ الذي زار فيه نيبور تلك الجهات ، كانت الجزيرة التي تقوم عليها هرمز سلكا لسنخس كان يعمل في الخدمة البحرية لبادرشاه ، كما أن المكان أصبح عديم الوزن تماما .

(٣) لا بد أن المعنى المقصود من هذا أن هرمز فاقت المدن الأخرى ثراء ورغدا بل ربما عدد سكان أيضا ، على أن سرجان أو مرجان ، المسماة كرمان أيضا ، كانت عاصمة الاقليم الذي نسميه بذلك الاسم ، وبها كان يقيم الوالي .

(٤) ورد في قائمة سلاطين هرمز التي خلفها تكسيرا في ترجمته لحوليات طوران شاه ، من يسمى ركن الدين محمود ، ومع أن التواريخ بعيدة كل البعد عن الدقة ، فإن في الامكان الظن بأنه حكم في نفس مدة زيارة مؤلفنا للخليج ، الفارسي ، وأنه هو الأمير المسمى هنا ركمدين اتشوماك . وواضح أن الاسم الثاني مقصود به لفظة اتشومت ، وهي الطريقة التي شاعت بها خطأ كتابة اسم أحمد . ومن المعلوم أن المؤلفين الشرقيين كثيرا ما يقعون في الأخطاء بالخلط بين الأسماء الثلاثة أحمد ومحمد ومحمود .

(٥) ليس هناك سجل للملك كرمان يمكن تتبعه إلى أبعد من عام ١١٨٧ ، عندما قام ملك دینار ، من عترة علي (وهو سيد شريف) ، بطرد آخر أمراء السلاجقة واستوى على العرش . ولكن لابد أنها أصبحت ثانية في عهد هولكو وخلفائه ، الذين فتحوا بلاد فارس في القرن التالي وأسسوا أسرة مغولية مالكة ، ولاية أو اقطاعا من تلك الامبراطورية ، يحكمها (شأنها في هذه الأيام) فرع من الأسرة الحاكمة . وينبؤنا ده بارس (Decade II, Liv. II, Cap. 2) أن ملكا أو شيخا لهرمز (بمنطقة موجوستان على أرض القارة) حصل من جاره ملك قازين ، على تنازل عن جزيرة جيرون ، الواقعة قرب نصيبه من الشاطئ ، وأسس بها هناك قوة بحرية بقصد التحكم في المضائق ، بحيث أنه عندما نشبت حرب ، يسبب هذا الاستيلاء ، أصبح سيدا على جزيرة قازين (Kâez) أيضا . وأن ملك فارس (أو حاكم كرمان بمعنى آخر) ، الذي اعتاد الملك أن يدفع له الجزية ، سير جيشا على

موجوستان وارغم ملك هرهز على التحلى عن مدينته الواقعة على القارة واللجوء الى جزيرة جيرون . التى اسس بها مدينة هرمز الجديدة ، وانه حين قبل الاعتراف بتبعيته الاقطاعية وايطاء الجزية (وهى نصيب مفروض من الضرائب المجباه من السفن) الى ملك فارس ، سمح له الاخير بامتلاك الجزيرتين كلتيهما ، وانه استمر فى حكم دياره الجديدة ثلاثين عاما - وعلى ذلك فان الظروف التى اوردها ده باروس على - ما ترى - تتفق فى نواحيها المادية مع ما رواه مؤلفنا فى هذا المكان ، وبوجه اخص فى الكتاب المالت الفصل الثالث والاربعون ، على ان المؤرخ البرتغالى يرجع جميع النصرفات الى عهد جوردان شاه بهمهده ، فيما يقول ، وهى الذى حصل على التنازل عن جيرون فى ١٢٧٢ ، والذى مات فى ١٢١٨ حسبما تروى قائمة تكسيرا - ونهيا يسمى عز الدين جوردان شاه . ومع هذا فان هناك من الاسباب ما يحملنا على الاعتقاد بانه انما يضيف لذلك الحكم امتدادا لا اساس له ، وأن الحوادث الاولى التى يدور الحديث عنها انما تنتمى الى عهدى سيف الدين وركن الدين ، وهما فى الراجح والد ذلك الأمير وجده .

(٦) من المعروف ان هذا الحق الفطيع كان يمارس فى اوربا ، فى ازمئة حديثة جدا ، تحب اسم حق وراثة الاجنبى (droit d'aubaine)

(٧) ان الريح الحارة المعروفة فى ايطاليا باسم السيروكو ، وفى افريقيا باسم الحرمتان ، كثيرا ما وصفها الرحالة . وربما كانت آثارها اعنف ما يكون فى صحارى جنوب فارس . يقول بوتنجر : « غالباً ما تكون الرياح بهذه الصحراء حارقة (انباء الشهور الحارة من يونية الى سبتمبر) بحيث تقتل اى شئ حى ، قد يتعرض لها ، حيوانا كان او نباتا . وعندئذ يعتبر الطريق الذى سافرت فيه مستحيل العبور . ونعرف هذه الريح بكل مكان من بلوخستان باسماء مختلفة منها الجيلوب او الجيلوه (اى اللهب) وبابى سموم (اى الريح الوبيئة) . وهى ذات طبيعة فاحسة القبيح يحىي عرف عنها انها تقلل الجمال او غيرها من الحيوانات القوية الاحتمال . كما ان آثارها فى الجسم البشرى قد ابلغنا عنها من ساهدوها راي العين ، بانها اشنع ما يمكن تصوره : فتتصلب عضلات السقى الذى ينكب بها وينقبض ، ويتفرض الجلد ، ويعم جسم المرء كله ، الم مبرح ، كأنما يسوى على النار ، ثم اذا هو يتشقق اى آخر المطاف محدثا جروحا غائرة ، بسبب نزيفا ، يختم هذا الشقاء سرعا » . ص ١٣٦ .

(٨) عن ممارسة هذا الانغماس فى الماء ، لدينا شهادة بببتر دلالافالى ، الذى اتفق ورحوده بخليج فارس اثناء حصار هرمز وزار

الجزيرة فور سقوطها في ايدي الفرس • فهو يكتب في رسالته المؤرخة
١٨ يناير ١٦٢٢ :

« comunemente si stima la più calda terra del mondo ... E mi dicono,
che in certo tempo dell'anno, le geti di Hormur non poterbberi
vivere ».

ومع ان الأمر لا يحتاج الى مزيد من شهادة فاني ساقدم شهادة شاتجر ،
وهو رحالة سوابي (swabian) ذكي القواد ، زار تلك البلاد في عام ١٧٠٠
وزودنا بوصف لهرمز وجامبرون :

« Wann die grosse Hitze einfallet », legen sich die Innwohner den
gantzen Tag durch in darzu bequeme wasser-troge.

انظر : Persianische Reis ص ٢٧٩ •

(٩) وفيما يتعلق بحالة الأجسام ، مهما بدت أحوالها غير مألوفة
في بظرننا ، فانها كلها قد عززها شاردان كل التعزيز ، الذي قال متحدثا
بدوره عن تلك الريح : « ان اثرها وهو أشد ما يكون بحثا للدهشة ليس
حتى مجرد ما تسببه من موت ، وانما هو أن الأجسام التي تموت
بسببها تبدو كأنما هي متحللة ، دون أن تفقد مع ذلك شكلها ولا حتى
لونها ، حيث ان الانسان قد يقول انهم ليسوا الا نياما ، وان كانوا
موتى ، وأنه لو أمسك المرء بعضو منهم ، لانخلع العضو وظل في اليد » •
ثم ينطلق بعد ذلك لاضافة بعض الحقائق الجديدة – اثباتا لأقواله –
الجزء الثاني ص ٩ •

● هوامش الفصل السابع عشر

(١) لا نعرف الا القليل عن السفن المستخدمة بالخليج الفارسي قبل فتح البرتغاليين لهرمز ، ومنذ تلك المدة أحدث تأثير هؤلاء وغيرهم من الأوربيين والتمثل بمثالهم ، أثراً كبيراً في نظام الملاحة الفارسي ، ومع ذلك فإن البيان الذي أورده مؤلفنا يتفق في كل تفصييلة مهمة مع نوع السفن التي وصفها نيبور . وتلك أيضاً هي الزوارق المستخدمة في الوقت الحاضر على ساحل كروماندل ، وهي الزوارق التي يسميها الفرنسيون بالسلمنجات ويسميها الانجليز زوارق الماسولا ، وهي التي يسبقها لوجانتبل على النحو التالي : « ان القوارب التي تستغنى عن هذه القضبان تسمى بالسلمنجات ، وهي تصنع خصيصاً ، وهي ألواح يوضع الواحد منها فوق الآخر ، ويخاط الواحد منها في الآخر ، يخط مصنوع من الليف الداخلي الخشن لشجرة جوز الهند ، ثم تقلط الخياطات بالمشاققة المصنوعة من نفس الليف (أو القلافة) ، ثم تحشر حشراً قويا بغير مهارة بسكين غير حادة . وقاع هذه القوارب مسطح بشكل مسطحها ، وهذه القوارب لا تكاد تكون أكثر طولاً منها عرضاً ، ولا يدخل في صنعها مسمار واحد » . انظر (Voyage ج ١٠ ص ٥٤٠) وهذا الفتل المصنوع من الليف أو الحسك الليفي لجوز الهند (وليس من لحاء الشجرة كما ظن السيوم لوجنتيل) ، مشهور بالهند باسم « الكزار Coire » ، كما انه يصنع حبالاً لتوجيه أجهزة الصواري والقُلُوع والكابلات .

(٢) ينبغي أن يلحظ أن السفن Praws العبيدة التي تمر بحار الشرق الأقصى ، تدار عادة بدفتين أو كامودين (Kamûdis) وان هذه السفن كانت في الآونة الأخيرة موضع ملاحظة مؤلفنا أثناء رحلته الى مضيق ملقا .

(٣) كذلك شأن سفن الملايو أو جرت العادة أنها هي أيضاً لا تزود بمراس حديدية ، وهي التي اعتقد أنها المقصودة من كلمة « Ferri di sorzer » ، وان لم نعثر على ذلك المصطلح في المعاجم العامة ولا البحرية . فمراسيها مصنوعة من خشب قوى وثقيل ، وليس

لها الا ذراع واحد او مخلب واحد ، كما انها تغطس فى الماء بواسطة احجار ثقيلة تربط بها •

(٤) ربما لا نتوقع أن يزرع القمح فى مثل هذا الجو الشديد الحرارة ، بيد أن هذه الواقعة مؤكدة تماما •

(٥) ان ما سعى عادة باسم خمر النخيل (او التودية Toddy) انما هو شراب مستخلص من اشجار من فصيلة النخلة ، وذلك بقطع الفسيلة للاخصاب وشد وعاء الى الجزء المجروح يستقر فيه الشراب ، ولكننا نسمع ايضا عن شراب مسكر ، يجهز من البلح الناضج ، بنقعه فى الماء الساخن حتى يحدث له تخمر مسكرى • ويقول بوتنجر ، وهو يتحدث عن شعب سكران (المجاورة لولاية كرمنا) ، : « وهم يشربون كذلك مقادير ضخمة من مشروب مسكر ، يصنع من البلح المخمر ، وهو شراب لايد ان له آثارا ضارة جدا » • ص ٢٠٦ • وفى كتاب الصعود (Anabasis) لزينوفون ، ما مفاده أن الاغريق وجدوا هذا الشراب نى قرى بلاد بابل •

(٦) ان هذه المناحلات المفرطة ، الشديدة الانتشار ببلاد الشرق ، وغير المجهولة ببعض اجزاء أوربا ، فضلا عن عادة تأجير الناديات المحترقات ، كثيرا ما وصفها الرحالة • يقول شاردان : « ان النساء بوجه خاص ، يندفعن الى ابداء المسرف من التهورس والحزن البالغين ، ويخلطن بها شكاوى طويلة ومراثى رقيقة واليمة • وعبارات حزينة موجهة الى الجنة الهامدة » (ج ٢ ص ٣٨٥) • ويقول فراير : « ان من المعتاد ، تأجير نادابين • وتذهب الأرملة الى المقبر كل شهر مصحوبة بمعارفها. لتكرر اللحن الحزين » Account of East India and Persia ص ٩٤ × • وربما جاز أن نقرر أن مدة الصداق وردت فى النسخ اللاتينية الأولى والنسخ المبكرة الأخرى على أنها أربع سنوات بدلا من أربعة أسابيع •

● هوامش الفصل التاسع عشر

(١) أن كوبيام (وهى جوبيام فى النسخة اللاتينية الأولى وكوبينام فى غيرها) هى كاببيس لى دانفيل وخابيس عند الادريسي وخبيس (بضم الخاء وفتح الباء وتسكين الياء) عند ابن حوقل وخوييس عند يوتنجر . يقول ابن حوقل : « ان خبيس بلدة على حدود هذه الصحراء فيها المياه الجارية والنخيل . وبينها وبين دوراك مرحلة واحدة . وعلى امتداد هذه المرحلة وعلى مدى البصر ، يتشبع كل شئ بمظهر الخراب والاقفار ، وذلك لانعدام كل اثر للماء . » انظر المسالك والممالك (ترجمة أولزلى جى ١٩٩) ويقول يوتنجر : « انها كانت زاهرة فى سالف الزمان ، وكانت دار حكم لبيكلاريك (أمير أمراء) من جانب أمير سيستان ، ولكنها الآن مكان تعس خرب كما ان سكانها لمصوص ومنبوزون سيئر السمعة يعيشون على الاغارة على الطرق الرئيسية المؤدية الى خراسان وفارس ونهب القوافل ، » ص ٢٢٩ .

(٢) الينابيع الملحة والسهول المكسوة بالملح ، التى لقبها يوتنجر فى كرمان والمناطق المجاورة يدور الحديث عنها على النحو التالى : « عبرنا نهرا من الملح السائل يبلغ من عمقه ما يصل الى ركب حصانى ، وكان سطح السهل مغطى تماما الى مسافة يضع مئات من الياردات على كل من الجانبين بطبقة سميكة من الملح الأبيض ، تشبه شويوبا من ثلج متجمد كان يقع تحت سنايك الحصان » . (ص ٢٣٧) « تمتلىء جميع جبال كوهستان هذه بالمنتجات المعدنية ، فتوجد فى كثير من الأماكن غدران من الملح السائل ، وبرك من الماء عليها زيد يشبه النفط أو البتومين (bitumen) ، توجد قرب بحر قزوين » . (ص ٣١٢) : « وهناك سلسلة تلال على الطريق الممتد من كيلات الى كتش جندافا يستخرج منها نوع من الملح أحمر اللون تماما له خواص ملينة كبيرة جدا . ويمكن الحصول على الكبريت والشبة من نفس المكان ، » (ص ٣٢٣) ويبدو من آثار ملح هذه الصحارى انه يحتوى على سلفات المانيتزيا ، كما أن اللون الأخضر الذى لحظه مؤلفنا ربما كان راجعا الى وجود خليط من سلفات الحديد .

(٣) يقول ابن حوقل : « تصد صحراء خراسان فى الشرق قسما

من حدود ولاية مكران وقسما من سيستان ، وتاخمها فى الجنوب
كرمان وفارس ، وجزء من حدود أصغهان . وهذه الصحراء تكاد
تكون كلها بيابا خالية من السكان . فهى مباءة اللصوص وقطاع
الطرق . ومن أعسر الأمور أن يعرف المرء طريقه فيها بغير دليل ولا
يستطيع المرء أن يمضى الا عبر المسالك المعروفة تماما (ص . ص
١٩٢ - ٤) .

(٤) ربما كان مكان الاستراحة والانتعاش هذا هو « شور » الذى
يسميه ابن حوقل نهرا من الماء فى الصحراء على الطريق الذى يبدأ فى
الجانب الكرمانى . وهو يقول فى موطن آخر ، انه على مسيرة يوم
واحد من دوراك ، ويصفه بأنه مجرى ماء عريض من مياه الأمطار .
ولكنه لم يبد التفاتا الى مروره تحت الأرض ، وتبعاً لذلك لا يجوز
الاصرار على صحة هذا التعرف ، وان لم يكن فى جريان الأنهار
تحت الأرض شئ غير عادى كبرا .

❁ هوامش الفصل العشرين

(١) ذكرنا في الهامشة الرابعة ، سببا لظننا أن المقصود من كلمة اندانيكو هو الأنتيموني الذي جاء عند شاردران وآخرين غيره ، أنه موجود بالاقليم الفارسي الذي يدور عنه الحديث هنا ، ولكن تأسيسا على الطريقة التي تصنع بها التوتياء والاسبوديوم والتي وصفت بهذا الوجه الخاص في هذا المكان ، يحق لنا أن نستنتج أن اللابيس كلامينارييس . اعنى الزنك ، هو السلز الذي يطلق عليه مؤلفنا هذا الاسم ، أو بعبارة اصح الاسم الذي جاء اندانيكو تحريفا له . ولست ادعى القدرة على الحكم الى أى مدى يمكن أن تؤدي خواص الأنتيموني أو الزنك ، الى تعريف الناس للمخلط بينهما ، ولكن يبدو أنه تقوم في هذه النقطة درجة ما من عدم التاكيد ، ربما اتخذت عذرا لمؤلفنا ، ان هو ظن أن الأنتيموني لا الزنك - كان يستخدم في صناعة التوتياء . يقول بونتيوس : ان التراب الأرجيلي (الصلصالي) الذي تصنع منه التوتياء ، يوجد بمقادير كبيرة في الولاية الفارسية المسماة كيرمون ، كما ابلغت كثيرا على اسان تجار من الفرس والآرمن «

(Account of Diseases' Natural Hist. etc., of the East Indies).

(الفصل ١٣ ص ١٨٠) . ويتحدث بونتيوس في (يوميات رحلاته عبر بلوخستان نحو كرمان) ، عن دار قوافل (قيروان سراي) تسمى «سورموسنج» أى حجر الأنتيموني ، وهو اسم يستمد من المكان من المقادير الهائلة من ذلك الفلز التي تجمع من المنطقة المجاورة له . (ص ٣٨) . ولذا فان مما لا سبيل الى الملاحظة فيه ، في ظني ، أن قطرة العيون التي يكثر استخدام الشعوب الشرقية لها ، والتي يسميها الفرس « سورميه » ، ويسميها أهالي الهندستان أنجان أو أنجون ، أساسها هو التوتياء ، ولكنك لو رجعت الى المعاجم الفارسية والهندوستانية لوجدت أن كلمتي سورميه وأنجان هما أيضا الاسمان اللذان يطلقان على الاثمد (الأنتيموني) . وسهما تكن التسمية الصحيحة ، فانه محق وصائب من الفاحية المادية على الأقل في ذكره أن التوتياء المستخدمة قطرة للعيون أو سرهما رمديا ، تجهز من مادة فلزية توجد في ولاية كرمان .

سوامش انفصل الحادى والعشرين

(١) أظهرنا من قبل أن تيموكاين أو تيموشاين الواردة فى نصنا هذا ليست سوى دمعان ، وهى مكان له أهمية ضخمة يقع على التحويم الشمالية الشرقية لفارس ، وتقع الى شمالها هركانيا القديمة التى يفصلها عنها سلسلة من الجبال ، وإلى الشرق منها ولاية خراسان ، وولاية كوميس الصغيرة ، التى هى حاضرتها وذلك بالاضافة الى الصحراء الملح إلى الجنوب . وكان أن عسكر فى هذه المنطقة المجاورة غزان بن ارغون ، وارث عرش فارس ، الذى كان يشغله آنذاك عمه ، (عسكر) بجيش ليحرس ممر خوار المهم المسمى بالبوغاز القزوينى ، فى المدة التى وصلت فيها أسرة بولو من بلاد الصين ، واليهام أمروا بالتقدم ليسلموا الى يديه وديعتهم النفيسة وهى أميرة من بيت قبلاى .

(٢) يبدو أن هذه الشجرة التى أطلق عليها اسم الشجرة الجافة ، نوع من الزان ، (Fagus) ، وانها تتصف ببعض صفات القسطل (الكستناء) . ولكن لنا من الفقرات المتنوعة التى كتبها كتاب حدث عهدا ما يبرر أن نعد المقصود منها هو ضربا من شجر الدلب . ويظهر أن لفظة جافة لا تدل على شىء أكثر من هذا : وهو أنه عندما يؤذن شكل اللعبة بقسطلة قابلة للأكل ، يصاب الغريب الذى يجمعها بخيبة الأمل ، إذ لا يجد فيها أية محتويات يستطيع امساكها ، أو يجد سقط بذرة جافة لا طعم لها .

(٣) دارت رحى آخر معركة بين الاسكندر وداريوس قرب أربل أو أربلا ببلاد الكردستان ، عن غير بعيد من نهر دجلة ، ولكن الذى حدث فى اثناء العمليات القتالية ، أن ملك فارس المنهزم جرى تتبعه من اكباتانا (همدان) عبر البوغاز القزوينى أو ممر خوار ، الذى اخترقته جند الاسكندر بغير مقاومة الى ولاية كوميسين (كوميس) التى كانت هيكاً توميلوس (التى يظن انها دمعان) حاضرة لها . ولم تتوقف المطاردة حتى لقي العامل التعس حقه على يد رعاياه غير بعيد من المدينة الأخيرة ، بينما تقدم الاسكندر نفسه بطريق أسرع ولكن ذاك التقدم تم عبر بيداء يعوزها الماء تماما . والروايات التاريخية المتداولة حول الفاتح المقدون تكثر بوفرة فى هذا الجزء من البلاد .

(٤) لحظ كثير من الرحالة منهم اولياريوس وشاردان ، اعتسالة المناخ وعدم صحته المفرطة فى الحين نفسه على امداد الشاطئ الجنوبي لبحر قزوين ، على ان المنطقة المحيطة بدمغان التى يدور حولها الحديث هنا ، تتفصل بسلسلة جبلية عن منطقة المستنقعات الممتدة من استر اباد وقره اباد (وهما المكانان اللذان كان يزورهما الاوربيون بوجه رئيسى اثناء حكم شاه عباس الذى كثيراً ما كان يعقد بلاطه فيهما) - وتشغل اقليما اشد ارتفاعا بكثير .

● هوامش الفصل الثانى والعشرين

(١) لا وراء أن التسمية ذاتة الصيت فى تواريخ الحروب الصليبية . وهى « رجل الجبل الهرم » ، إنما هى ترجمة غير موفقة لقلب العربى « شيخ الجبل » الذى معناه « رئيس المنطقة الجبلية » . ولكن لما كانت لفظة « شيخ » شأن لفظة سنيور وبعض المصطلحات الأوربية الأخرى ، تحمل معنى « الأسن » فضلا عن معنى « المولى » أو « الرئيس » عرض (على الأوربيين) مفاضلة للاختيار بين التفسيرات موقع اختيارهم على أسونها وأقلها مناسبة لمقتضى الحال . وكانت الأماكن التى كانت تلك الشخصية تمارس فيها حقوق السيادة وهى رئيس لشعبة دينية أو متعصبة هى قلاع الأموت ولمسير وكيردكوه وميسون ديز وناحية روبرار ، وكلها تقع داخل حدود تلك الولاية التى يسميها الفرس كوهستان ويسميها العرب الجبال (وهى بلاد العراق العجمى شرقى أذربيجان منها بالقرب من قزوین قلعة الأموت . وكانت قصبة الحشاشين أو الاسماعيلية : (١٠ هـ) عن المنجد . يقول ده ساسى فى *Mémoire sur la Dynastie des Assassins, etc.* أن موقع الأموت فى وسط منطقة جبلية هو الأصل فى تسمية الأمير الذى يحكم بها باسم شيخ الجبل أى أمير منطقة الجبال والالتباس فى كلمة شيخ التى تدل فى الوقت نفسه على الرجل المسن والأمير أدى الى أن سماه مؤرخو الحروب الصليبية والرحالة الشهير ماركو بولو باسم « عجوز الجبل » .

(٢) أن هذا التطبيق الصحيح للفظ ملحد العربية يعد واحدا من الأدلة الكثيرة التى لا يرقى إليها شك عن اتصال مؤلفنا بالأحداث ، كما أنه لا بد أن يكون كافيا لازالة كل شكوك تداخل كل مستطلع عليم وصريح حول موضوع معرفته بأمور الشرق . وأنا لنجد تحت عنوان « ملحدة » فى « Bib. Oriental » الذى ألفه ده هربيلوه : (أنها جمع كلمة ملحد ، ومعناها المجرى من التقوى ، أى الرجل الذى لا دين له) . و « ملحدة كوهستان » معناها : كفرة الجبل وهكذا كان يسمى الاسماعيلية الذين حكموا بلاد إيران وبخاصة فى الجزء الجبلوى من فارس . وهذه الصفة الدالة على الأزدراء أطلقها المسلمون السنيون على طائفة الاسماعيلية المتعصبة أو الباطنية أو كما يسمون أنفسهم الرفاق أى الأصدقاء ، الذين أزهروا تحت رئاسة سغامر اسمه الحسن

ابن الصباح يبلاد فارس حوالى عام ١٠٩٠ اثناء حكم ملك شاه جلال الدين ثالث ملوك الأسرة السلجوقية . وانهم فيما يتعلق بالقسامين الرئيسيين للعقيدة الاسلامية السياسية كانوا يعلنون انهم ينتمون الى الشيعة أو الراقضة (كما يسميهم خصومهم) الذين يؤمنون بانحصار الحق الشرعى فى الامامة (الخلافة) فى سلالة على . ويبدو أن شعائهم الخاصة ذات صلة بشعائر القرامطة الأقدم منهم زمناً وبالأوهابيين العصريين .

(٣) يعرف أفراد طائفة المياتاريني (Paterini) عند المؤرخين الاوربيين بوجه أعم بأسماء الوالدنسيين (Waldenses) والالبيجنسيين (Albigenses) كما يعرفون عند الكتاب الفرنسيين باسم الياتلان أو الياتلان .

(٤) لقي علاء الدين الأمير الاسماعيلى مصرعه بعد حكم طويل قرب نهاية عام ١٢٥٥ ، وخلفه ركن الدين بن علاء الدين الذى لم يحكم سوى سنة واحدة فقط قبل تدمير سلطانه فى الظروف التى يمضى مؤلفنا فى سردهما . ومن ثم فهو على صواب حين ينسب الأعمال التى اثارت غضب العالم الى الأمير الأول . ولكن لا يظهر أنه أدرك أن الابن هو الذى وجه اليه هجوم المغول (المغل) وأن كان الواقع أن الحملة لا بد أنها جردت على علاء الدين الوالد نفسه .

(٥) كانت هذه القصة موضع الاعتقاد السارى بين سكان آسيا ، الذين يبدوا أنهم رأوا من الضرورى نسبة أسباب خارقة لذلك التأثير المدهش حقاً الذى يتجلى فى الاخلاص المطلق لهؤلاء المتحمسة الدينيين نحو ارادة سيدهم المستبعدة . ولم يرد عند ماركو بولو اسم الشناشين الذى يطلقه عليهم غيره من الكتاب .

(٦) لم اتمكن من العثور على أى أثر لمؤسسة الاسماعيلية . بقيادة رئيس مستديم ببلاد الكرد ، وأن كان عملاء أو مبعوثو الطائفة (أى الفدائية) (Daïs) كثيراً ما يستخدمون هناك ، وأن كانت لدينا شواهد كافية على وجود الحكومة التابعة للطائفة بسوريا والمذكورة هنا . (انظر ده ساسى فى Mémoire ص ٦٠ وده جنى (De Guignes) فى Hist. Gén. des Hons الكتاب السادس ص ٣٤٢) . وانى لأدقق أكثر فى ذكر هذه المراجع لكى أثبت تأكيداً لما يذكره ماركو بولو من أن الحكومة القائمة بفارس هى الحكومة الأصلية لتلك الطائفة وأن أصبح الفرع السورى أشهر من الأصل فى أوربا . كما أنه يبدو أن لقب « شيخ الجبل » أو « عجوز الجبل » كان يطلق بصفة عامة ان لم تكن قاطعة ، على شيوخ ذلك الفرع .

(٧) ان الظروف المحيطة بتدمير تلك الطائفة التي جعلت من نفسها
 كما رأينا في الهوامش السابقة ، مملكة مستقلة ألم بهسا أبو الفرج
 (ابن العبري) في كتابه « مختصر تاريخ الدول » Hist. Dynast.
 ص ٢٣ . فضلا عن غيره من الكتاب الشرقيين الذين يسجلون أعمال
 خلفاء جنكيز خان . ولكن أحدا منهم لم يصل الى درجة التفاصيل
 التاريخية التي بلغها ميرخوند الذي ترجم بيانه عن الأسرة الاسماعيلية
 في فارس وأصدره في باريس ، مع النص الأصلي المسيو جوردان .
 م. فيما يتعلق بعام ١٩٦٢ ، الذي يحدده مؤلفنا على أنه بداية هذه
 العمليات . فالواقع أنه لا بد أن تكون هناك غلطة في ست سنوات تقريبا ،
 ذلك لأن جميع المؤرخين يتفقون على أن حملة هولاكو على الملاحدة
 كانت سابقة لتلك المسيرة على بغداد ، والأخيرة معلوم بيقين كاف أنها
 جرت في ١٢٥٨ . ولدينا في الحين نفسه المرجع التفصيلي الثقة لميرخوند
 الذي يحدد موعد تدمير قلاع الملاحدة بعامى ١٢٥٦ و ١٢٥٧ . وربما
 صح لنا أن نلتمس العذر لما ركز بولوى عن هذا الخطا وعما يماثله من عدم
 دقة على أساس أنه نظرا لأن الأحداث حدثت قبل بداية أسفاره بسنوات
 كثيرة ، ومن ثم فلا بد أنه اعتمد على معلومات استقأها من الغير حول
 تواريخ تلك الأحداث التي ربما كان يجرى تعبيرها طبقا لطرائق حساب
 التاريخ التي كانت تحتاج الى عملية حسابية لتحويلها الى تقويم الحقبة
 المسيحية .

● هوامش الفصل الثالث والعشرين

(١) من دمنغان كان طريقه متجها نحو الشرق تقريبا ، أى فى اتجاه بلخ ويبدو أنه (امتد خلال جان جرم ونيسابور نحو ميسرو الروض (Meru-ar-rud) على أن عدد أيام السيرة قليل جدا كما هو واضح ، ما لم نتصور أنه سبار بضعف سرعة القوافل العادية ، أى بسرعة أربعين ميلا كاملة فى اليوم الواحد ، وهو أمر أقل احتمالا من الذهاب الى أنه جرى هنا حذف لبعض المراحل .

(٢) يقال أن إقليم خراسان الذى يمتد فيه الطريق ، سواء أكان من الدموت أم من دمنغان ، الى المكان الوارد ذكره بعد ، إقليم مستوى السطح بوجه عام ، تتخلله صحراوات رملية وسلاسل غير منقطعة من الجبال المرتفعة .

(٣) من الضروري جدا لتمام المعنى أن يكون المقصود من رحلة ستة أيام من الجانب الشرقى للصحراء المذكورة .

(٤) ان صحة اسم هذا المكان ، الذى قد يظن أولا أن المقصود به هو نيسابور ، أمر لا يتطرق اليه شك . يقول بنى ده لأكرواه ، مترجم شريف الدين : « ان شبرجان ، مدينة فى خراسان ، قرب جيحون وبلخ ، وتقع على خط طول ١٠٠° وخط ٤٥° و ٣٦° » . وهى تسمى فى جداول ناصر الدين التى نقل عنها الموقع المذكور آنفا ، أشبركان ، وهى فى خريطة دانفيل ، أشبرجان ، وفى خريطة استراهلنبرج شابورجا ، وفى خريطة مكدونالدكينايير سوبرجان ، وفى خريطة ألفنستون شبرجان . ويتحدث عنها الكاتب الأخير بأنها تابعة لحكومة بلخ .

(٥) يشيد جميع الكتاب الشرقيين بشهرة ولاية خراسان بجودة الفواكه ، والأهمية التى تضافى هنا على قايونها (أو بطيخها الأصفر بلغة أهل الشام وشمامها بلغة أهل مصر) يساندها تماما شهادة شاردان (ج ٢ ص ١٩/٤) وعن قايون خراسان انظر أيضا كتاب : « Relation de l'Egypte » الملاحظات ص ١٢٧ .

(٦) تقع بالاتش أو بلخ ، وهى باكترا الملكية ، عند بطلميوس الجغرافى ، التى أطلق اسمها على ولاية باكتريانا ، التى كانت

عاصمة لها ، قرب منابع نهر جيحون (OXUS) في الطرف الشمالي الشرقي من خراسان . وهي واحدة من المدن الملكية الأربع لتلك الولاية ، وظلت مقرا للحكومة مرات أكثر من نيسابور نفسها أو هيرات أو مروشاهجان .

(٧) أمر جنكيز خان عندما استولى على المدينة قهراً من الخوارزميين في ١٢٢١ ، بذيح السكان جميعاً (كما ينبغي بذلك مؤرخه أبو الغازی) كما أمر بأن تسوى الأسوار بالأرض . وفي ١٣٦٩ أخذها تيمور لك من يد أحفاد ذلك الفاتح . واحتفظت بها أسرته حتى أجبرت على التنحى عنها للتتار الأوزبكية ، وظلت بعد ذلك موضع النزاع الدائم بينهم وبين الفرس . ويلاحظ ألفنستون : « تريم على جميع الآسيويين فكرة بأنها أقدم مدينة في العالم . . . غير أن هذه الحاضرة القديمة الزاهرة قد أصبحت الآن عديمة الشأن . ولكن خرائبها لا تزال تغطي متسعا متراميا ويحيط بها سور ، على أن ركنا واحدا منها هو الأهل بالسكان » (ص ٤٦٤) . ويصف مكيونالد كيناير البيوت بأنها مبنية من الطوب ، وقصر الخان بأنه مبنى فسيح مشيد كله من الرخام ، المجلوب من محاجر في الجبال المجاورة .

(٨) المفهوم على وجه الجملة أن صفتي زواج الاسكندر الفارسيين من بارسين أو استاتيرا ابنة دارا ومن باريستاتس ابنة أوخوس ، تما بمدينة سوسا .

(٩) يقال انه في زمن تدمير جنكيز خان لبلخ كانت المدينة تحتوى على ما لا يقل عن اثني عشر ألف مسجد . وذلك وإن كانت فيه مبالغة ، يدل على غلبة الاسلام على المدينة .

(١٠) نظرا لأن خراسان كثيرا جدا ما كانت تخضع لسلطان فارس وبخاصة أيام سلالة هولاكو ، الذين ملكوها في المدة التي قام فيها مؤلفنا برحلاته ، فقد كان من الطبيعي أن يعدها جزءا مكملًا للإمبراطورية الفارسية . ونضيف أنه يصيب حين يذكر أن بلخ تقع على التخم الشمالي الشرقي . ويقول النص اللاتيني :
usque ad istam terram durant dominium domini de Levante.

(١١) يعدد شباردان الأسود بين حيوانات فارس الضارية ، وبخاصة في ولايات الثغور (التخم) فهو يقول : « حيثما وجدت الغابات ، كما هو الحال في هركاني وكردستان ، يوجد كثير من الحيوانات المتوحشة ، الأسود والذئبة والبيور والتمور والشيماهم والخنازير البرية » . (ج ٢ ص ٢٩) .

٥ هوامش الفصل الرابع والعشرين

(١) سيتضح للقارئ على نحو أخذ صحة البيان عن مدينة تايكان أو تايكان (وكتبت كايكام في المخطوطات وفي الخلاصات الإيطالية تايتام) التي تقع بين منابع نهر جيحون (وهو الاسم القديم لنهر أوكسوس أو أموداريا) . يقول ابن حوقل : « ان أعظم مدينة في طخارستان هي : (تايكان) التي تقع في سهل على مقربة من الجبال . ويرويه نهر عظيم وبها كثير من البساتين والحدائق (ص ٢٢٤) . وتفصل بين تايكنا ويداكشان مسيرة سبعة أيام (ص ٢٣٠) انظر أيضا أبي الفداء . ويفرق هذان المؤلفان بوضوح بينهما وبين مكان اسمه طالقان التي تقع جنوب غربى بلخ قرب مرو الروض ويقوم على صخرة شديدة الانحدار ، ولكن الادريسي يطلق على الأولى اسم طالقان وتابعه في ذلك الجغرافيون العصريون وبخاصة دانفيل الذي ورد الاسمان في خريطته بنفس الحروف ، يقول الملازم مكارتنى ، متحدثا عن روافد نهر جيحون التي تقع عند ملتقاها (تاليكان) أو (تايكان) : « يمتد مجراها في إقليم جبلى ولكنه يحتوى على أودية مفرطة الثراء والخصب وتنتج كل أنواع الفاكهة بأعظم وفرة » . - انظر الفنستون « Acc. of Canbul » الملحق ص ٦٥٠ .

(٢) يوجد هذا النوع من الملح البصري الصلب في أرجاء عديدة من البلاد ، ويصفه شاردان كالتالى : « يستخرج الملح في ميديا وأصفهان من المناجم ، ثم يحمل في كتل ضخمة مثل الحجر السهل الكسر . وهو بالغ الصلابة في بعض الأماكن مثل الموجود في صحراء كرمان ، حتى لتستخدم كتله الحجرية في بناء منازل الفقراء » . (ج ٢ ص ٢٣) ويقول الفنستون متحدثا عن كان يقع في بلاد الأفغان : « ان الطريق الذى يلى ذلك المكان شق في الملح الصلب عند سمع جبال من ذلك القطر ، تعلو في بعض الأماكن أكثر من مائة قدم فوق سطح النهر . والملح بها صلب صاف يكاد يكون نقيا » . انظر : Acc. of Canbul ص ٢٧ .

(٣) يحدد شاردان اللوز والفسق كليهما بين منتجات المناطق الشمالية والشرقية من فارس : « ينمو الفستق في منطقة قزوين

وما حولها ٠٠ ولديهم فوق ذلك اللوز والبندق الخ ٠٠ ويتم تصدير
أعظم مقدار من الفواكه من مدينة يزد « ٠ (ج ص ٢١) ٠

(٤) اجتاحت هذا الاقليم منذ تلك الأيام جنس آخر من الناس ٠
يقول الفنستون : « عبر الأوزبك نهر سيحون لأول مرة قرب بداية القرن
السادس عشر ، واذ انهمروا انهمرا على الممتلكات التابعة لأحفساد
« تيمور لك الذين كانوا فى حد ذاتهم غزاة مغيرين ، فانهم سرعان
ما أجلوهم عن بخارى ، وخوارزم وفرغانة ، ونشروا الرعب والجزع
فى اقصى اجزاء امبراطوريتهم المترامية ٠ وهم يمتلكون الآن بالاضافة
الى باخ ، ممالك خوارزم (أو أوزجونج) وبخارى وفرغانة ، وربما
بعض انطار أخرى صغيرة فى هذه الناحية من بيلوت طوغ ، وقد بلغنى
أنهم يوجدون أيضا وراء بيلوت طوغ ، كما يمتلكون شرقا حتى خوقن على
الأقل ، على أنه لا أستطيع التحدث فى هذا عن ثقة ٠ وهم ينتمون الى
ذلك الفرع الكبير من الجنس البشرى المسمى فى آسيا باسم الترك ،
والذى يؤلف هو والغول والمنشوريين ما نسميه باسم الشعب التترى ٠
ولكل من هذه الأقسام الثلاثة لغته الخاصة المنفصلة ، فاما لغة الترك
نواسعة الانتشار بكل أقطار غرب آسيا ، انظر : Account of Caubul
ص ٤٦٥ ٠

● هوامش الفصل الخامس والعشرين

- (١) من الواضح أن هذا الاسم الذي ورد في النصوص اللاتينية ، وكنا في نسخة : راموسيو : « سكاسم » وورد في الخلاصات الإيطالية أشاسم ، هو اسم كشم كما ورد في خريطة دانفيل ، كما أنه « كيشم آباد » في خريطة الفنسنتون ، التي تقع قرب نهر غوري الذي يسقط مياهه في نهر جيحون ، وتقع إلى الناحية الشرقية قليلا من خط طول كابول . وان ابن حوقل الذي يصفها بعد الحديث عن تاكان مباشرة ، وقبل الشروع في وصف بداخشان ، ليعلمها خش « Khesh » ويقول أنها : أكبر مدينة في هذه المنطقة الجبلية . ويظن ح . ر . فورستر (في Voyages in the North ص ١٢٥) أن سكاسم هي الشاش على نهر سر أو سيحون ، بيد أن ذلك مناقض لكل احتمال ، وذلك بالنظر إلى بعدها الشديد عن المكان الوارد ذكره أخيرا ، وذلك بينما كشم أو كيشم ليست فحسب . قرب المكان الذي ورد وصفه بعد ذلك مباشرة ولكنها أيضا تقع على الطريق المباشر الذي يوصل إليه .
- (٢) لا مشاحة أن هذا المكان هو بدخشان ، بالطريقة الصائبة التي يكتبها ابن حوقل وغيره من الجغرافيين ، وان كثيرا ما نطقت بلخشان . واليك وصف ده هربيلوه لموقعها : « ان بدخشيان بلخشيان إقليم يشكل جزءا من ولاية طخارستان Thokharestan ويمتد قرب رأس نهر جيحون أو Oxus الذي يحده من الجانب الشرقي والشمالي . يقول الفنسنتون في كتابه Acc of Canbul : « يبدو أن يدوخ شون وان كانت اقليما رحيبا ، فإنه ليس سوى واد مترام يمتد صعدا من ولاية بلخ إلى بيلوت طوغ ، بين الجزر المتصلة بالبامير وبين سلسلة جبال « هنكوش » (ص ٦٢٨) .

• هوامش الفصل السادس والعشرين

(١) عندما يتحدث أبو الفضل عن اقاليم السيراد وبيجور ، اصفها بأنها تتألف من تلال ومجاهل وتسكنها قبيلة يوسف زاء يهضى ويقول : « فى عهد مرزا ألوغ بك (١٤٥٠) ، وفدت قبيلة مسلطا التى تعلن أنها تنحدر من ابنة السلطان سيكندر ذى القرنين ، قادمة كابول وتملكت ذلك القطر . وهم يقولون ان سيكندر ترك فى كابول كوديعة عند أحد أقربائه ، والآن يسكن بعض المناطق الجبلية سلالفة الذين يحملون شجرة أشسابهم فى أيديهم (انظر الايين الأكبر ص ١١٠ بالفارسية ص ١٩٥) . ويلاحظ الملازم ماكارتنى ، أيضا هذا الاقتضا ويقول فى مذكراته Memoir : « يدعى ملك درواز (قرب حتاب جيحون) أن يرجع نسبه الى الاسكندر الأكبر ويسلم جميع جيحون بمدعياته » . (انظر Acc. of Canbul التذييل ص ٦٢٨) ولا يك يوجد داع للإشارة أن كلمة ذو القرنين تعنى وجود « قرنين له » وأن لقب أطلقه الشرقيون على الاسكندر الذى يسمونه « سيكندر » أيضا من شكل رأسه الذى يظهر على العملات اليونانية ، التى ظلت سقداوا طويلا ، ثم قلدت بعد ذلك فى فارس .

(٢) يذكر كل مؤلف عالٍ شئون هذا القطر انتاجيه الاثنين ، وهديواقيت الببالاس (الذى يعده الشرقيون نوعا من الياقوت الأزرق hyacinth وحجر اللازورد « Lupis Lazuli » يقول ابن حوقل « تنتج بدخشان الياقوت Laal واللازورد . وتوجد مناجمهما بين الجبال » (ص ٢٢٥) . ويقول ده هريلوه : « فى جبالها يوجد منجم الياقوت الذى يسميه الشرقيون بالبديشيانى والبلخشياني والذى نسميه بياقيت الببالاس (نسبة الى بلخشان) » . ويقول الفنستون : « أن ذلك الجزء من بيلوت طوغ داخل بدوخ شاوون ينتج الحديد والملح والكبريت فضلا عن سقداو وافر من حجر اللازورد ، على أن مناجم الياقوت الشهيرة التى من أجلها أكثر الشعراء الفرس من الإشارة الى اقليم بدوخ شاوون تقع فى التلال الأخفض قرب نهر جيحون . وهى لا تستغل فى الوقت الحاضر » . (ص ٦٢٩) .

(٣) ربما ذهب البعض الى انه لا جدوى من محاولة العثور عن مصدر ثقة تقابل عليه اسم ذلك الجبل المعين الذى تستخرج منه هذه الأحجار ، على ان هناك اسما قريب المشبه جدا من سيكيان يبدو امام نواظرنا فى ناحية تقع قرب الأماكن التى كنا نتحدث عنها . يقول ابن حوقل : « ينبع نهر جيحون (أو الكسوس) داخل أراضى بدخشان ، ويتلقى مياه روافد أخرى كثيرة . ويخرج نهر الوخشان من تركستان الى أرض وخش قرب جبل تمر فوقه قنطرة بين خولتان وحدود الوايش كرد (وهى فاش غيرد عند دافيل) . وتوجد قرب وخش بعض نواح (لما وراء النهر) مثل دبخان وسكينة : والاثنان تابعتان للكفرة . . وتوجد فى وخشان مناجم للذهب والفضة » (ص ٢٣٩) . والراجع أنه يعنى بالكفرة ذلك الجنس من الناس المسمى بالكفار ، الذى توصف بلادهم وأحوالهم العجيبة فى الملحق الذى ذيل به الفنستون كتاب Acc. of Canbul بعنوان كاوفيرستاون Caufirstaun ص ٦١٧ ، وهم الذين يعتقد بعضهم أنهم سلالة اغريق باكتريانا .

(٤) يقول أبو الفداء متحدثا عن بدخشان :
« Inde effectur ol lazurd et ol bellanu, sen lapis lazuli et beryllus .
(تقويم البلدان كتاب ٣٥٢) وأنظر أيضا فقرة بنفس هذا المفاد مقتبسة من ابن حوقل فى الهامشة رقم ٢ ص ٨٣ . (كتاب المسالك والممالك) .

(٥) يلاحظ الفنستون أن « خير بلاد للتربية (للمخيل) فى اقاليم كابول هى بلخ ومن تلك الولاية (المتاخمة لبخشان) ومن اقليم التركمان بالنى مجرى نهر جيحون ، يجلب العدد الأكبر من الخيل المصدرة ، . (ص ٢٩٦) ان عادة حذو الخيل لتبدو غير ضرورية حيثما لا تكون الأرض حجرية ولا صلبة على نحو خاص . فهى فى سومطرة مثلا لا تحذى أبدا ولا فى جاوه اللهم الا فى بعض حالات فى سوارع باتافيا المرصوفة .

(٦) ان الشعير الوارد وصفه هنا هو النوع المسمى علميا
Hordeum nudum, hordeum glabrum and hordeum vulgaris seminibus decorticatis.

وتعبر بدون قشر (Senza scorza) الذى استخدمه مؤلفنا ، هو بالضبط الاسم النوعى الذى يطلقه عليه لينثاوس (عالم النبات السويدي المشهور) .

(٧) يستخرج الزيت ببلاد الهند من ذلك الحب Sesamum Orientale

بوجه رئيسى ، ويوجد كل من الجوز (عين الجمل) والبندق ، اللذين يمكن استخراج الزيت منهما ، بالأصقاع الشمالية لفارس .

(٨) يقول شاردان : « ان أكثر ولايات فارس وفرة فى الماشية هى ولاية باكتريانا ٠٠٠ الخ . وقد رأيت بها قطعانا من الغنم كانت تغطى مساحة من أربعة الى خمسة فراسخ من الاقليم » (ج ٢ ص ٢٩ ، ٤) .

(٩) لا بد ان اقامة مؤلفنا فى بدخشان التى يشير اليها - مؤلفنا هنا ، حدثت فى الفترة التى أرسله فيها الاميراطور قبلاى فى احدى المهام الى ولاية خراسان أو خوارزم وهى التى ورد ذكرها فى الجزء الأخير من الفصل الأول .

(١٠) يقول بوتنجر فى وصفه الذى الذى ترتديه نساء بيلوخ : « ان سراويلهن واسعة وسعا غير معقول ، كما أنها مصنوعة من الحرير أو من خليط منه ومن القطن » . انظر Travels in Beloochistan and Sindh ص ٦٥ .

● هوامتس الفصل السابع والعشرين

(١) يمكننى أن استنتج من الموقع الجنوبي أو يقول أصبح الجنوبي الشرقي لهذا المكان بالنسبة لمولايه بدخشان ، وكون المسافة تقارب المئتي ميل ، فضلا عن ظروف أخرى ، - أن المقصود من باناسيا (وهى فى الخلاصات باسسيا) هو بايشور أو بيشاور ، وهى مدينة لا تبعد كثيرا عن الملتقى الرئيسى للأنهار التى تؤلف نهر السند أو الاندوس ، ويصفها فورستر بأنها ضخمة أهلة بالسكان ، ونتيجة لموقعها المختار ، فهى سوق مهمة وهى مسكن لتجار اغنياء . أجل انه يقول ان الذى انشاها هو أكبر الذى بدأ حكمه فى عام ١٥٥٦ ، ولكن رغم أن ذلك الملك المستنير ربما أدخل التحسينات على بايشور ، كما أسس بالفعل مدينة أتوك ، ابنى من ذلك على النهر ، فان هناك دلائل فى « آيينه » تدل على ان بايشور كانت موجودة قبل زمانه . اذ يذكر ذلك « الآيين » : « ان يكرام ، المسماة عادة باسم بايشور ، تستمتع بفصل ربيع بهيج . وبها معهد جوزيكيهترى ، وهو مكان يعد منتجعا دينيا وذلك لطائفة الجوجية Jowgies بوجه خاص ، » (انظر الآيين الاكبرى مج ٢ ص ٢٠٥) ليس هذا وصف مدينة حديثة العهد ، ولا هى ، لو أن سيده بناها ، ما ذكرها أبو الفضل بمثل هذه الاستهانة والعبارات البسيطة . على ان من الراجح على الجملة ان فورستر طبق على بايشور ما سمعه عن أتوك .

(٢) من الواضح ان الناس الوارد وصفهم هنا ، ان لم يكونوا هنودا بالفعل ، فانهم شعب شقيق تقريبا . يقول الفنسرتون : « تماثل بيوت قبائل بيشاور وطعامهم وعادات حياتهم مثيلاتها عند البوسوفزين . ولثياب أيضا بعض أوجه التشابه ، لانها خليط من زى الهند والافغانيين » (ص ٢٥٩) .

(٣) يقول فورستر : « ان حرارة بيشور بدت لى أشد حدة من أى قطر آخر زرته فى المناطق العليا من الهند . ويصبح المناخ فى الانقلاب الصيفى ملتهبا أو يكاد » . (مج ٢ ص ٥٠) . ويقول الفنسرتون : « تقع بيشاور فى واد خفيض تحيط به التلال من جميع النواحي عدا الشرق . ومن ثم فالهواء محبوس كثيرا هناك والحرارة يزداد

استعدادها . وظل مقياس الحرارة في صيف ١٨٠٩ ملازمًا ليضعة أيام
درجة ١١٢ ، ١١٣ ، في خيمة كبيرة مبردة تبريدًا صناعيًا » .
(ص ١٣٢) .

(٤) ويضيف فورستر قوله : « والأسواق مزودة بوفرة بالأطعمة
ذات الأنواع الممتازة ، وبخاصة لحم الضأن الذي هو لحم الغنم ذات
الذيول الكبيرة » . (ص ٥٠) .

● هوامش الفصل الثامن والعشرين

(١) لا شك أن المقصود بكلمة كزمور أو شزمور (شريمور في الترجمات اللاتينية وكسيمور في الخلاصات الإيطالية) هو كشمير .
والحق أن المساهمة بين بايشور أو بيشاور ، لم يكن ممكناً أن تكون أقل من منتي سيل ، وفي منطقة جبلية ، فلا بد أنها تسنغرق أكثر من رحلة سبعة أيام ، ولكن لا ينبغي لنا أن نتوقع دقة مضبوطة في هذا الصدد ، كما أن ما لدينا من خرائط تختلف اختلافاً بالغاً في الموقع النسبي للمكانين . عن البيانات التفصيلية حول هذا الإقليم الشائق ، يستطيع القارئ الرجوع إلى « الآيين الأكبرى » ورحلات برنييه وفورستر ، وما كتبه رنيل في .
Memoir of a Map of Hindoostan .
وكتاب Acc. of Canbul للفنستون . ويبدو أن سكانها أبان الأزمان التي كتب فيها مؤلفنا كان معظمهم من الهندوك ، لأنها كانت في عصور أقدم - تعد أحد المقرات الرئيسية لتلك الديانة وللألب السنسكريتي . وأغرت الثروة المكتسبة من صناعتها ذائعة الصيت ، وقداستها الوثنية ، أطماع المسلمين كما أثارت حميتهم التعصبية ، فغزوها في زمن مبكر ، ولكن نظراً لأنها لم تقع في قبضة جنكيز خان ، أو خلفائه المباشرين ، فإن الحديث يدور عنها هنا على أنها مملكة مستقلة .

(٢) « من الجلى أن لغة كشمير » - فيما يول فورستر - « تنتزع من الأرومة السنسكريتية وتشابه في صوتها - لغة الماهارتا » .
(ص ٢٢) . ويقول الفنستون : « أن أهل كشمير أمة خاصة من الأرومة الهندوكية ، وهم يختلفون لغة وعادات عن جميع جيرانهم » . (ص ٥٠٦) .

(٣) هذا يتفق مع ما ورد في الآيين من أن : « الهندوك يعدون كشمير بأجمها أرضاً مقدسة ، فيها خمسة وأربعون مكاناً مكرساً لمهاديو ، وأربعة وستون لبينسن (Bishen) وثلاثة لأبراهما واثنان وعشرون لدورجا (ربة الجبال) » . (مج ٢ ص ١٥٦) . ومن ثم فليس بعيد الاحتمال إطلاقاً أن أبراهمة هذا القطر القصي والمقدس ، ربما كانوا هم الدين أمدا جنوب الهند بكثير من أصنام الهتهم تلك المصنوعة من الحجر

رحلات ماركوبولس - ٢٤١

والنحاس التي تملئ بها معابدهم : وذلك لأن الأوثان المصنوعة محليا ، كان لها ، فيما نظن ، كرامة في بلدنا أقل من تلك المستوردة من أماكن : أصية اشتهرت بالقداسة •

(٤) يقول « الآيين الأكبرى » : « ان معظم تجارة ذلك القطر يتم نقله بالطرق المائية » • فان نهر جايلوم أو بيهوت الذى يفيض فى وادى كشمير ، كما انه صالح للملاحة هناك ، يسقط مياهه الى نهر الاندوس (السند) بعد توحيدها مع مياه الشيناب والرافى ، غير بعيد من بلدة فراتان : ولكن لما كان مجراه بعد مغادرته ذلك الوادى يمر من خلل اقليم جبلى ، فان الملاحة لا بد أن تنقطع فى بعض الأماكن •

(٥) لئن كان سكان كشمير هندوكا فى ذلك الوقت ، الأمر الذى يحملنا كل سبب على اعتقاده ، وان أخضعت فى بعض الأحيان لنفوذ المسلمين ، فربما وجدنا من العسير التوفيق بين عادات ذلك الشعب وبين ما يذكر هنا حول طعامهم وأنه يتكون جزئيا من اللحم ، ولكن الواقع أن الطوائف الهندوكية ليست عمليا شديدة التدقيق فيما يتعلق باللحم ، كما قد تعلمنا سنن دينهم أن نعتقد • أضف الى هذا انه لما كان أهل كشمير يشتهرون فى كل العصور بالخفة والانحلال ، فلن يصح لنا أن نقرع سنهم — مهما تقدست أرضهم — مراعاة دقيقة لتعاليم الفيدا •

(٦) كان اعتدال مناخ كشمير على الدوام موضوعا للاطراء ، وكان سببا فى جعلها مصيفا لأباطرة هندوستان المغول : يقول « الآيين الأكبرى » : ان هذه الصوبة Soobah يكملها تمثل حديقة تنعم بربيع دائم ، (مج ص ١٥٢) •

(٧) يكاد وادى كشمير ، الذى تحيط به وكوه التابعة للقوقاز الهندية ، يكون محاطا بجبال عالية ، ومن ثم فولوجه عسير على أى جيش ، ومع هذا ، فنظرا لما اتصف به الأهالى من طبع غير حرسى فانه تعرض لكثير من الغزوات • ويضيف أبو الفضل قوله : « ان للتحصينات التى زودته بها الطبيعة ارتفاعا مدهشا ، •

(٨) يبدو أن هؤلاء الرهبان يماثلون الرهبان البوذيين فى اثاوسيام ونسك (Gylongs) التبت ، الذين يقيمون فى مجتمعات ، تحت ادارة كبير ، يطلق عليه اسم سنكرا فى القطرين الآريين والاما فى التبت • وواضح أنهم مثل هؤلاء أيضا كانوا من البوذيين • ومع أن هذه الطائفة الحرة ربما تكون اختفت من كشمير منذ تلك الأيام ، كما ذهبت من معظم ولايات الهند الأخرى ، فان أبا الفضل الذى كتب فى القرن السادس

عشر يلاحظ أن بعضهم لا يزال باقيا في أيامه • فهو يقول : « في المرة الثالثة التي تبع فيها المؤلف الركاب الامبراطوري الى منطقة كشمير البهيجة ، التقى ببعض الشيوخ من رجال هذا الدين » • (مج ٣ ص ١٥٨) وهو يثبتنا في موضع آخر : « أجل رجال هذا القطر هم » الريشيون Kishis الذين لا شك انهم وان لم يعلوا ان يكلوا أنفسهم باغلال التقاليد (هكايات البوران Puranas) ، فانهم من عبدة الله المخلصين • وهم لا يذمون أية طائفة أخرى ، ولا يسألون أي انسان شيئا • وهم يزرعون الطرقات بأشجار الفاكهة ليمدوا المسافرين بما ينعمونهم ، ويمتنعون عن تناول اللحم ، ولا يباشرون الجنس الآخر أبدا • ويوجد بكشمير ما يقارب الألفين من أفراد هذه الطائفة • (مج ٣ ص ١٥٥) ،

(٩) يلاحظ أبو الفضل ، وهو يتحدث عن كهنة ديانة بوذا في كشمير ، أنهم وان امتنعوا عن قتل الحيوان فانهم لا يرتضون أي نوع من الطعام يقدم اليهم ، وكل مامات من تلقاء نفسه عدوه مقتولا بيد الله وأكلوه تبعا لذلك • (مج ٣ ص ١٥٨) ، وتوجد بين الهندوك طوائف كثيرة يسمح لها بتناول أنواع معينة من الطعام الحيواني وان حظر عليهم مع ذلك سقك الدم •

(١٠) هنا يعطينا مؤلفنا ايضا منا منطقيا مستقيما ومفهوما للخطة التي يتبعها في وصفه الأقطار العديدة التي دخلت في حيز مشاهدته أو معرفته ، ومما يؤسف له أنه لم يرسم خطا أوضح يفرق بين الأماكن التي شهدا بنفسه وتلك التي جمع فيما يتعلق بها معلومات من غيره من الناس • واني لأميل الى الاعتقاد بأنه لم يزر بلاد البنجاب (أو الاقليم الذي تحتضنه الأنهار التي تؤلف الاندوس (السند) ، وأن ما يروي عن بيشاور وكشمير ، استقاه اثناء اقامته الطويلة في بدخشان من أشخاص كانوا يرتادون تلك الأماكن بقصد التجارة •

• هوامش الفصل التاسع والعشرين

(١) الآن ويعد أن ترسمنا خط وصف مؤلفنا عبر أقطار مكننتنا
 وبها كتابات رحالة آخرين من تبين مواطىء قديميه ، فأننا لم وجدنا
 انفسنا الآن فى منطقة يكننفها قدر اكبر من الغموض وعدم التاكيد ، لم
 يجز أن ينسب الاختلاف الى أية زيادة فى الغموض من جانبيه ، قدر
 ما ينسب الى اعوازنا فى المعلومات المقابلة لها من جانبنا ، وذلك نظرا
 لأن معرفتنا بهذه المنطقة معيبة الى حد كبير . ومع هذا فقيما يتعاق
 باسم قوخان وموقعها (لأن هجاءها يخلف قليلا فى مختلف الترجمات) ،
 فأننا لم نكرم نهائيا من أضواء مرشدة ، بين قديمة وحديثة . ويصير
 تعرفها ، ابتداء من علاقتها بمكان يسمى وايشجرد أو وايشكرد : وهو
 مكان يقول عنه ابن حوقل : « يخرج نهر وخشاب من التركستان الى
 أرض وخش قرب جبل توجد عنده قنطرة توصل بين خوتلان وحدود
 وايشكرد » . ثم انه يجرى من ذلك المكان نحو بلخ ويسقط فى نهر
 جيحون قرب ترمذ » . (ص ٢٢٩) ونحن نعثر فى الفقرة التالية المقتبسة
 من الادريسي على مدينة فوخان وقد ربطت بالأماكن المذكورة هنا :
 « De regionibus finitimis Vachas (Wekhsh or Wakhsh)
 et Gil, sunt Vachan (Vokhan el Sacpita (Sakitah) in Terra Tore.
 (ص ١٤١) »

وهنا يظهر أن وايشجرد هى القطر الواقع بين بدخشان ونوخان ،
 التى يقول عنها مؤلفنا انه يحكمها أخ ملك الأولى . وما يذكره الادريسي
 حول هذا الوادى ، وكذا أقوال مؤلفنا عنه ، يؤيدها تماما ما ورد فى
 Memoir شرحا للخريطة المثبتة فى أول كتاب Acc. of Canbul
 حيث يقول الملازم ساكارتنى متحدثا عن نهر آمو أو جيحون (Oxus)
 ما نصه : « ينبع هذا النهر من مرتفعات بامير . وهو ينبثق من واد
 ضيق عرضه مائتان أو ثلاثمائة ياردة فى ووخان ، وهى الحد الجنوبي
 لبامير ، وهذا الوادى محوط من ثلاث جهات بالجبل المرتفع المكسل
 بالثلوج المسمى بوشيوخور ، من الجنوب والشرق والغرب . ويرى النهر
 منسوبا من تحت الثلج » . (التذييل . ص ٦٤٦) . هذا وان مجرد
 تحقيق اسم وموقع ناحية من النواحي ، على مثل هذا النحو من

الانعزال ، ينبغي أن يعد اختيارا لا يمكن الاعتراض عليه لصحة وأصالة رواية رحالتنا .

(٢) ربما أمكن أن نستنتج من طول قرون هذه الحيوانات ، والاستخدامات التي كانت تستخدم فيها ، أنها نوع من الوعل أو تيس الجبل ، ومع أنها سميت مونتنى ، فى الحالة الأولى ، فإنها ذكرت بعد ذلك تحت اسم بتشى أوتىوس Boucs ، ويؤيد هذا الظن ما ورد عند الفنستون فى Account of Canbul يقول : « ان التىوس موفرة بكل المناطق الجبلية للبلاد ، كما أنها ليست نادرة بأية حال فى السهول . وبعض أنواعها قرون عجيبة الطول مدهشة الالتواء » . (ص ١٤٤) . ويلاحظ ر. فورستر أن هذه الحيوانات تسمى موفلون وموفيونى أى الضأن عند المؤلفين الفرنسيين والاطالين .

(٣) نجد سهل اليا مير المرتفع Pamer, Pamire, Pamir بجميع خرائط فارس البلدان المجاورة . وهو يشغل فى الخريطة المرافقة لكتاب Georg. Memoir لمكدونالد كناير ، مكانا يتفق مع الأوصاف التي نستنتجها من وصف مؤلفنا .

(٤) هذه المنطقة الألبينية ، التي يسميها الجغرافيون الشرقيون بلور ، وضعت فى خريطة ستراهلنبرج ، ومنها نقلت ، فيما يظهر ، الى خرائط دانفيل ، ولكن موقعها بالنسبة لليامير والبخشان ، سيتجلى أنه أكثر اتفاقا مع بيان مؤلفنا بالرجوع الى الخرائط الحديثة التي وضعها مكدونالد كناير وسكارتي . وفيما يتعلق بطبيعة الاقليم يتحدث عنها الفنستون بعبارات لا تختلف الا قليلا عن تلك المستخدمة فى النص . حيث يقول ان عزة الله (Izzut. Hoollah) يديج صورة مخيفة عن الزمهرير والقفر فى هذه المنطقة المرتفعة ، التي تمتد ثلاث مسيرات فى أعلى منطقة رالاكليم بين يرقند ولاى (أولادوك) . ص ١١٣ .

● هوامش الفصل الثلاثين

(١) ان كاشجار أو قشغر ، مدينة معروفة ، ومستودع للتجارة المتبادلة بين بلاد القنار (Tartary) والهند والصين . وهى تقع فى ذلك الجزء من التركستان الذى يطلق عليه الأوربيون اسم بوشاريا الصغرى ، وكانت فيما سلف عاصمة لمملكة بنفس الاسم . وكانت ضمن الأماكن التى اجتاحتها جيوش جنكيز خان التى لا تقاوم . وعند تقسيم امبراطوريته أدخلت ضمن ميراث ابنه جاغتاي . وبعد زهاء قرن من زمان مؤلفنا فتحها تيمورلنك ، وفى ١٦٨٣ منحها كنتايش الخلموك أى خانهم الأعظم ، الذى أخذ منه الصينيون عنوة الجزء الشرقى من بوشاريا الصغرى فى ١٧٦٨ .

(٢) يقول ده هربيلوه : « يقول البرجندى ، انها بالغة الاتساع وانها تعد عاصمة للأقليم كله ، وان سكانها مسلمون ، وان كثيرا من العلماء نشأوا فيهم » وتتحدث عنها يوميات رحلة ماكسونالد كناير بانها تقع فى واد كثير الزرع قرب نهر جميل وان لم يكن صالحا للملاحة ، على السفح الجنوبي لسلسلة جبال تسمى تيروك دوان .

(٣) يبدو أن سكان بوشاريا ، الواقعة فى الأجزاء الوسطى من آسيا ، يماثلون فى عاداتهم التجارية وشحمهم الأرمنيين الذين ينتابون مدن الهند الرئيسية والذين يصفهم فورستر فى « رحلاته » بأنهم مجدون وأذلاء وغير أمناء ، وأنهم يسلكون مختلف الطرق التجارية بهمة لا تعرف الكال ، وأنهم لا ينفكون يقيسون متعهم على قدر سعة ذات يدهم وثرانهم - مج ٢ ص ١١٧ .

● هوامش الفصل الحادى والثلاثين

(١) من البين هنا ، انه لكى يدخل المؤلف وصف مكان على اُممية سمرقند ، التى لعله زارها أثناء احدى رحلاته الرسمية ، فانه ينسلخ عن خط السير الذى كان يسلكه نحو كاتايا ، ويقوم بما يمكن اعتباره نزهة (أو رحلة خلوية) الى يوشاريا (بخارى) الكبرى أو ما وراء النهر . وقد استولى الخليفة الوليد على هذه المدينة الشهيرة من الفرس فى عام ٧٠٤ ، كما استولى عليها جنكيز خان من سلطان خوارزم فى ١٢٢٠ فأسلمها ليد النهب والسلب ودمر كثيراً من مبانيها على أنها ربما كانت تبرأ من آثار ذلك البلاء فى مدى الخمسين أو الستين عاما التى مرت قبل الفترة التى نتحدث عنها الآن . على أن تيمورلنك أعاد إليها كل فخامتها وبهائئها القديم قرب عام ١٣٧٠ فأصبحت عاصمة لدولته المترامية الأطراف . ولكن سقوطها فيما بعد فى يد التتار الأوزبكيين وبقاءها فى قبضتهم عند نهاية القرن الماضى ، أدى الى تدهور شأنها كثيراً .

(٢) نظرا لأن قشغر هي آخر مكان ذكر ، فربما جاز الظن بأنه يتكلم عن معالم سمرقند كما تبدو من هناك ، ولكن لما كان الاتجاه الواقعى ، بدلا من أن يكون شماليا غربيا (maestro) يكاد يكون غربيا بجنوب غربى ، فانه يحق لنا أن نتطلع بفكرنا على وجه اصح الى بدخشان ، التى أقام فيها طويلا ، والتى يعلن أنه يبدأ منها حديثه عن الطريق الى كاتايا . وخط عرض سمرقند . كما حسب على الربعية الجدارية التابعة ليدلوغ بك ، حفيد تيمورلنك هو ٣٧°٣٩ شمالا ، وخط طولها كما قدره الماجور رنل يقارب ٦٤°١٥ شرق جرينتش ، أو غربى قشغر بمقدار ٧°٣٠ . على أنهما وضعتا بخريطة دانفيل بمكان يبعد بضع درجات شرقا .

(٣) هذه احدى الحكايات التى وردت على سبيل الاستطراد والتى عادت بسوء السمعة على عمل مؤلفنا . وكان زجاتاي فعلا - كما يقول المؤلف - شقيقا لاكتاي (أوجداي Ogdoi) الذى خلف والده فى منصب الخان الأعظم للمغول ، ولكن ليس لدينا سلطان بأنه اعتنق المسيحية فعلا ، وان لقي منه المسيحيون تسامحا كثيرا ، كما أن روبروكي

ومايتون - يقولون بأن خلفاءه المباشرين ومانكو حفيده وابن أخ زجاتاي ، عمدوا • ويذكر النص الذي ترجم عنه مارسدن أن الظروف المشار إليها حدثت قبل كتابة هذا الكتاب بمئة وخمسة وعشرين عاما ، وهو أمر يلاحظ عليه مارسدن بأنه مهما كانت ظروف تنصر زاجاتاي مشكوكا فيها أو غير محتملة ، فإن الصعوبة التي يسببها ذلك يمكن التغلب عليها وتذليلها بسهولة أكثر من التغلب على صعوبة المفارقة التاريخية • وذلك لأنه إذ بدأ حكمه قرابة عام ١٢٢٧ وتوفي في ١٢٤٠ ، فإن الفترة التي انقضت في المدة التي دون فيها ماركو بولو رحلاته لا يمكن أن تتجاوز السبعين عاما ، حتى لو بدأت الحادثة عند حكمه . بينما مدة ١٢٥ عاما ، كما هو وارد في النص ، تحمل الحادثة خلفيا إلى ١١٧٣ ، يوم لم يبلغ أبوه إلا التاسعة من عمره فقط ويوم كانت العائلة مغمورة • وما أستطيع أن أعلل ورود هذا النوع من الخطأ السخيف ولا أن أستسيغه ، إلا على أساس الظن بأن التاريخ الذي لا يظهر في الترجمات اللاتينية أو الخلاصات الإيطالية ، كان مدسوسا في إحدى المخطوطات التي تابعها راموسيو • (والمخطوطات القديمة تتفق جميعا في العبارة المترجمة في الطبقة الحالية •

non è gran tempo che non est magnum tempus quod.

● هوامش الفصل الثانى والثلاثين

(١) لما كانت سمرقند منحرفة ، أو خارجة عن خط بطريقه الحالى ، فإن مؤلفنا يعود بنا أدراجنا الى مكان فى بوشاريا (بخارى) الصغرى ، كان تابعا فى ذلك الحين لمملكة قشغر ، التى المعنا اليها فى الفصل السابق . وكان المقصود من كارشان أو كركان هو الناحية أو بعبارة اصح مدينتها الرئيسية ، التى تشتهر أكثر باسم يركى ، وان تعرض هجاء اسمها لعدد من التحريفات بين كتاب الأزمنة التالية ، يعادل عدد ما فى نسخ عمل مؤلفنا . فالبشر البرتغالى بنيامين جويز يكتب الكلمة هكذا : « هيارشان » ، ويكتبها دوهالد : « ياركيان » ويوردها استراهلنبرج فى خريطته : « جركن » *gerken* أو هيارشان أو جوركان ، وهى عند دانقيل : « جنركن » ، كما أنها عند ده جنى : « يركن » ، وعند رحالقنا المعاصرين القادمين من جهة الهندوستان : « يرقند » . ويقول الملازم مكاريتى : « يبدو أنه بعد انقضاء خمسة أيام فى المسير شمالا بشرق من كشمير ، يبدأ مرتقى واضح ، يظل وعرا جدا مدة ثلاثة أو أربعة أيام ، وهو أقل وعورة بعد ذلك حتى ليه (ولاداك) . ويستمر المرتقى حتى السلسلة الكبيرة التى تفصل بين التبت و يرقند . انظر Acc. of Canbu ص ٦٤٦ . تنذيل .

(٢) ان الورم الاستسقاءى المزمع للساق الى درجة فظيعة ، داء معروف بأجزاء كثيرة من الشرق ، ويسمى عند العامة ببلاد الهند « بسباق الكوشن » . وعن بيان عن هذا النوع من « داء الفيل » *Elephantiasis* انظر كوردينر فى (*Description of Ceylon*) مج ١ ص ١٨٢ . أما فيما يتعلق بسبب هذه الأورام الفنية فى الحلق السماء « بتضخم الغدة الدرقية » (الجوتر) ، كما يسميها مجمع اللغة العربية . فإن الرحالة ورجال الطب كتبوا الشيء الكثير ، وهم على وجه الجملة ينسبونونه الى نوع الماء ، وان فندنت الفكرة التى ترجعه الى ماء الثلج وقد تشجعت فى مكان آخر على التعبير عن رأى بان هذه اصابات غدد الحلق ، يسببها الضباب الكثيف الذى يريم على سطوح الوديان بين الجبال العالية ولا يتبدد الا فى ساعة متأخرة من النهار *Hist. of Sumatra* المطبعة ٢ ص ٤٨ . انظر ورقة بارعة فى هذا الموضوع كتبها الدكتور ريفز نشرت فى مداولات مؤتمر الفلسفة فى عام ١٨٠٨ مج ٩٨ ص ١١١ .

● هوامش الفصل الثالث والثلاثين

(١) لا مرأ ان اسم کوتان هو خوتن (أو خوتان) (وهى يوتيين وهو تيين عند الصينيين ، الذين يرققون النطق التتري) ، وهى مكان مألوف فى اسماعنا بالاسم على الأقل ، بوصفه الموضع الذى يزود سطرأ كبيراً من آسيا بالمسك ، الذى يعده الأهالى من أفخر أنواع العطور ، والذى لا يكف شعراء الفرس عن أطرائه . وفيما عدا هذا الظرف فإن معلوماتنا عنها ناقصة جدا . ويقول مالكولم : « ان خوتن كانت فى قديم الزمان على شىء من الأهمية ، كما ان رؤساءها كثيراً ما ترد اسمائهم على الألسن ، وفتحها الصينيون فى عام ١٧٥٧ مع وشغر ويرقند وغيرها من الولايات الواقعة بنفس المنطقة ، وهى تشكل الآن جزءاً من هذه الامبراطورية الكبيرة . ويصفها شخص محترم من أهالى بلاد التتار ، زارها قبل حوالى عشرين عاماً ، بأنها فى حالة انتعاش وازدهار ، وأن كانت أصغر حجماً من مدينة يرقند ، التى تبعد عنها حوالى ١٤٠ ميلاً . ولا تزال خوتن ، حسبما رواه ذلك الرحالة ، تشتهر بمسكها ، » Hist. of Persia ص ١ ص ٣٢٤ ، هامشية .

(٢) نحن ، وان لم نجد سنداً مباشراً يؤيد زراعة الكروم فى خوتن ، فلا يخامرنا الا القليل من الشك فى صحة ذلك ، اذ أننا نقرأ عن حقول كروم العنب فى هامى أو خاميل الى الشرق ، فضلاً عن قشغر الى الشمال من هذا المكان وفى نفس هذا الكانتون أو الناحية .

● هوامش الفصل الرابع والثلاثين

(١) يقتادنا سياق وصف مؤلفنا الآن الى أماكن تقع على الجانب الشرقى من خوتن والى جوار الصحراء الرملية الكبيرة ، ونحن هنا فى الظلام لا يرشدنا شئ الا الملحوظات القليلة التى زودنا بها . والموقع الذى حدده دانفيل لبائين أويى - ين (وهى فى الخلاصات بويم او بومين) وهو على سبع درجات طولية من خوتن ، يبدو انه مبالغ فى زحزحته الى الشرق ، ومقرب أكثر مما ينبغى من تخوم الصين . وفى هذا الرأى الذى ينطبق أيضا على الأماكن المتوسطة ، التى هى مدار الفصول التالية ، فانى اعتمد على رأى المايجور رنل الذى يقول : « أعتقد أن خرائطنا واقعة فى خطأ شديد فيما يتعلق بمواقع الاقطار الواقعة بين بوشاريا (بخارى) والصين ، وكلها فى رأى آخرت أكثر مما ينبغى عن بوشاريا نحو الصين » انظر Memoir of a Map of Hind ص ١٩١ .

(٢) يلاحظ هذا اليشب ، أو ضربا من الحجر الصلب يشبه اليشب ، العديد من المؤلفين ، على أنه السلعة التى ينتجها هذا الجزء من بلاد التتار ويتحدث جويى عن أنه يستخرج من قاع النهر قرب خوتن ، وربما كان هو نفس النهر الذى يجرى بعد ذلك الى باين .

(٣) ليست الحدود الشرقية لتركستان بواضحة المعالم ، ولكن يمكن على وجه الجملة اعتبار أنها تمتد على طول تلك الشقة من آسيا الوسطى ، التى يتكلم فيها الناس لهجات اللسان التركى أى اللغة التركوتتية ، ولما كانت البخارية أو البوشارية - وان اختلطت كثيرا بالفاظ فارسية احدى هذه اللهجات ، فانه يتبع ذلك أنه لمؤلفنا كل الحق فى اعتبار الأماكن الواقعة داخل ما يسميه الأوربيون باسم بوشاريا (أو بخارى) الصغرى ، ويسميه الكتاب الشرقيون باسم مملكة قشغر ، جزءا من بلاد التركستان ، التى تصل تبعا لهذا الى تخوم صحراء كوى (جويى) الكبرى . وهى تقسم من أجل السهولة جغرافيا الى التركستان الصينية والتركستان المستقلة ، اللتين تفصلهما بعضهما عن بعض

السلسلة الجبلية الكبيرة المسماة بيلورتاج وموش تاج او ايعاموس .
ويشير الفنستون الى هذا التقسيم حيث يقول : « ان تلك القوافل التي
تجىء من جهة الهند) التي تذهب الى التركستان الصينية تبدأ من
كشمير وبيشاور : وكابل هي السوق الكبيرة في تركستان المستقلة » .
انظر (Acc. of Canbul) ٢٩٢ (وكلمات الترجمة اللاتينية
المبكرة هي . « Sunt de magna Turchia » .

● هوامش الفصل الخامس والثلاثين

(١) يبدو أن شارشان (ووردت في نسخة راموسيو تشارشان Ciarcian . وفي طبعة بال واللاتينية القديمة كيارتيام ، وفي الخلاصة الإيطالية تشارشيان Ciarchian) تتطابق مع شاخان بخريطة استراهلنبرج ، وأن كان موقعها يبدو على الأصح أنه موضع كراشاي . ويتحدث ده جنى عن منطقة تسمى تشن تقع إلى الجنوب من هامى ، وقرب بحيرة لوب ولا يمكن أن تكون إلا هذه . انظر Hist. gén. des Huns ج . الباب الثانى ص ١١ .

(٢) أن اسم المكان الذى يقال أن هذا اليشب يحمل إليه ورد !وتشاه أو أوكاه في نسخة راموسيو ، ولكن واضح أن ذلك كان خطأ . ونص العبارة الواردة في طبعة بال هو :

quos neg. def. ad prov. Cathay وهي في المخطوطات كاتاي : وهي الأمر المعلوم أنه هو الواقع .

(٣) هنا تقول الخلاصات الإيطالية بطريقة أدق أو تكاد : ما نصه « :

« Questa provincia e tutta piena de sabian par la mazzov parte ; e da cata (Kataia) infino a Poin (Peyn) e molto sabion ».

● هوامش الفصل السادس والثلاثين

(١) تظهر بحيرة لوب على خرائط الجزويت ودانفيل . ونجد على الأخيرة منها أيضا مدينة تسمى « تانتالي أو تنكاباش ، وهي مقر حكم الخان السابق لتاجازجاز ، وهي مدينة لوب عند ماركو بولو » ، ولكنه لا يظهر سنده في هذا الظن . يقول ده جنى متحدثا عن كياتيام (أو شارشان) ولوب : « هاتان المدينتان اللتان تكلمت عنهما من فوري تبدوان كئنهما هما نفس اسمى كانتشيرو وهانكيون تشيرو في خوتن ، ولكن يخل إلى أن من المستحيل تحديد موقعهما الحقيقي » . ص ١٧ على أنه بدلا من اسم لوب الذي تحمله هذه الصحراء في نسخة رامسيو ، فضلا عن معظم الترجمات الأخرى ، فإن الاسم الوارد في الخلاصات الإيطالية الباكرا هو جوب Job ، ويؤدي هذا الاختلاف في الالهاء إلى نشأة الظن ، بأن المقصود بها هو كوي ، الذي يقال أنه الاسم النقي الأصلي . يقول دوهالد : « كل هذا المتسع ، ليس سوى أرض جافة ورملية ، وهي أشد بقاع بلاد التتار جدبا . وهي التي جرت عادة الصينيين بتسميتها شامو ، وأحيانا كان هاى ، وهي كما يقولون بحر من الرمال . ويسمونها التتار كوي » ج ٤ ص ٢٦ .

(٢) ان خريطة الجزويت الملحقه بأول كتاب « Description de la Chine » لدوهالد ، تجعل الصحراء تمتد مع انقطاع جزئي بسيط ، من خط زوال بكين غربال إلى خط طول ٣٥٠ محسوبة من تلك المدينة . واذن ، فإن استحالة عبورها في ذلك الاتجاه واضحة تماما كما لاحظ ذلك مؤلفنا .

(٣) ان التتابع العام بين هذا الوصف ، اذ يراعى الناحية الفحلة للبلاد وطبيعة المحطات ، وبين البيان الذي دبجه الرحالة الممتاز جون بل من انترموني ، الذي عبر جزءا آخر من تلك الصحراء نفسها ، في طريقه من سلنجنسكي إلى بكين ، سيجده القارئ رائعا مدهشا ، كما أن مما يسترعى النظر أن عدد الأيام المستخدمة كان ثلاثين في الحالة الأولى ، وثمانية وعشرين في الثانية وأهم فرق مادي بين الاثنين هو أن بل التقى أثناء أيام رحلته العديدة بأغنام ، كما التقى بعد ذلك بقطعان من بقر الوحش ، فضلا عن سرب من طير السقساق ، بينما

مؤلفنا لم ير بهيمة ولا طائرا أثناء عبوده • ولكن ليس بمستبعد أن تكون الصحراء أكثر جذباً واشد عبوساً في نهايتها الغربية ، كما أن من المعقول في الوقت نفسه أن نظن أن خط الطريق الذي اتخذته الحكومة الصينية للمواصلات مع الممتلكات الروسية يقع خلال تلك الجهة التي يمكن العثور فيها على وسائل العيش • كما أن من الممكن أيضاً أنه قد حدثت بعض التغيرات في مدى الأعوام الأربعمئة والخمسين ، وأن سلالة من الغنم ربما تكون حملت إلى تلك الأصقاع التي أظهرت بعض بوادر الانتبات •

(٤) تجد في أعمال الجغرافيين الصينيين أن هذه الحكايات الجاهل موضوع التصديق العام في منطقة بلاد التتار الموصوفة هنا •

• هوامش الفصل السابع والثلاثين

(١) بعد عبور درب ضيق في الصحراء الكبيرة ، في اتجاه يمضى من مدن ممثلة كسمر نحو اعرب نقطة في الصين ، يقتاد الطريق موبنا بصيرة طليعية الى مكان يسمى شاتشيرو حسب المبطون العربي والإنجليزى . يقول ده جنى : « توجد الى الشرق من بحيرة لوب مدينة يدعىها ماركي بولو شاشيون ، وهى شاتشيرو أى مدينة الرمل عند الصينيين » . (ص ١٢) وسيتجلى ان تحريف هذا الاسم من شاتشيرو الى شاشيون انما يرجع أساسا الى صعوبة تمييز حرف « ش » من حرف « ت » فى المخطوطات ، وسيتجلى ان نسبة ضخمة من أسماء المدن الصينية ، الواردة فى الأجزاء التالية من العمل متأثرة بهذه الغلطة . ويقع المكان على حوالى أربع درجات الى الغرب من سوتشيرو (وهى موقع عسكري مهم على الطرف الاقصى الغربى من ولاية شن سى) ، وتحكم فى مدخل المر أو الخائق الشهير الموجود بين الجبال ، والمسمى يانج كوان . وورد فى تاريخ جنكيز خان ، تأليف يى ده لاكرواه أن احتلاله لهذا الموقع الحصين كان مزية عظيمة عادت بالفائدة على ما تلا ذلك من عملياته على الولايات الجنوبية بالصين ، (ص ٤٨١) . وربما بدا ضربا من الاعتراض على هذه المطابقة بين هوية شاتشيرون وشاتشيرو ، التى تقع فى الطريق المباشر الى - وعلى غير مسافة بعيدة من - ولاية شن سى الصينية ، ما ورد فى الفصل التالى من أنه يمضى متحدثا عن مكان غير متوسط ، ولكنه على العكس أكثر بعدا عن الحدود ، كما أنه يقع فى اتجاه مخالف . ولكن ينبغي الا يغيب عنا أن عمل مؤلفنا ليس مجرد دليل للسائحين وأنه يعترف أنه يصف أجزاء لا تقع على خط رحلته الأصلية ، وانما لعمله قمام بزيارتها فيما بعد وهو فى خدمة الامبراطور . وهنا أيضا ، قد يصح لنا أن نلاحظ أنه لا يعطى أى تقدير للمسافة ، كأنما الطريق مستمر ، لكنه ينفك ليتحدث عن أماكن أخرى ، « عند رأس الصحراء » .

(٢) ليس من غير المألوف أن نعد اسمى تانجوت والتبت وكلاهما اقتبساه الفرس عن المغول ، اسمين مترادفين ، غير أن الاسم الأول ينطق على جزء أكبر من بلاد التتار ، يتأخم الولايات الغربية من الصين،

ريضم التبت فى قسمه الجنوبي ، بينما قسمه الشمالى يشمل النواحي التى يتجه مؤلفنا الان الى التحدث عنها . ومع هذا فانه حسب بعريف دوهل ، لا يمتد منزغلا الى الشمال بهذا القدر الى الموقع المخصص لمدينة شاتشيوى فى خريطة الجزويت .

(٣) وصف مؤلفنا سكان مناطق الجهة الغربية لصحراء لوب او كويى بأن معظمهم من المسلمين ، ولكنه عند عبور تلك الشعة والدخول الى ولاية تانجوت ، او سيفان ، كما يسميها الصينيون ، اذا هو يصنف الأهالى بحق بانهم من عبدة الأوتان . وهو يعنى بالوثنية هنا ، الدين الذى يعرف بأنه ديانة اللاما الأعظم ، أو الملك الروحى ، الذى يعتقد أتباعه أنه سرمدى خالد ، بواسطة التجدد (الانبعاث الروحى المتعاقب لنفس الشخص الواحد فى أجسام مختلفة ، ولكنهم لا يعبدونه ، كما جرى بذلك الظن . وانما تقدم عبادتهم الى عدد من تماثيل الآلهة ، وعلى الأخص الى صنم ، غالبا ما يكون هائل الحجم ويسمونه « شاكيا مونى » . وذلك هو البوذا الوارد ذكره فى الأساطير (الميثولوجيا) الهندوكية ، والذى تنتشر عقيدته انتشارا أوسع بكل أرجاء الشرق من عقيدة محمد نفسها . ويعبد هذا « البوذا (الوثن) » نفسه فى كل من آفا وييجو تحت اسم جوتاما (بدرجة متساوية مع شاكيا وهو نعت أو خصيصة لبوذا) ، ويعبد فى سيام باسم « سامانا كودوم » ، وفى كوشن شين وتونكين باسم « بوت » و « شيكامونى » ، وفى اليابان باسمى شاكيا وأميدا بوت Butth . ويعبد بالصين حيث ينتشر نفس ذلك الدين بين الجمهرة الفقيرة للسكان باسم فو أو فوه . ويبدو أن كثيرا من المعبودات الأخرى تنتسب الى الميثولوجيا البرهمانية ، كما ان لبعضها طابعا محليا . وواضح فى الحين نفسه أنه ، فيما يتعلق بالشكليات والماراسم ، التى ستسنع الفرص للمزيد من الحديث عنها فيما بعد ، فان الكثير منها قد اقتبست من النساطرة المسيحيين .

(٤) تلك اللغة هى التى نسميها لغة التبت ، وهى لغة وحيدة النقط (Mono-syllabic) من حيث أساسها ، مثل الصينية وان اختلفت عنها من جميع الأوجه الأخرى . وحروف الكتابة تشتهر على الأعم باسم التانجوت أو التانجوتية ويذىء ترتيبيها الأبجدي أنها من أصل نانجرى أو سنسكريتى .

(٥) عن المباني الكثيرة والرحبة المشيدة بقطر ، يكرس فيه دل موارد راع ذكر فى عائلة احباء الدير ، نجد اشارات كثيرة فى كتابات الرحالة وبخاصة فى كتابات بعثة بوجلز فى ١٧٧٤ ، وبعثة ترنر فى ١٧٨٣ ، الى بلاط اللاما الأعظم الجنوبي . واللوحات الملحقة بتقرير

العاني مذبحاً تزود القاريء الطلعة (يضم الطاء وفتح اللام والعين)
 بقدره راضية عن المطهر الخارجى لهذه الأديرة التي يضم بعضها من
 الفين الى ثلاثة آلاف راهب (Gylongs) ريطهر شغل مقوش لنفس
 الموصوع ايضا بين اللوحات المتعلقة بسفارة اللورد مكسارتنى الى
 الصين . نأما مختلف الظروف المرتبطة بذلك المجانى من الداخل فيمكن
 الاطلاع عليها فى البيان الممتع الذى كتبه ترنر ، وكذا على وصف عام
 مصحوب بخريطة أرضية فى Hephabetam Tibetanum جى ص ٤٠٧ .
 ونجد فى Mem. conc. les Chinois بيانا تفصيليا عن ال مياو « Miao »
 الكبير أو دير بوتاك ، بمدينة لهاسا ، الذى يبلغ ارتفاعه ٣٦٧ قدما
 وأربع بوصات .

(٦) يتمشى الاحتفال الوارد وصفه هنا ، والذى تبدو التضحية
 بالشاة وكان المقصود منها أن تكون فدية للطفل ، الذى يمكن أنه قد
 كرس عند ولادته للاله الحارس أكثر منه وضع فى رعايته ، - مع
 ملاحظه ده جنى الأصغر عادة يرعاها جيران هذا الشعب . يقول هذا
 الرحالة : « كما أن الصينيين يينهلون الى الجن فى كل مناسبات الحياة .
 فليس بمستغرب أن يضرعوا اليها ابتغاء الحصول منها على صيانة
 أطفالهم . وعندما يخشون من فقدما يكرسونها لأحد الآلهة » . (انظر
 Voyage à Péking مج ٢ ص ٣٥٩) . ويقال أن عادة مماثلة لهذه
 توجد ببلاد البنغال .

(٧) لا تقوم مراسم التكريم الخاصة بالحرق الجنائى الا الى
 أجساد الشخصيات التى تقبوا أرفع مكان ، فأما أفراد الطبقات الدنيا ،
 فانهم يتركون فى أماكن غير مطروقة وأحيانا على قمم الجبال لتلتهمهم
 الطيور الكاسرة والحيوانات الضارية .

(٨) يعم بلاد الشرق جملة ذلك الانذعان المطلق لمهارة النجمين فى
 تحديد الأيام والساعات الموائمة للقيام بجميع الأعمال ، العام منها
 والخاص ، والجليل أو التافه .

(٩) ظهر أن هذه العادة منتشرة عند الصينيين الذين كان يشترك
 معهم فى أشياء كثيرة ، سكان قطر ، على مثل هذا القرب من حدود
 الامبراطورية (الصين) ، وهو القطر الذى يصفه مؤلفنا الآن . وبضيف
 دوهالد : « وتنتشر بينهم عادة عمل فتحات جديدة فى بيوتهم عندما
 ينبغى حمل جسد أحد ذوى قرباهم المتوفى الى مقابر العائلة ، ثم العودة
 الى اغلاقها فوراً ، وذلك رغبة فى تجنبهم ويلات الألم الذى ستسببه
 لهم الذكريات الكثيرة للمتوفى ، والتى ستجدد فى كل آن يمرون فيه

من نفس الباب الذى خرج منه النعش » • (ص ١٢٨) • على أن هذا التشاؤم الوارد وصفه هنا ليس قاصراً فحسب على الأرجاء الشرقية من العالم ، ان جرت العادة فى مدن أو قرى شمال هولندة (كما بلغنى فى نفس المكان) لا يمكن أن تحمل الجثة من الباب الأمامى أو الرئيسى ، وإنما تحمل من خلف البيت •

(١٠) ترى ، أيمكننا الظن بأن بعثات المبشرين (الارساليات) استقت معرفتها بعادات هذا الشعب من كتابات مؤلفنا ، الواقع ان التشابه لا يمكن أن يكون أتم مما نعثر عليه فى فقرات متنوعة عند بوهالد •

(١١) لاحظت جميع البيانات ، المكتوبة عن احتفالات هذا الشعب الرنين المرتفع لموسيقاه •

٢٦٠ هوامش الفصل الثامن والثلاثين

(١) ان كامول ، التي يقال ان التتار ينطقونها خاميل او هاميل ، مع زهرة حليبه سويه ، هي هامى بخريطة الجزويت ، وقد رقت في النطق الصيني من خاء الى هاء شان لقب « خان » اذ يرقى الى « هان » . وقد ورد فيها رواه بـ جزين انهم بعد ان غادروا مكانا يسمى كيامليس (رشر جلدس بخريطة استراهلنبرج) ، ومروا امام آخر يسمى بوكيان ، تابع ايضا لمملكة كاسكار ، وصلوا الى تورفان واهاموا هناك شهرا . وبعد ذلك بلغوا اراموت ثم كامول وهي مكان مزود بدفاع قوى . فقاموا يد مع خيولهم شهرا آخر . حتى اذا غادروا كامول وصلوا في مدى تسعة ايام الى هذه الأسوار الشمالية للمملكة الصينية ، عند مكان يسمى سيانكيون (كيا يوكران) . والآن وقد وصلوا أخيرا الى داخل اسرارها ، فانهم وصلوا في مدى يوم واحد داخل مدينة سوتشيرو : (So-Chou) انظر (Hist. de l'Exp. Chrest) تأليف تريجوه ص ٤٨٢ - ٥) ومع هذا فان المسافة من هامى الى سوتشيرو ، وهي اشد مدن الصين امعانا في الغرب ، وهي في الخرائط حوالى ٢٨٠ ميلا) تصبح بهذا رحلة تتجاوز عشرة الايام للمسافر بالقافلة .

(٢) سيتضح ان هذا البيان عن موقع كاول يتقابل بالضبط مع موقع هامى ، التي تشغل هي وتورفان ، شقة من ارض صالحة للزراعة تبدو كاتسا تكاد تقسم صحراء كوى الكبرى الى جزئين . انظر خرائط الجزويت المرفقة بكتاب Descrip. de la Chine هالد شاهر - ١٢٧٧ : ١٤٧٧ () .

(٣) كانت لهذا المكان حكومة اسلامية ، ابان فترة سفارة شاهر، التي تمت بعد قرن ونصف من زيارة مؤلفنا له .

(٤) يقول جريجون : « ان هذه البلاد شديدة القيط صيفا . وتنمو بها مفادير من الفاكهة الطيبة » . (ص ٥٤) ويلاحظ الأب جروزييه (رئيس الدير) « ان اقليم هامى ، وان كان محوطا بالصحراوات ، فانه يعد من ابهج الاقاليم في العالم . وتنبت ارضه محاصيل موفورة من الحبوب ، والفواكه ، ونباتات بقلية ، وكلا للرعى من جميع الأنواع . والأرز الذى ينمو هنا بجد تقديرا خاصا بالصين . . . وليس هناك فاكهة

أشهى ولا هي موضع اقبال أشد من قاوون هامى ، الذى يحمل الى
يكنين أيقدم على مائدة الامبراطور ٠٠ ولكن أنفع انتاج للقطر وأشده
تقديرا عند الناس هو الزبيب ٠ انظر
Gen. Descrip. of China
مج ١ ص ٣٣٣ ٠

(٥) يقول البروفسور أميوه متحدثا عن سكان هذا الجزء من
القطر : « تتألف تسلياتهم من الغناء والرقص ٠ وهم يلتئمون جماعات
من خمسة أو ستة من الرجال والنساء التقام الحابل بالنابل ، ويتماشكون
بالأيدي ، ويدورون جماعة ويثبون بضع وشبات من وقت لآخر » ٠

(انظر : Mem. Conc. les Chinois ١٤ ص ١٥٢) وما كان
ينبغي لنا أن نتوقع ورود القراءة والكتابة بين انشغالات طائفة ومثاقفة،
ولكن ينبغي أن نعامل بشيء من التسامح تحيزات شخص (كالمؤلف)
تربى فى بلاط تترى ٠ ويمكن العثور على بيان تفصيلي عن طريقة
وانوات الكتابة عند هؤلاء القوم فى كتاب . Alphabetum Tibetanum
ص ٥٦١ - ٧ ٠

(٦) أورد الفنسنتون فى Acc of Canbul وصفا للمعدات
المنتشرة بين القبائل ، التى تسكن الشقة الشرقية من جبال بارويا ميسان ،
وهو قريب الشبه جدا بما يذكره مؤلفنا ، بحيث سرنى جيدا سنوح
فرصة تحقيق صحة أقواله بسند محترم كهذا الرجل ٠ يقول الفنسنتون :
« كثيرا ماتكون النساء حسناوات ٠٠ ومن المسلم به بين الناس جميعا
أنهن لا يشتهرن بأية حال بالتمسك بالعفاف ، بيد أنى سمعت حكايات
مختلفة حول خلعتن وفسوقهن ٠ والنساء فى الشمال الشرقى ، وهى
أكثر أجزاء البلاد مدنية ، يعرضن أنفسهن للبقاء بأجر معلوم . بينما
يخلى أزواجهن لمن الجو ٠٠ وفى أجزاء أخرى من البلاد ، تنتشر
عادة تسمى كوروبستاون ، يعير بها الزوج زوجته لأحضان ضيقه ٠
وهو يضيف فى هامشة « أن هذا شيء مفولى : فان أحد قوانين الأساس
(Yasa) يحظر الزنى ٠ على أن سكان كايانر التمسوا الحصول
على اعفاء منه ، وحصلوا عليه ؛ وذلك بسبب عاداتهم القديمة من اعارة
زوجاتهم لضيقهم » ٠ ص ٤٨٣ ٠

● هوامش الفصل التاسع والثلاثين

(١) يفسر كتاب L'hist. gén. des Huris أن اسمه نسن نسن ، ظن بعضهم أنه تشنشتيتالاس عند مؤلفنا . وينبغي أن نلاحظ أن « تالا » معناها في المغولية القترية « السهل » وأن معنى تالاي أو دالاي هو « البحر أو البحيرة الواسعة » : واذن ، فيمكن أن تعتبر تالاس تسمية صينية ومتميزة عن اسم العلم . يقول ده جنى : « هذا الاقليم الذى يحمل فى التواريخ الصينية اسمى ليولان وشن شن ، يقع فى وسط هامى . وكان يكون فى ماضى الزمان مملكة صغيرة كانت عاصمتها كان نى تشنج وهى مجاورة لبحيرة لوب . وهذا الاقليم سجد كله ، ملء بالرمال ، ولا يجد المرء فيه الا القليل من التربة الصالحة . وتعداد من فيه من السكان يقارب الخمس عشرة مئة عائلة . وهؤلاء الناس ينتجعون المراعى التى يغذون عليها الحمير والخيول والجمال . وهم يستمدون اغذيتهم ولوازمهم من البلاد المجاورة . وتشيع بينهم نفس عادات أهل النبت حيرانهم فى الجسوب السرقى . . . وانى لاعنقد انه فى هذا الكانتون بالذات ينبغي وضع الولاية التى يسميها ماركو بولو باسم تشن تشن تالاس المجاورة للمصحاء الكبرى ، والتى كان يقيم بها بعض الفساطرة والمسلمين والوثنيين . (مج ١ جزء ٢ ص ١١) على أن فى الامكان مع ذلك الشك فى أن تشنشتيتالاس ليست كياتيس أو تشيالييس عند ب . جويز ، وهى التى يصفها بأنها مكان تابع لملك قشغر وليست على كير بعد من تورقان وكامول .

(٢) عن هذا الفلز الذى ورد بالنسخة اللاتينية Audanicum أو Andanicum وفى ايطالية الخلاصات Andranico و Andronico انظر الهوامش ٤ فصل ١٤ ، ١ فصل ٢٠ .

(٣) لا سجيل الى الشك فى أن ما تسميه النسخ المختلفة هنا بالسمندر كان فى الحقيقة هو الأسبستوس .

(والعبارة فى النص اللاتينى المبكر هى :
Et in istamontana est una alia vena unde fit Salamandra.

(والسمندر أو السمندل عطايا (سحالى) خرافية زعم أنها قادرة على العيش فى النار (عن المرد) .

(٤) يوصف الأسبستوس بأنه حجر محتقر يمكن شقه خيوطا أو أليافا طول الواحدة منها من بوصة الى عشر بوصات ، وكلها دقيقة جداً وهشة ولكنها قابلة للسحب الى حد ما ، وحريرية وذات لون مائل للرمادي . وهى غير قابلة للذوبان فى الماء ، كما أن لها الخاصية العجيبة وهى عدم الاحتراق فى النار . يقول الميسو برونيار : « كانت للأسبستوس فيما سلف من الزمان منافع عجيبة » فان القدماء الذين كانوا يحرقون الجثث ، كانوا يتخذون منه قماشا غير قابل للاشتعال رغبة فى الاحتفاظ برماد تلك الجثث دون أن يختلط بها شيء . وعندما تكون الألياف هذا الحجر على قدر كاف من الطول وكاف من النعومة والمرونة ، يقبل الناس على غزله خيوطا ، وبخاصة عندما يخلط بالكتان . ويمكن أن ينسج منه بوجه خاص قماش له المتانة والمرونة المناسبة ، حتى ولو حرم ، بواسطة تعريضه للنار ، من الخيوط النباتية التى كانت داخلة فى نسيجه . فعندما ينسخ هذا القماش تعيد اليه النار بريقه الأول . - انظر : *Traité élémentaire de minéralogie* مج ١ - ص ٤٨٢ .

○ هوامش الفصل الأربعين

(١) هذا الاسم يبدو من جميع الظروف المذكورة هنا أن المقصود به هو سويتشيرو ، وهي مدينة محصنة تقع في الجزء الغربي المتطرف لولاية شن سى أو حدود الصين بتلك المنطقة . على أنها لم تكن فيها سلف تابعة للامبراطورية بل لأمسة تترية مستقلة . يقول ده جنى :

« أن أشد أجزاء ولاية شن سى تطرفا نحو الغرب نظرا لأنها تكون جزءاً من بلاد التتار ، فأننا نعتقد بوجود ذكرها هنا ، بدرجة أشد من الإشارة إليها لتوضيح أقوال ماركو بولو . وفي عهد أسرة سوي (Sui) كان الناس يسمون هذه المنطقة بأجمعها سوتنسو . ثم انتقلت بعد ذلك الى سيادة شعوب توران ، وبعد ذلك زمن يسير استردها الصينيون ، وعلى اليوم تخون جزءاً من شن سى » . (مج ١ جزء ٢ ص ٩) . وأول ملحوظة لدينا عن هذا المكان بعد زمان مؤلفنا ، هي تلك التي وردت عن سفراء شاه رخ في ١٤٢٠ . « أن سكجيو (الذي يكتبها ده جنى ، ربما عن ترجمة مختلفة ، سو كجو) مدينة عظيمة وحصينة على شكل مربع مكتمل التريع ، فهذه المدينة اذن هي أول مدن خانائى ، وتبعد مسيرة تسعة وتسعين يوما عن مدينة كان هاليك ، الذي هي مقر السدة الامبراطورية ، وتفصلها عنها منطقة شديدة الازدهار بالسكان ، وذلك أن المرء ينزل في كل يوم ببلادة كبيرة » .

انظر Relations de Thevenot مج ٢ .

(٢) الظاهر أن تغييرا كائيا حدث أثناء مدة القرون الثلاثة الطويلة التي انقضت بين زمن مؤلفنا وبين عصر بنديكت جريوز فيما يتعلق بالمكان المسيحيين الذين لم يجد لهم أثرا : وذلك ناتج عن تغلب المسلمين في ذلك الصقع .

(٣) لاحظ جميع الكتاب الذين كتبوا عن هذه الولايات وفردتهم الراوند بالمنطقة الجبلية التي تشكل الحد الغربى لبلاد الصين . وسجندون في كتابات البروقسور بالاس بياناً خاصاً عن تجارة تلك السلعة ، التي يحصل عليها الروس في كياكتا من القطر الذي نتحدث عنه ، بواسطة تجار عملاء من بخارى يقيمون في نفس الموقع .

● هوامش الفصل الحادى والأربعين

(١) لو سلمنا بأن المقصود من سوير هو موتشيو ، لاستنتج ذلك أن كامبيون ، أو كما تظهر فى الترجمات الأخرى ، كاذبيون وكامبسيون ، هى مدينة كان تشيو ، وهى كام جيو عند السفراء الفرس ، وكام تشك لدى جونسون ، وكان سيور عند جويز . وينكر جويز . ونإنها تبعد خمس مراحل عن الأولى (سكوير) .

(٢) ان الأهمية النسبية لكان تشيو فيما يتعلق بسوتشيو وغيرها من مدن ذلك الجزء من شن سى ، ظلت هى هى بلا تغيير على كرسصور جميعا . ويلاحظ سفراء شاه رخ ، أن الحاكم الذى يقيم بها كان رئيسا على جميع حكام الأماكن المتاخمة ، ويقول جويز : « فى إحدى هذه المدن التابعة لولاية اسمكنسى وهى المسماة كانسير ، يقيم نائب الملك مع كبار الحكام الآخرين » . (ص ٤٨٦) .

(٣) ليس زوال هذه الكنائس فى مدى ثلاثة قرون ، أو حتى ذى زمن أقصر كثيرا . والراجح أنها كانت مبنية من الخشب ، حجة على عدم وجودها فى زمن مؤلفنا . ولم يحصل الجزويت على موطن فى الصين الا فى نهاية القرن السادس عشر ، حيث بدءوا البحث فى موضوع انتشار المسيحية مرة أسبق فى ذلك الصقع من العالم . وفى أثناء تلك المدة حدث انقلاب تام فى الحكومة الصينية ، حيث حلّت أسرة يوان أو الأسرة المغولية القترية ، التى تميزت بقسامتها - أو عدم اهتمامها - ازاء الشئون الدينية ، - أسرة منج الوطنية ، التى كان أمراؤها متأثرين بسياسة مخالفة ، فحرموا اللامات والقساوسة المسيحيين من حجابهم العانور ، مد كان المطون أن أسلافهم كانوا سيديى التملق بهاتين الطائفتين . وفى قريب من تلك المدة أيضا ، نشط المسلمون للعمل ، بعد أن كنزوا بقشغر وغيرها من الأماكن الواقعة على حافة الصحراء ، - ونجحوا فعلا كما هو واضح فيما بذلوا من محاولات للتخضاء على منافسيهم . ويرسم جويز صورة قوية للمتصصب الوقح لهؤلاء المتعصبين فى المدن التى اخترقها طريقه ، من هندوستان ، بطريق لاهور وكابل ، الى الصين .

(٤) يبدو أنه في جميع الأقطار التي تنتشر فيها عقيدة بوذا ، يكون من دلائل الغيرة الدينية ، إقامة تماثيل له ذات ضخامة هائلة ، مع طلائها بالذهب في أحيان غير قليلة وتلك هي القاعدة التي نجدها «رعية باليابان وسيام وآفا ، فضلا عن بلاد التتار والصين . وشاكاموني هر أحد الأسماء الهندوكية لبوذا . ويتحدث البروفسور جبريتون أيضا الذي صاحب امبراطور الصين في رحلته الى بلاد التتار ، عن التماثيل الرائعة ، التي ظهر حين قيس أحدها بآلة المربع ، أن ارتفاعه يبلغ سبعة وخمسين قدما صينيا .

(٥) مع أن تماثيل بوذا تمثل عادة جالسة القرفصاء ، وسيقانها متريعة ، فإن بعض هذه التماثيل المهولة تمثل في وضع مضطجع ، كما نرى محولة بتماثيل في وضع صلاة أو تحية ، ويذكر السفراء الذين زاروا هذه المدينة هي ١٤٢٠ ، أوثانا من نفس ذلك النوع الخارق ، كما أن م يوكدون بطريقة أخاذة صدق أقوال مؤلفنا . يقول كوردنر في كتابه Description of Ceylon : « في كل معبد متكامل ، يوجد تماثيل هائل لبوذا في وضعية اضطجاع ، فضلا عن عدد ضخم منها بين جالسة وواقفة ، وكلها لا تزيد عن الحجم الطبيعي » . مج ١ ص / ١٥٠ .

(٦) يقول ترنر متحدثا عن الهيئات الدينية في التبت : « ان مشغلتهم الأساسية تنحصر في أداء فرائض عقيدتهم . وهم معفون من العمل ، ويفرض عليهم قلة الطعام والامتناع عن المسكرات . ويحظر عليهم كل اتصال بالجنس الآخر » . ص ١٧٠ . وطبقا لما ورد في : Chines Dictionary لموريسون : « يتلقى كهنة طائفة فوه أوفو (الذين يلقبون هرتنج وسانج شامون) السنن الخمس التالية : ألا يقتلوا الكائنات الحية . ألا يسرقوا ولا ينهبوا ، ألا يأتوا الفاحشة والزنى ، ألا يقولوا الكذب ، ألا يشربوا خمر » . ص ١٥٧ .

(٧) يقول ترنر : « ان نفس الخرافة ، التي تؤثر في رأيهم في شتيرن العالم ، تتغلغل بالمثل في حساباتهم العامة . وعلى هذا المبدأ يؤسسون تقويمهم العام للزمن . وبين يدي الآن أحد تلك التقاويم ، وعندى على قدر ما أفهمه فيه بناء على ما شرح لي أن ميزته الكبرى تنحصر في احتوائه خلاصة للأوقات السعيدة والمنحوسة » . ص ٣٢٠ .

(٨) لم يحدث حتى الآن في سياق الكتاب ، أن كانت أقوال مؤلفنا المباشرة على مثل هذه الدرجة من الاختلاف مع المعلومات الحديثة ، كما حدث في هذه المسألة من انتشار عادة تعدد الزوجات بين سكان تانجوت . ويخبرنا بوجل بعبارة قاطعة أنه لا وجود لتعدد الزوجات

ببلاد التبت ، بالمعنى الذى نتلقى به هذه الكلمة عادة ، ولكنه يوجد بطريقة كريمة أكثر للآراء الأوربية ، فى تعدد الأزواج ، وأن من المألوف أن تكون للاخوة فى عائلة زوجة مشتركة انظر (Phil. Trans.) مج ٦٧ ص ٤٧٧ ، وانظر كرافورد Sketches مج ٢ ، ص ١٧٧) . وهذا ما يؤكد ترنر حيث يقول : « أن عدد الأزواج - على مبلغ علمي - غير محدود ولا مقيد بأية حدود ، فيحدث أحيانا الا يكون هناك فى عائلة صغيرة الا انثى واحدة ، وقلما تجاوز العدد ذلك فيما يحتمل ، وهو أمر أوضح لى وجيه له مكانته من الأهالى أثناء اقامتى فى تيشولومبو ، فى عائلة مجاورة له ، فهناك كان خمسة اشقاء يعيشون جميعا - بسعادة بالغة مع انثى واحدة مرتبطين واياها برباط زواج واحد . وليس هذا النوع من الارتباط يقاصر على الطبقات الدنيا من الناس وحدها » (ص ٢٤٩) . ولسنا نستطيع أن نعارض هذا الاسناد الا بالملاحظة المحددة التى أوردها المسيو بالاس حيث يخبرنا أن تعدد الزوجات ، وأن كان محرما دينا ، ليس بالشئ النادر بين كبار القوم . (انظر « Neue Nordische Beiträge » مج ١٠ ص ٢٠٤) . وسع هذا فان المسافة بين لهاسا وخان تشيو تبلغ من الضخامة (اذ هى تقارب عشر درجات عرضية وثمانى طولية) بحيث انه وان كان سكان كل منهما ، وكذا الشطر الأعظم من بلاد التتار ، يتبعون نفس العبادة الدينية ، فانه يمكن أن تقوم بين الكائين فروق جوهرية فى عاداتهم المحلية .

(٩) مما يسترعى الأنظار أن جويز ، وان كان مبشرا ، سافر متكررا فى صفة تاجر أرمنى ، - أعيق بالمثل عن الرحيل هنا ما بناهز العام بمدينة سوتشيو المجاورة . ويظهر أن ترتيبات الشرطة ونظمها ، كانت تستلزم أنتد كما يحدث فى أيامنا هذه ، الحصول على إذن من بكين للأعراب قبل السماح لهم بدخول البلاد .

❶ هوامش الفصل الثاني والأربعين

(١) الآن وقد وصل مؤلفنا الى حدود الصين الشمالية ، وتحدث عن مكانين يقعان داخل خط ما يسمى بالصور الأعظم (ولكن سيوضح بعد هذا انه مكون في هذا الجانب من ركام من التراب فقط ، وليس هو بالعمل البنائي الحجري الهولة الذي ينعت به السور في التخيوم الشمالية) ، يكف عن متابعة طريق مباشر ، وينتقل الى بيان عن أماكن تقع الى الشمال والجنوب منه التتار ، ويقع بعضها مجاوراً والبعض الآخر في ارجاء بعيدة من بلاد التتار ، وذلك حسب المعلومات التي يحصل عليها في مختلف المناسبات . كما أنه لا يمدنا في سياق الكتاب بنية فكرة واضحة عن خط السير الذي اتخذه عند دخوله الى بلاد الصين ، برفقة أخيه وعمه ، في طريقهم الى بلاد الامبراطور ، وان كانت هناك اسباب تحملنا على الاعتقاد ، بناء على ما يحدث في الفصل ٥٢ ، بأنه سافر من كان تشيو الى سيننج (التي يسميها البروفسور بالاس سيلين) وهناك التقى بالطريق الكبير الممتد من التبت الى بكين . وهنا يتخذ وصفه طريقاً شمالياً الى مكان يسمى أيزينا يقوم على نهر صغير يجري بجوار كان تشيو نحو صحراء كزبي الكبرى ، التي كان قد عبرها قبل ذلك في منطقة أضيق وغربية أكثر . وهذه المدينة معروفة لدينا من عماليات جنكينز خان العسكرية ، الذي استولى عليها عندما غزا سانجوت في ١٢٢٤ حسبما يروي بنيه ده لأكرواه ، أو ١٢٢٦ حسب رواية ده جني ، رجعها مدة من الزمن مقر القيادة العليا لجيشه .

(٢) الأرجح ان حمار الوحش ، المذكور هنا ، هو الذي يسميه رجال الإرساليات التبشيرية بغبر تدقيق ، بغل الوحش ، ويصفونه بأنه ينطق هذه المنطة الصحراوية . وحمار الوحش أو الأخضر هو ما يسميه (كزل) ليندس Linn. (عالم النبات السويدي في تصنيفاته) .
 equus asinus كما أن الحيوان المسمى ببغل الوحش هو . « equus hemionus »

● هوامش الفصل الثالث والأربعين

(١) الأصح أن يكتب اسم هذه المدينة قرقورم ، وإن وردت قراقورم كثيراً (ومعناها الرمل الأسود) • وتسمى عند الصينيين هولين روى تذابيل كوزين في النطق النترى • وقد بناها أو قل أعاد بناءها أوغداي أو (اقطاي) خان ، ابن جنكيز خان وخليفته قرابة عام ١٢٣٥ ، راتخذها مانكو (أومانجو) خان مقراً لحكمه وانقضت قرون عدة دون أن توجد أية آثار لوجودها ، ولكن مكانها مدون في قوائم يوليغ بك Uligb-ig وكذلك في خرائط الجزويت ودانفيل • وزارها وليم ده روبر ركير في عام ١٢٥٤ ، وهو راهب صغير أرسله مع جملة من رجال الدين لويس التاسع ملك فرنسا في بعثة عامة الى أمراء التتار • والبيان الذي يدعى به عنها لا يحمل إلينا فكرة كريمة عن أهميتها كمدينة وكذلك شأن وصفه للبلابل ولحالة الحضارة التي بلغها هؤلاء الغزاة ، بيد أن بيانه بأكمله يتم عن مسرف التحيزات التي يمتلىء بها عقل سوقى •

• هوامش الفصل الرابع والأربعين

(١) يبدو أن ما يمكن اعتباره الاقليم الصحيح - وإن لم يكن أقدم مرجح لسمعون - (المغل) هما يسميهم الفرس ، والمغال كما ينطق الاسم في الاصطاح الشمالية من آسيا ، بما في ذلك الخموك أو الايوت واليورات والحلكس) ، هو تلك الشقة من الأرض التي تقع بين المجارى العليا لنهر عامور شرقا ومتيلاتها مجارى بهرى يابيسى Yabisei والأرض ، ومعها سلسلة جبال التاي غربا ، ويقع في شماله بحيرة بديل وفي جنوبه الصحراء الكبيرة ، التي تفصله عن اهليم تاجوت ومملكة الصين ، حاويا داخل تلك الحدود نهر سالنجا ، الذي خع على مصبة منه ، هي الجزء الأول من القرن الماضي ، محطة أو مخيم اورجا « Urga » التابع للنفوس دوخان أى أمير المنغال العصرى . ولا يمكن تحديد الموقع الدقيق لسهول جيمورزا أو جورزا أو جورجا ربارجو . وتحوى خريطة استراهلنبرج منطقة مجاورة للنشاطى الجنوبى لبديرة بايكال تسمى « كامبوس بارجو » ، ولكن الظروف تقودنا الى الذهاب الى ان الأماكن المذكورة هنا تقع الى الشمال أكثر ، كما ان اسم بارجو يظهر فى خريطة دانفيل فى الجانب الشمالى الشرقى من تلك البحيرة . وحسبما يروى كلايروت فان الاسم الذى يسمى به التتار شعب المانشو (الذين يعدهم ذلك الكاتب نفس جنس التونجوزى) ، هو قشور تشور أو جورجور وهو الذى يكتبه أبو الفازى جورجيت Jurgit ، فهؤلاء يبدو أنهم هم قبائل الجورزا عند مؤلفنا ، ويمكن أن تكون جزيرة زورزا (التى كان ينفى اليها المجرمون) ، والتي ورد ذكرها فى الكتاب الثالث ، الفصل الثانى ، ربما كانت هي التى تقع خارج مصب نهر ساجا-يينولا أى نهر عامور .

(٢) هذا الأمير الشهير ، الذى يسميه مؤلفنا أو مكان ، أو أون خان (ان جاز لنا أن ندخل تصحيحا مسوحا به لهجائه ، والذي يسميه المؤرخ أبو الفرج ابن العبرى) انج خان ، كان رئيسا لقبيلة كيرانت أو كيريت وكان يحكم فى قره قورم ، التى أعاد بناءها بعد ذلك أوغداى ، فأصبحت من ثم عاصمته وكذا عاصمة مانكوخان خليفته . ويبدو أنه كان أقوى الرؤساء فى ذلك القسم من بلاد التتار وكثيرا

ما يلقب فى تواريخ زمانه بلقب الخان الأعظم . على أن البروفسور جويل ومن يبعون الاسناد الصينية ، يعدونه تابعا اقطاعيا لاسبراطور نيوتشيه القنرى المدعو الطوم حسان ، من أسرة كن Kin الذى كان فضلا عن حكمه ، مملكته لياووتانج وكوريا ، يحكم ايضا الجزء الشمالى من الصين اى كاتابا . وهم يؤكدون أكثر من ذلك أن تسميته باسم أووانج هان - كما يكتبونها - ليست سوى اللقب الصينى أووانج اوونج Vang (اى الملك Rugulus ، وهو اللقب الذى انعم به عليه العامل الأكبر ، جزاء له على خدماته الممتازة ، وأضافه قبل لقبه الوطنى « خان » ، حيث كان اسمه الاصلى طفرل . وطبقا لرواية ج . ر . فورستر ، المستقاة من كتاب فيشر (Hist. of Siberia) « هانه كن يحكم الناربيثين Karates ، وهم قبيلة تسكن قرب نهر كاللاسى (كاراسيى) ، الذى يصب مياهه فى نهر اياكان ثم يصب بعد ذلك فى نهر جنيسى Jenisea ، وهنا يسكن القرغيز الى يومنا هذا ، الذين فيهم قبيلة يسمونها الكاراييين » . انظر Voyages etc. ص ١٤١ .

(٣) مهما يلصق من السخف والسخرية بهذه التسمية العجيبة « الفس يوحنا » بريستر أو برسيترجون اذ تطلق على أمير قتارى ، فانها لا ينبغي أن تضم الى حساب سؤالنا الذى كان عمله مجرد نفل وتكرار ، وفى حدود حيلة خاصة ، لما كان دارجا على الألسن بكسل ارجاء أوربا وبين مسيحيى سورية ومصر حول هذه الشخصية الكهنوتية الالهية وإن كانت لشخص حقيقى وهو لا يقيم هنا تأكيدا لأى شىء على أساس معرفته الخاصة بالأمر ، وكان المفهوم أن الأعمال المروية هنا حدثت قبل الزمن الذى كتب فيه المؤلف بقرن كامل ، وهو حين يتحدث عنها يستخدم دائما تعبيراً حذرا هو « Come intesi » (وخير مرجع للمعلومات عن موضوع برسيترجون يوجد فى مقدمة كتاب تأليف الأخ جان دى بلان دى كوبان ، بقلم المسيو دافيزاك) . « Relation des Mongols ou Tartares ».

(٤) «نسب مؤرخو الفرس والعرب هذا الأبراز لعنصر الاستقلال الى روح الاقدام ، والمواهب العسكرية التى اتصف بها تبموجين (المسمى جنيكز خان فيما بعد) ، الذى أصبح بعد أن قضى ثمانية عشر عاما فى خدمة أنج خان ، مضع غنوته واضطر اليه المعالجة بقرار سريع انقذا لحبائه . ولما تكاثرت بعض معاركه الحزنية التى أعقبت ذلك بالنجاح ، زادت من أعداد المتعلقين به ، فانسحب ، بجيشه الصغير ، الى بلاد المنغال ، التى هم أحد أبنائها . «اقبى هناك ترحابا ، حملة على أن يوحد معهم خططه فى الانتقام من أعدائه .

٥ شواش الفصل الخامس والأربعين

(١) يطور آن مؤلفنا خطأ هنا في سنة مولد جنكيز خان (الذي يجعله بعضهم في ١١٥٥) فخلط بينه وبين عام ارتفاعه العرش .
 انه لم يذكر حتى عام ١٢٠١ انه تولى قيادة جيوش المنغال ، ولا ورد حتى ١٢٠٢ حسب رواية الاسناد التي أخذ عنها بتيه ده لأكرواه ، ولا حتى ١٢٠٦ حسب ما أورده ده جنى ، انه نودى به خانا أعظم أو امبراطورا . وفي نفس تلك المدة غير اسمه الأصلي من تيموجين الى الاسم الذي عرف به بعد ذلك . وتعطينا النصوص اللاتينية وغيرها تاريخ ذلك على انه عام ١١٨٧ .

(٢) وفي بلاط حميد جنكيز خان كون رفلوفينا فكرة ملؤها التقدير المفرط في فضائل هذا الرجل الفذ - وان عساها لم تكن عن موادهيه العسكرية - وهو الذي ينبغي أن يعد سوطا من سياط العذاب التي حلت بالبشرية ، والتي تسلط عليها من حين الى آخر كالطاعون أو الوباء أو المجاعة وتملا العالم بالخراب .

(٣) الواقع انه حسبما روى المؤلفون الذين استقى منهم بتيه ده لأكرواه ، فان تيموجين كان متزوجا بالفعل من ابنة أونج خان ، عندما أبعدته مؤامرات منافسيه عن بلاط حميه بعد أن أدى له خدمات عسكرية على أعظم جانب من الأهمية .

(٤) اسم هذا السهل الذي ورد تندوقش في النص اللاتيني القديم ونسخه راموسيو ، كما ورد تندوق في طبعة بال ، هو تانجوت في الخلاصات الايطالية . وربما كان الاسم الأخير خطأ ، كما أن من المؤكد انه لا يصح الخلط بين هذا المكان وبين تانجوت التي سبق ذكرها باعتبارها مرتبطة بالقيت ، ولكن هناك أسبابا قوية تجعلنا على الظن بأن مؤلفنا انما قصد الاقليم المسمى قونجوس (وهو اسم بينه وبين تانجوت مشابهة غير هينة) ، الذي يقع قرب منابع نهر عامور ، وإلى جوار بحيرة بايكال ، والتقى الجمعان - حسبما يروى ده جنسى والبروقسور جليل - بين نهري تولا وكركلون، حيث دارت منذ ذلك الحين . رحى معارك تتربة أخرى خروس ، نجمت كما قد يتبادرالى الذهن عن كون الظروف المحلية مناسبة لتحركات جموع ضخمة من الخيالة .

(٥) طريقة التنبؤ بالغيب بواسطة ما يسميه الفرنسيون بعصى العرافة Baguettes معروفة ببلاد النرق . فان بتيه ده لأكرواه عند تقديمه فى نصه هذه الحكاية عن « العصا الخضراء » نقلا عن عمل مؤلفنا ، يقرر فى هامشه : « عملية العصى هذه كانت مستخدمة عند التتار . كما انها لا تزال موجودة فى الوقت الحاضر عند الأفريقيين ، وعند الترك ، وشعوب اسلامية أخرى » ص ٦٥ .

(٦) لم ينكر أحد من المؤرخين هذه الحادثة التى يقال هنا انها وقعت لجنكيز خان ، كما أنه ليست هناك دلالة تبين ما المقصود بمكان اسمه ثايجن . ويقال انه - على عكس ذلك - مات حتف انفه (أعلى فراشه) مصابا بمرض فى ١٢٢٦ ، بعد سقوط مدينة لن تار بقليل ، وهى مدينة فى ولاية شن سى التى كان تراجع عنها ، بسبب سوء أحوال الهواء فى المكان الذى كان جيشه معسكرا فيه الى جبل يسمى ليويان . على أنه لا يجوز لنا أن نستنتج أن مؤلفنا على خطأ ، أو أن جنكيز لم يصب بجرح ربما تسبب فى جى وبيء فى وفاته و عجل بها .

٢٧٤ هوامش الفصل السادس والأربعين

(١) أما وقد جاء هذا البيان عن خلفاء جنكيز خان ، أقل دقة يثير مما قد يتوقع من رجل أقام عدة سنين كثيرة في خدمة حفيده ، ليس من غير المعقول أن نفترض ، أن بعض الأسماء الأعجمية لهؤلاء الأمراء ربما تكون حذفت ، كما شوهت أسماء أخرى على يد النساخ الأول : ومما يزيدنا يقينا في هذا الظن ، أننا نجد الأسماء مختلفة اختلافا بنا في الترجمات المختلفة ، وبدلا من أسماء اثنين وبائين رابعد الواردة في طبعة راموسيو ، نجد في أحد النصوص : كسوى وبارتشيم وألاو ، وفي آخر كاركى وساييم وروكون . وهم لا يكادون يتفقون جميعا الا في اسم مونجو أو مانجو فقط . وسأذكر على اعتبار أننا نضد طرق التبين تأثرا وهي في بعض الحالات أشدها قدرة على التوفيق بين المتناقضات ، - عملية الربط القائمة على سند المؤرخين ، واقارن بها القوائم المشوشة التي تنسب الى مؤلفنا . وكان لجنكيز خان ، الذي مات حوالي ١٢٢٦ ، أربعة أبناء ، أسماؤهم جوجي وجفتاي وأوكتاي (أوغداي) وتولي ، ومات من هؤلاء جوجي أكبر الأبناء الذي تسميه بعض الروايات توشي ودوشي ، في حياة جنكيز خلفا وراءه ولدا يدعى باتو ، ويسميه المؤلفون المسلمون أيضا سايين خان وساجين خان . قورث ، كمحق لمولده ، ذلك السطر من الامبراطورية الذي كان يضم القبشاق والقاليم أخرى تقع الى جوار نهري الفولجا والدون ، كما أن فتوحه في جنبات روسيا وبولندة وهنغاريا ، جعلته مصدر رعب لأوروبا كافة . ولم يتبوأ سدة منصب الخان الأعظم المهيبة أي رئيس الأسرة ، وتوفي في ١٢٥٦ . ومن الجلي أن هذا الشخص هو من سمي ماذين في ترجمة واحدة للنص وسمى ساييم في أخرى ، على أن بارتشيم في ترجمة ثالثة يبدو أن المقصود منه هو بركة ، أخوه وخلفه في عرشه . أما جفتاي أو زاجاتاي ، فكان نصيبه من ممتلكات أبيه ، الاقاليم الواقعة وراء نهر جيحون ، وهي التركستان ، أو - كما سميت منذ ذلك الحين - بلاد التتار الأوزبكين . وتوفي في ١٢٤٠ ، دون أن يتولى هو أيضا المنصب الامبراطوري . وقد حذف اسمه هنا وان ورد عند مؤلفنا في مرآة أخرى ، وهو تصرف كان بناء على هذا الاعتبار يكون سليما

لو أن اسم باتو لم يذكر . ونادى جنكيز نفسه بابنه الثالث اكتاي أو اغدای خليفة له وخانا اعظم ، أى رئيسا أعلى للأسرة مع اللقب الجديد كآن . وكان نصيبه الخاص من الامبراطورية هو الوطن الأصلي للمغول أو المنغال أو المغل ، بما يتبعه من اقطار ، وكذا مملكة تثار النيوشنبه ، وهى تحوى كل ما تم فتحه حتى آنذاك من الصين الشمالية . ويعود اغفال اسمه كلية ، وهو من ابرز رجال العائلة واشدهم تميزاً ، وبخاصة فى حروب اقليم الصين الشمالية سالفه الذكر . وقبل وصول مؤلفنا لا تزيد عن خمسة وثلاثين عاما ، - امرا فى غاية الغرابة ، لو نسب الى الجيل أو ضعف الذاكرة من قبله . وتوفى اكتاي فى ١٢٤١ وخلفه فى المنصب الامبراطورى (بعد فترة وصاية لسيدة دامت خمس سنوات) - ابنه كايوك أو جايوك ، فلم يحكم الا سنة واحدة وتوفى ١٢٤٨ ويدعوه بلانوكاريينى ، وهو راهب صغير (ارسله البابا اينوسنت الرابع الى بلاط باتو) ، باسم الدوق باتو أو باشى ، فأرسله الأخير الى جايوك ، وسيده ومولاه ، وقد تم انتخابه وشيكا آنذاك ، باسم كوينه ، كما يسميه الصينيون كى يو ، ويسميه مؤلفنا تشين أو كوى ، حسب اختلاف القراءات . فلما الابن الرابع لجنكيز الذى كان اسمه تولى أو توافنى فمات فى ١٢٣٢ ، فى اثناء حكم اخيه اكتاي ، خلفا أربعة أبناء اسمائهم : مانكر وقبلاى وهولاكو وارتجيفا ، فضلا عن آخرين ذوى شهرة تاريخية اقل . وانتخب من بين هؤلاء مانكو أو مونجو فى ١٢٥١ ليخلف ابن عمه جايوك خانا اعظم ، وذلك بوجه رئيسى بفضل نفوذ ومساندة باتو ، الذى كان له حق اكبر فى ادعاء العرش بوصفه ابنا لأكبر الأبناء ولكنه لمسبب ما يبدو أنه لم يتخذ لنفسه ذلك اللقب . وكان من أوائل الأعمال التى فعلها مانجو أن ارسل هولاكو (من قره - قورم عاصمته) على رأس جيش لجلب ، مكنه من اخضاع اقليم خراسان وفارس وبلاد الكلدان (أو كلدانيا) وقسم كبير من سورية . وأسس أسرة المغول الفارسية العظيمة . ولم تلبث تلك الأسرة حتى خلعت عن كاهلها بعد بضعة أجيال ، تبعيتها ، التى كانت اسمية أكثر منها فعلية ، لرئيس الامبراطورية الأعلى . ويبدو أن اسم هولاكو ، الذى يلين الى الاء وهو نفسه الاسم الذى يحرف هنا أكثر الى ايسو - (نتيجة لخطأ فى حرف) بدلا من أيلو . وهو فى الترجمة اللاتينية لنفس الفقرة برد آلاء . وتوفى مانجو (مانكو) فى ١٢٥٩ أو (١٢٥٦) بولاية سى تشوين بالصين ، وهو مضطلع بالحرب فى ذلك الاقليم . وليس حول اسمه أى لس . وتولى قبلاى ، الذى كان فى نفس المكان ، قيادة الجيش ، ولم يلبث طويلا حتى انتخب خانا اعظم ، وان لقى ذلك معارضة

شديدة من جانب أخيه ارتجيفا ، الذى كان يلقي تاييدا قويا ، وتجبرا على رفع اللواء الامبراطورى بقره قورم . وتقدم قبلاى فى ١٢٦٨ لاختراع مملكة مانجى أو بلاد الصين الجنوبية ، وكانت تحكمها فى ذلك الحين أسرة سنج ، فتم له الاستيلاء على عاصمتهم هنج تشيو فى ١٢٧٦ وضم الدولة كلها الى امبراطوريته فى ١٢٨٠ ، وهى السنة التى جعلت بداية لحكمه اميراطورا للصين ، فى « الحوليات التاريخية الصينية » ، التى يرد فيها تحت لقب بوون تشى تسو . وتوضع وفاته فى اول ١٢٩٤ ، وهو آنئذ فى الثمانين من عمره . وهو خامس خان اعظم فى هذه العائلة ، وبعد وفاته لم يعد أحفاد الجد الأعلى المشترك للجميع ، الذين يحكمون الولايات الواقعة فى الغرب والجنوب ، يعترفون بأى عاهل أعلى .

(٢) لما كان قبلاى انتخب خانا اعظم فى ١٢٦٠ وتسوفى فى ١٢٩٤ . فان حكمه بلغ بالضبط أربعة وثلاثين عاما ، ولكن نظرا لأنه عين نائب ملك لأخيه مانكو ببلاد الصين ، منذ ١٢٥١ ، فان فى الامكان اعتبار أن مدة حكمه دامت ثلاثا وأربعين سنة ، ولعله عمل هناك فى قيادة الجيوش ابان فترة اقدم من ذلك أيضا . ومع هذا فان تأكيد أنه حكم ستين عاما لا يمكن تبريره ، ولا بد أنه نتج عن غلطة أو تحريف لأوضاع الأرقام التى كان ينبغى فى الحساب اللاتينى أن تكون XL بدلا من LX أى ٦٠ .

(٣) كان وجود تلك العادة الغريبة لدى التتار المغوليين موضع شك . على أن : « الحوليات التاريخية الصينية » لا تخلو من حالات لممارسة ذبح الأضاحى فى الجنازات ، وأنا لنجد أنه حتى فى عام ١٦٦١ ، أمر الامبراطور التتارى شن تشى بتقديم قربان آدمى عند وفاة خليفة له اثيرة . يقول البروفسور كويليه :

« Voluit tamen , trīginta hominum spontanea morte placari manes concubinae ritu apud sinas exerundo, quem barbarum morem successor deinde sustulit ».

(Tab Chronologica Monarchiae Sincae)

انظر

وفى البيان عن فتح الصين على يد تتار المانتشو ، الذى كتبه الراهب الجزويتى مارتينوس ورد أن ملك المانتشو ، لين منج ، اقسم ، حين غزا الصين للانتقام لقتل أبيه ، أنه ، جريا على عادة التتار ، ليحتفلن بجنازة الملك المقتول بذبح مائتى ألف صينى . وهذا يؤيد رواية ماركو

بولو بدرجة رائعة • ويختلف عدد الذين ذكر أن من رافقوا جنازة
مانكو خان ضحوا بهم اختلافا جسيما في الترجمات المختلفة ، كما انه
يرفع في الخلاصات الى ٣٠٠ر٠٠٠ • وتجعله نسخة مارسدن يبلغ
العشرة آلاف ، بيد أن المخطوطات المبكرة تبدو أنها تؤيد العدد الوارد
في نسختنا هذه •

• هوامش الفصل السابع والأربعين

(١) يدور حول هذه الهجرة الدورية لقبائل التتار قدر كبير من سوء السمعة ، بحيث لا يكاد بيان مؤلفنا عنها يحتاج الى ما يؤيده من احوال الثقافات ، على ان القارئ سيجد الفقرة التالية من دوهالد منطبقة عليهم بصورة نفسية : « يعيش جميع المغول أيضا على هذا المنوال ، حيث يتجولون هنا وهناك مع قطعانهم ويقيمون مخيمات في الأماكن المناسبة لراحتهم والتي يجدون فيها أجود أنواع العلف ، وهم يتواجدون في العادة صيفا في أماكن مكشوفة قرب بعض الأنهار أو بعض البرك ، فان لم يجدوا قالى جوار بعض الآبار : وهم في الشتاء يلتمسون الجبال والتلال أو هم على الأقل يستقرون خلف أحد المرتفعات التي تدركهم من ريح الشمال السديدة المزهرير بتلك الأصقاع ، ويزودهم الثلج بالماء الذي ينقصهم . ويفيم كل ملك في قطره ، بغير ان يكون مسموحا له ولا لرعاياه بالذهاب الى اراضى الآخرين ، ولكن يمكنهم في الاتساع الأرضي الذي يمتلكونه أن يقيموا حيث يشاءون » (ج ٤ ص ٣٨) • يقول ألفنستون : « يسمى المقام الصيفي ايلوك » والمقام الشتوي « كشلوك » وهما كلمتان اقتبسهما الأفغان والفرس كلاهما من التتار • انظر Acc. of Caubul ص ٣٩٠ .

(٢) اليكم وصف بل Bell للخيام كما شاهدها بين الكلموك ، الخيمين قرب نهر الفرجا : « اقام التتار خيامهم على امتداد ضفة النهر • وهى حيام ذات شكل مخروطي ، وهناك عدة أعمدة طويلة ترفع مائلة أحدها نحو الآخر ، وهى تثبت في القمة في شيء يشبه الطوق ، الذي يشكل محيط فتحة لطرد الدخان أو ادخال النور ، وقد وضعت عبر التضياب بعض العصي الصغيرة التي يتراوح طول الواحدة منها بين أربعة اقدام أو ستة ، وهى مثبتة على العمدان بمسبوك من جلد • ويغطي هذا الاطار بقطع من اللباد المصنوع من الصوف الخشن والشعر • وتؤلف هذه الخيام مأوى أحسن من أي نوع آخر . كما انها مصممة بحيث تنصب وتفك وتطوى وتحزم بغاية اليسر والسرعة ، وهى من الخفة بحيث يحمل بعير خمسا أو ستا منها » • (ج ١ ص ٢٩) انظر أيضا دوهالد •

(٢) « وعندما ينزلون بيوتهم (من فرق عرباتهم) يديرون وجه الأبواب نحو الجنوب دائما . انظر (Purchas, Journal of Rubruquis) مج ٣ ص ٣) ويبدو أن فتح الباب نحو الجنوب هو العادة الشائعة ببلاد التتار : بكل من البيوت الثابتة والمتنقلة . وذلك للتصوط بقدر الامكان من شر الرياح الشمالية . وسيرى القارئ فيما بعد أن هذه العادة نفسها لا تزال باقية في الولايات الشمالية للصين .

(٤) وهم يصنعون نوعا من سلال مربعة من عصى صغيرة رفيعة ، بلغ حجم الصناديق الكبيرة ، ومن جانب الى آخر يشككون غطاء مجوفا من نفس هذه العصى وينشئون بابا في الناحية الامامية من السلال . ثم يغطون الصندوق المذكور أو المنزل الصغير باللباد الأسود الدهوك : اسنحم أو لبن الغنم لمنع تسرب المطر من خلاله ، ثم يزخرفونه ايضا بالطلاء أو الريش . وفي هذه الصناديق جميع ادواتهم المنزلية وثرواتهم . ثم انهم ايضا يربطون هذه الصناديق ربطا وثيقا على عربات اخرى تجرها الجمال ، . انظر Purchas ، مج ٣ ص ٣ .

(٥) هذه العادة من تكليف الرجال النساء بإدارة شئونهم التجارية ، يؤيدها البروفسور جريبتون ، الذي صاحب الامبراطور كانغسى فى حملاته . (انظر دوهالد ج ٤ ص ١١٥) . ويلاحظ الفنسنتون بالنسل وهى يتحدث عن قبيلة ببلاد الافغان ، تسمى قبيلة حازورة ، وهى يعدها بقية مقبقة عن جيش تترى ترك هناك ، « ان الزوجة تدبر البيت ، وتعنى بالممتلكات ، وتقوم بنصيبتها فى أداء مظاهر الحفاوة ، كما أنها تهتم بشئ كثير فى كل مشروعات زوجها » . انظر Acc. of Canbul ، ص ٤٨٣ .

(٦) « على هذه التلال (القريبة من نهر سلنجا) اعداد ضخمة من حيوان يسمى المرموط (Marmot) له لون ضارب للسمر (للبني) ، وله اقدام كاقدام الغرير (Badger) ، ويكاد يعدله فى الحجم . وهى يحفر جحورا عميقة فى منحدرات التلال ، ويتال أنه يقضى ريدا معينا من الشتاء داخل هذه الجحور حتى لو يغير تناول أى طعام . ومع هذا فان الحيوان يجلس أو يكمن قرب وجاره ، وهو يراقب ما حوله مراقبة دقيقة ، حتى اذا اقترب خطر رفع نفسه على قدميه الخلفيتين ، وصفر صغيرا عاليا ، ثم توارى فى جحوره على الفور » . (انظر Bell's Travels مج ١ ص ٣١١) . ويتطابق الوصف الذى أورده دوهالد عن الحيوان على خير وجه مع بيان مؤلفنا : « ان هذا الحيوان (الذى يعادل فى حجمه السمور الأبيض (القاتم Ermine

انما هو نوع من قار الغيط . وهو شديد الانتشار فى بعض أرجاء معينة من بلاد كالكاس . ويظل التلبى « Tael-pi » تحت الأرض حيث يحفر مجموعة فيها من الأنفاق الصغيرة بقدر الذكور التى فى السرب : ويوجد واحد منها فى الخارج على الدوام ، ليقوم بالعسس والترقب ، ولكنه يفر ما أن يرى أى إنسان ، ويسارع الى الدخول الى الأرض بمجرد أن يقترب أحد منه . ويمكن الحصول فى وقت واحد على عدد كبير منه » . (ج ٤ ص ٣٠) .

(٧) ان هذه الكلمة التى كتبت هنا كيمورس « Kemors » وهى النسخة اللاتينية : Chuinis and Chemins هى ما يسميه الرحالة الآخرون كميز او كيموز (Kimmuz) وتنتطق باللهجة السوقية كوزموس . وهى من تحضير من لبن الأقراس ، يجعل فى حالة تحضير بالتسخين ، ويضرب فى قربة ضخمة من جلد (بقصد فصل الزبد عنه ، فيما يبدو) ويجعل بهذه العملية مسكرا الى حد ما . وهو يتحمل وهو فى هذه الحالة ، الاحتفاظ به لعدة أشهر ، وهو الشراب الأثير لىدى جميع قبائل التتار . ويلاحظ ألفنستون قائلا : « ان الشراب القومى للأوزبك هو الكيز ، وهو شراب مسكر ، من المعروف جيدا أنه يجهز من لبن الأقراس » . (ص ٤٧) . هذا الكحول (المستقطر) ، وأن انتج من نفس المواد ، ينبغى التمييز بينه وبين الكيموز الذى يخلط بينه وبينه بعض الكتاب . ويزودنا روبروكر ببيان تفصيلى عن هذه المستحضرات اللبنية فى كل مراحل صنعها .

(٨) يقول بل : « انه ينبغى أن نلاحظ ، وهو أمر يشرف نساءهم ، انهن أمينات ومخلصات جدا ، وانه قل بينهن من كانت داعرة : فالزنى بينهم جريمة قلما سمع عنها الناس » . مج ١ ص ٣١ .

(٩) يقول البروفسور جريبون ما نصه : « مع أن تعدد الزوجات لم يحرم بينهم حتى الآن ، فان الواحد منهم لا يتخذ فى العادة الا زوجة واحدة » . (انظر دوهمالد ج ٤ ص ٣٩) على أن غيره من الكتاب يقولون ان ممارسة التعدد اعم ، بيد أنها قد تكون أوسع انتشارا فى احدى القبائل منها فى أخرى .

(١٠) يقول تيفينوه : « وهم لا يقدمون مهرا لزوجاتهم ، ولكن الأزواج يقدمون الهدايا لأبائهن وأخوتهم ، ويدونها لا يستطيعون الحصول على زوجات » انظر Relation des Tar-tar-es ج ١ ص ١٩) .

ويقول روبروكس : أما بصد الزيجات فلن يستطيع رجل الحصول
على زوجة حتى يشتريها ، انظر Purchas مج ٣ ص ٧ .

(١١) يضيف مترجم أبو الغازي : « ليس هناك سوى هذا الفارق
بين التتار المسلمين وغيرهم من التتار : وهو أن المسلمين منهم يراعون
بعض درجات القرابة ، التي يحرم عليهم فيها القزائج ، وذلك بينما أن
الكلموك والمنغال ، لا يراعون - إلا في حالة أمهاتهم الطبيعيات - أية
صلة دم في زواجهم » ص ٣٦ هـ . ويقول روبروكس : « أن الابن
ينزوج في بعض الأحيان جميع زوجات أبيه إلا أمه وحدها » Purchas
مج ٣ ص - ٧ .

٥ هوامش الفصل الثامن والأربعين

(١) يقول بل : « يبدو ان دين « البوراتى » هو نفسه دين الكلموك ، انتهى هو وثنية صرفة من اغلظ نوع . أجل انهم يتحدثون عن « كائن » ترى قاهر وصالح . خلق الأشياء جميعا ويسمونه « بورشدين » « Burchun » . ولكن يبدو انهم يتخطون خبالا فى متاهة افكار غامضة . خرافية تتعلق بطبيعته وحكمه . ولديهم كاهنان أعظمان ، يقدمون اليهما احتراماً عظيماً ، ويسمى أحدهما دالاي لاما ويسمى الآخر كرموختو . انظر Bell's Trav. مج ١ ص ٢٤٨ . « ويؤمن المنغال (المغل) ويعبدون خالقا واحدا كلى القدرة لكل شيء » . وهم يؤمنون ان الكوتوختو هو نائب الله فى الأرض ، وأنه سيكون هناك حالة مستقبلية من الثواب والعقاب » . (ص ٢٨١) « وبلغنى ان دين التونجوت ، هو نفس دين المنغال ، وأنهم يؤمنون ، فيما يتعلق بتقمص الدالاي لاما بنفس الآراء التى يعتنقها المنغال حول الكوتوختو وأنه ينتخب بنفس الطريقة » . (ص ٢٨٣) أما الهيئة الكهنوتية ، التى يعد الدالاي لاما أى (اللاما الاعظم) رأسا لها ، فلم تؤسس ، حسبما يروى جوبل ، الا فى زمن متأخر جدا هو ١٤٢٦ ، ولكن يبدو ان اللامات العاديين كمجرد كهنة « لشيأكيامونى » ، كانوا موجودين منذ زمن بعيد . وان الشامانات . فى الاصقاع الشمالية من بلاد التتار ، إنما هم لامات فى مجتمع أخشن واغلظ حالا . والكوتوختو من اللاما اذعنلم كالكرادلة ، من البابا أو ربما هو اقرب الى الكردينال الذى يعين مندوبا بابويا .

(٢) هذا البد (الوثن) التتارى ، الذى يكتب اسمه ناتاجاى فى الطبعات اللاتينية وناتشيجاي فى الخلاصات الإيطالية ، هو ايتوجا عند بلان ده كربين ، الذى راح يصف الممارسات الخرافية التى يمارسها هؤلاء الناس على النحو التالى : « وهم شديدي التمسك والاكباب على التنبؤات ، وعرافة العرافين ومطير الطيور والسحر والرقي والتعاويذ . وعندما يعطيهم الشيطان جوابا ما ، يعتقدون أن ذلك الجواب آت من الله نفسه ويسمونه ايتوجا » . (انظر Bergeron ص ٢٢) .

(٣) يقول روبروكس : « وعندئذ يخرج خادم الى خارج البيت ، يحمل له فنجان من الشراب ، ويرشه ثلاث مرات في اتجاه الجنوب ، الأخ ٠٠٠ وعندما يمسك سيد الدار بفنجان في يده ليحتسيه ، فإنه قبل ان يذوق شيئاً منه ، يصب نصيبه على الأرض » ٠ (انظر Purchas مج ٣ ص ٤) ٠

والكلمات التي وردت في النص اللاتيني المبكر لمؤلفنا هي :

(Postea accipiunt de brodio et projiciunt super eum per ostium domus suae camerae ubi stat ille deus uirum).

(٤) يقول بل : « وهم مسلحون بالقسي والنشاب (السهام) ، وبالسيوف الضالعة (Sabres) والحراب ، التي يستخدمونها ببراعة كبيرة ، اكتسبوا بدوام الممارسة منذ الطفولة » ٠ مج ١ ص ٣٠ ٠

● هوامش الفصل التاسع والأربعين

(١) ستتجلى صحة بيان مؤلفنا عن تشكيل جيوش المغل من مقارنته بالتقرير التفصيلي الموجود في الترجمة الفرنسية لكتاب أبي الغازي : « تاريخ التتار » ، « History of the Tartary » .

(٢) التومان هو الاصطلاح الفارسي المألوف لجيش من عشرة آلاف رجل - على أن كلمة توك Tuc ، بمعنى مائة ، ليست واردة في المعاجم - وربما كانت تحريفا هجائيا لكلمة دوز أو سوس أو أيون التي يُعبر بها عن ذلك العدد في لهجات مختلف القبائل القترية ، (والتي منها بالتركية يوزياشي أي قائد مائة (المترجم)) .

(٣) ان العادة الاسكندية أو السرماتية من استخراج الدم من الخيل ليكون قوتا للفرد أو مادة للاستمتاع المترف ، وأيضا عادة الاحتفاظ باللبن ليستخدم في شكل متماسك (متيس) كانت ممارسات معروفة لدى القدماء .

(٤) يقول بل : « انهم في الزخوف الطويلة تتكون جميع مؤنهم من الجبن ، أو بالحرى من الخثار المجفف ، المكور كورا صغيرة ، فيشربونه بعد أن يسحقوه (يصحنوه) ويخلطوه بالماء » . (مج ١ ص ٣٤) ويقول ترنر : « وأهدى إلينا قدر موفور من اللبن الطازج الدسم ومن مستحضر يسمى بلغة الهند « دهى » Dhy ، وهو لبن محمض بمخيض اللبن الذي يغلى فيه ويحتفظ به حتى يتخثر قليلا « والكوموز » عند التتار هو لبن الأفراس مجهز بهذه الطريقة نفسها : وهو يجفف أحيانا في كتل حتى يصبح كالطباشير ، ويستخدم ليضفي نكهة للماء الذي يشربون بأذابته فيه . وقد بلغنى أن عملية « تجفيفه » تتم أحيانا بوضع الدهى في أكياس من القماش محكمة الرباط وتعليقها تحت كروش الخيل » . انظر Embassy to Tibet ص ١٩٥ .

(٥) لعله يعنى بفساد العادات ، الاشارة الى النتائج التي عادت عليهم من فتح الصين ، وهو أمر أورث هؤلاء الأقوام الغلاظ الأشداء استمراء الاستمتاع بالدعة والترف . وبلغ من انهالك قوى المنغال قبل

انقضاء قرن واحد • أن طردوا شر طردة الى صحاريهم على اثر عصيان
قام به السكان الصينيون •

(٦) لما كان موقع أوكاها أو أوتشاشا ، وضع هنا مقابلا لموقع
الولايات الشرقية ، فانه يمكننا الظن بأنها هي أوكاك أو أوكاكا التي
أوردها أبو الفداء ، على ضفاف نهر اتيل أو الفولجا ، غير بعيد من
سراي ، التي زارها والد مؤلفنا وعمه في رحلتها الأولى • ومع هذا
فليس المقصود بالاصطلاح النسبي وهو « الشرقية » أن ينطبق على
الولايات التي نسميها ، بالنسبة للصين ، بلاد التتار ، بل على الاقليم
الواقع شرقي بحر قزوين •

● هوامش الفصل الخمسين

(١) أطلق البرتغاليون على هذه العقوبة ، المعروفة بأنها شائعة ببلاد الصين ، اسم باستانادو (وهى كلمة مشتقة من لفظة داستاندر بمعنى الهراوة أو العصا) .

(٢) الذى يحدث بالصين ، حيث يمكن الظن بأن قوانين العقوبات التترى كان له سلطان كبير ، أن عقوبتى قطع الرأس وتقطيع الأجسام الى اجزاء كثيرة ، تستخدمان جزاء على جرائم كبيرة معينة .

(٣) يقول يل : « ان ماشيتهم ذات القرون ضخمة الجثة جداً . ولاغنامهم ذبول عريضة ، ولحم ضأنهم ممتاز . ولديهم كذلك أعداد مرفورة من الأعناز » . مج ١ ص ٢٤٦ .

(٤) هذه العادة ، مهما بلغ من خرقها للمألوف ، فلانما هى من نفس طبيعة السفافات الخطيرة التى توجد فى النظم الصينية ، ويخبرنا البروفسور نافارت ، انها توجد فى احدى الولايات الشمالية التى تتاخم بلاد المنغال ، حيث يمكننا بطبيعة الحال البحث عن تماثل فى الممارسات . يقول : « لأهالى ولاية شان سى عادة مضحكة هى تزويج الموتى . فقد بلغنا نبأ تلك العادة ونحن فى السجن ، الراهب الجزويتى ميخائيل تريجوسوس ، الذى عاش عدة سنوات بتلك الولاية . ان يتصادف أن يموت ابن لأحد الناس وابنة لآخر . وبينما التعتشان لا يزالان فى البيوت (وهم فى العادة يحتفظون بالنعوش سنتين أو ثلاثة أو أكثر) يتفق الوالدان على تزويجهما ، ويرسلان الهدايا العادية كأنما هما على قيد الحياة مع الكثير من مراسم الاحتفالات والموسيقى . وبعد ذلك يضعان النعشين متجاورين ويقيمان وليمة العرس أمامهما ، وأخيرا يضعانهما جنبا الى جنب فى مقبرة واحدة . ومنذ تلك اللحظة لا يعد الوالدون الأربعة أصدقاء بل اقارب وأصهارا ، شأنهم لو تم الزواج بين أبنائهم وهم أحياء » . (انظر Churchill's Collect. مج ١ ص ٦٩) . ويقول

مالكولم : « ان هذا يقال ، انه لا يزال يمارس ببلاد التتار . وهم يلقون
 بالعقد في النار ويتصورون الدخان يتصاعد الى الطفلين الراحلين ،
 اللذين يتزوجان في العالم الآخر . ويذكر هذه الحقيقة بقبه ده لأكرواه
 في كتابه حياة تشنغيز (Chenghiz) ، كما اني أجدها مذكورة في
 مخطوط فارسي كتبه رجل واسع العلم والاطلاع » . (انظر Hist. of
 Persia مج ١ ص ٤١٣ هـ) .

● هوامش الفصل الحادى والخمسين

(١) يظهر اسم بارجو فى خريطة بلاد التتار لاستراهلنبرج ، قرب الجزء الجنوبى الغربى من بحيرة أو بحر بايكال ، كما يرسم بخريطة دانفيل على الجانب الشمالى الشرقى ، ولكن مؤلفنا يطلق الاسم على الاقليم الذى يمتد من هناك ، مسيرة ايام كثيرة فى اتجاه المحيط المتجمد ، ويدور كائنا يتقابل وما نسميه الآن سيبيريا . ويلاحظ استراهلنبرج هذا الخطا فى وضع المكان (كما يراه) ويقول : « يوجد اسم بارجو فى الخريطة القديمة لبلاد التتار الكبرى ، ولكنه فى موضع بالغ الخطا ، وأعنى بذلك أن موضعه منحرف نحو البحر المتجمد » . (هامشة ٨ ص ١٤) . ومع ذلك فربما حدث فى مدى اربعة قرون أن قد حل اسم منهم محل آخر ، وأعتقد أنه لن ينازع أحد أن سيبريا هى الاسم القومى للمنطقة التى أطلق عليها .

(٢) قبيلة مكريتى هذه ، التى وردت فى الخلاصات الايطالية تحت اسم مكرييت ، ولكنها فى الطبعة اللاتينية مديتاي (وميكايى فى اللاتينية المبكرة) ، كثيراً ما تذكر فى التواريخ النثرية باسم مركيت ومركات ، وكانت بلادهم من أوائل ما فتح جنكيز خان ، لأنها متاخمة له مباشرة . ولم يذكر موقعها على أية درجة من الدقة ، وإن أمكن استنتاج توغلها شمالاً من فقرة فى كتاب : « Hist. Gen. des Huns » ، حيث ورد فى سياق الكلام عن هزيمة النايما و تشتت أمرائهم ما نصه : « لأن الجميع بأنيال الفرار وانسحبوا صوب نهر ارتش ، حيث وطنوا انفسهم وألفوا مجموعة قوية تم تماسكها تحت قيادة تكتايغ ، خان المركيت » . (الكتاب ١٥ ص ٢٣) ويقول أبو الغازى : « من كانوا من قبيلة المركات ، أتيح لهم فى زمن زنجيزشان (خان) يسمى طوشتابجى الذى كان دائماً فى نزاع مع زنجيزشان » . (Hist. Gen.) ص ١٣٠) . وربما كانت هذه أكثر القبائل بعدا فى الشمال عرف مؤلفنا اسمها . ومع أنه يواصل الآن الحديث (بصورة عامة جداً) عن تلك الأقطار المترامية التى تمتد بين نهري أوبى ولينا ، فربما أمكن افتراض أنه لم يكن يعرف شيئاً عنها الا عن طريق ما يسمعه من الغير ، ولا هو يحاول أن يفهمنا أنه زارها بشخصه .

(٣) ذلك هو غزال الرنة المعروف ، وهو نوع ضخم وجميل من الظبي Cervus يعادل ظبي الالكة (Elk) فى الحجم ، ولا يبعد فى الشكل عن غزالنا الأحمر •

(٤) يتقابل وصف هؤلاء الناس ويلادهم وما نقرأ عن كثير من القبائل المتوحشة التى تضرب فى هذه الصحراوات القاحلة التى تنساب فيها الأنهار الشمالية الكبرى •

(٥) ينبغى أن يكون سفهما أن مسافة رحلة الأربعين يوماً هذه ، تبدأ من (سهل أو سهب (Steppe) بارجو • وهو يتحدث عنها بتحفظ ، وليس على أنها منطقة زارها بنفسه •

(٦) يقول استراهلنبرج : « يوجد بولاية دوريا وقرب نهر أمور أو عامور (وهو صفالين أولاً عند الجزويت) عدد لا يحصى من البزاة الناصعة البيضاء كاللبن ، وترسل منها أعداد كبيرة الى بلاد الصين » ص ٣٦١ • ويقول بل : « لم يسعنى الا أن أعجب بملاحة هذه الطيور الجميلة • • وهى تجلب من سيبيريا ، أو من أماكن واقعة شمالى نهر عامور » • (Travels مج ٢ ص ٧٩) وكان بين الهدايا التى بعث بها القيصر أيفان باسيلي وتر • على يد سفيره ، الى الملكة ماري فى ١٥٥٦ (كما ذكرها كليوت) • سنقر (Jerfawcon) ضخم أبيض وجميل ، من أجل صيد البجع والكركى ، والأوز البرى ، وغيرها من الطيور الكبيرة •

(٧) لعل الكلمات الإيطالية Lastella tramontan التى تترجم هنا باسم : « مجموعة النجوم القطبية » • ينبغى أن تكون أن شيئاً الدقة هى « النجم القطبي » • وينبغى أن نفترض أن ما يعنيه هو أن النجوم الواضحة الواقعة فى ذيل الدب الأصفر ، أو ربما ما نسميه فلك الدب الأكبر ، كانت تظهر الى الجنوب من الشخص الواقف على الطرف الأقصى من القارة الشمالية • وأنا لنجد فى خريطة فراموري هذه الكلمات •

● هوامش الفصل الثانى والخمسين

(١) المقصود من اسم أرجينول أو أرجينور المحرف ، (كما يمكن حدسه من الظروف) ، هو تلك الناحية من تانجوت التى تسمى كوكونور عند التتار ، وهو هونور أو هو هونول عند الصينيين ، وتعتبر عند البعض هى تانجوت نفسها . وتفصل بحيرتها عن مدينة كامبيون أو كان تشيو مسافة تقارب مائة وأربعين ميلا ، فى اتجاه جنوبى تقريبا ، لا يكاد يمكن قطعها فى خمسة أيام عبر شقة جبلية ، بيد أن موقع مدينتها الرئيسية ربما كان أقرب كثيرا إلى ذلك المكان ، وربما كان أيضا يقع إلى الشرق من خط زواله على ضفاف نهر أولانمورين . والاسم الوارد فى طبعة بال إيريجيمول ، وفى اللاتينية الأقدم أرجيمول ، وفى الخلاصات الإيطالية أرجيول ، ولكن واضح أن واحدة منها ليست أصح من أرجى نول عند راموسيو ، وهى كلمة ، الجزء الأخير منها يبدو أنه كلمة « نور nōr أو nōr التى معناها بحيرة .

(٢) ظن بعضهم أن سنجوى (كما يكتب الاسم فى نصوص راموسير وطبعة بال والنسخة اللاتينية المبكرة ، ولكنه فى المخطوطات سجن وسجوى وفى الخلاصات سيريجاي) ، - هى مدينة سى جنان فى عاصمة ولاية شن سى . على أن الأخيرة تقع قرب الحسد الشرقى للولاية ، وفى قلب الصين ، بينما تانجوت هى التى لا يزال مؤلفنا يصفها ، ورغم أن الطرف الغربى من شن سى كان تابعا فيما مضى لسيفان أوتوفان (شعب تانجوت) ، فإن هذا لا ينطبق على الجزء الداخلى من الولاية . ولا شك عندى أن المقصود بسنجوى أو سجن ، هو بحد ذلك ، السوق الشهيرة المسماة سى ننج (وهى سيلين عند بالاس) ، على الحافة الغربية لشن سى ، ولا تبعد سوى مسافة رحيل بضعة أيام عن هوجو نور ، فى الاتجاه الجنوبى الشرقى . وقد كانت سنجوى فى كل الدهور ، ولا تزال حتى يومنا هذا ، محط الرحال العظيم للمسافرين بين التبت وبكين ، ومن يصدق عنها القول بأنها تقع فى الطريق إلى كاثاي .

(٣) لم يفت دوهمالد أن يلحظ هو أيضا هذه القلاع أو الحصون الكثيرة ، وهو يصف الأجزاء القريبة من شن سى بأنها تتألف من واديين عظيمين ، يتفرعان من نقطة ويتقدمان : واحد منهما فى اتجاه شمسالى والآخر فى اتجاه غربى ، الى اقليم سيقان . ولم تكن هذه الشقة تؤلف جزءا أصليا من الامبراطورية ، بل كانت اقليما مغزوا ، اقتطع من تانجوت وضم الى شن سى (ويعدها مؤلفنا تابعة لتانجوت فى زمانه) .

(٤) هذا النوع الجميل من الثيران نعته بوجه خاص ترنر فى كل من كتابيه : Embassy to Tibet Asiatic Researches مج ٤ ، باسم « ياك بلاد التتار » أو ثور التبت الكث الذيل . وهو يلاحظ : « ترتفع فوق الكتفين عضلة غليظة يغطيها لبد كثيف من الشعر الناعم ، هو على الجسلة أطول وأغزر من الممتد على بروز الظهر حتى بداية الذيل . ويتكون الذيل من كمية هائلة من الشعر الطويل المسترسل الصقيل . وتكتسى الكتفان والمؤخرة والجزء الأعلى من الجسم بنوع من الصوف الناعم الكثيف ، ولكن الأجزاء الدنيا مكسوة بشعر مستقيم مدلى ، ينزل الى أسفل الركبة . ولهذه الثيران أضرب كثيرة من الألوان ، ولكن اللونين الأسود والأبيض أشدها شيوعا » . (انظر Embassy ص ١٨٦) . أما ارتفاعه الذى ضخمه مؤلفنا ، فإن ترنر يقول انه يقارب ارتفاع الثور الانجليزى ، ولكن نظرا للكمية الضخمة من الشعر التى تغطى جسمه فإنه يبدو « ذا ضخامة بالغة » . وهو يتميز باسم Bos Grunniens .

(٥) يضيف ترنر : « ان « الياك » مال وثروة ثمينة جدا للقبائل التتارية المرتحلة المسماة دوكيا ، وهى تعيش فى خيام ، وترعى أسراب الياك من مكان الى مكان ، ثم هى تتيح فى الحين نفسه لرعيانها وسيلة انتقال سهلة ، وأغطية جيدة وطعاما صحيا . وهى لا تستخدم قط فى الزراعة » . (من الواضح أن هذا ربما لم يكن هو الحال بكل منطقة) ، ولكنها نافعة بالغ المنفعة كدواب حمل ، وذلك لأنها قوية الأجسام ، ثابتة الأرجل على الأرض ، وتحمل ثقلا عظيما » . (ص ١٨٧) .

ويبرز موركرافت هذه الصفات بقوة فى Journey to Lake Mansarovera بمجلة : Asiat. Res. مج ١٢ .

(٦) من المعلوم عند الجميع أن مسك بلاد التبت ، أو مسك نالوك الجزء من بلاد التتار المجاور لشمال غرب الصين ، يفوق ما يحصل عليه منه فى الولايات الصينية .

(٧) نحصل من ترنر على بيان دقيق ، وان يكن غير علمي ، لما يسمى عادة باسم غزال المسك ، الذى يقول أنه يسمى بلغة التبت « La » كما يسمون الغشاء الوعائى للمسك « لاتشا Lacha » • فبعد الحديث عن الماشية الطويلة الشعر يمضى فى المكان التالى كما يفعل مؤلفنا فيقول : « ويكثر غزال المسك أيضا ، وهو ينتج سلعة ثمينة تدر دخلا وفيرا ، كثرة عظيمة فى المنطقة المجاورة لهذه الجبال ، ويلاحظ ان هذا الحيوان يبتهج فى أشد أيام البرد زمهرياً ، كما أنه يوجد على الدوام فى الأماكن التى تجاور المنطقة الثلجية • ويمتد من فكه الأعلى نابان شديداً الطول مقوسان ، ومتجهان الى أسفل ، وكأنى باقصد بهما بنوع خاص مساعدة الحيوان على احتقار الجذور النباتية من الأرض التى يقال انها طعامه المعتاد ، ومع هذا فربما كانا سلاحى هجوم لديه • وتقارب تلك الغزلان فى الارتفاع خنزيراً متوسط الحجم ، وتشابهه كثيراً فى شكل الجسم ، ولكنها مع ذلك أقرب الى الغزال الخنزيرى Hog-deer الهندي الصغير الذى يسمى كذلك ببلاد البنغال تأسيساً على نفس المشابهة • ولها رأس صغيرة ، ومؤخر غليظ ومستدير ، وهى بتراء بلا ذنب ، كما أن لها أطرافاً مفرطة النحافة • وأعجب ما يتفرد به هذا الحيوان ، هو نوع الشعر الذى يغطى بدنه ، وهو غزير غزارة هائلة ، وينمو منصبا فوق جسمه كله ، معتداً ما بين يوصتين الى ثلاث بوصات ، ولا يرقد ويملس الا حين يكون قصيراً ، على الرأس والسيقان والأذنين • والشعر عند نبتة أبيض اللون ، وفى الوسط أسود ، وفى أطرافه بنى • والمسك أقران يتكون فى كيس صغير أو ورم ، يشبه الكيس الدهنى ويقع عند السرة ، ولا يظهر الا فى الذكور ، • انظر Embassy to Tibet (ص ٢٠٠) • على أن هناك فى كتاب نشر بكلكتا فى ١٧٩٨ ، يسمى « Oriental Miscellany » مج ١ ص ١٢٩) ، وصفاً علمياً لمسك التبت ، من تأليف الدكتور فلمنج ، مع لوحة مأخوذة عن رسم مضبوط للحيوان ، رسمه المستر هوم • وانظر أيضاً صورة مطبوعة للرأس فى كتاب كركيا تريك المسمى Acc. of Nepaul

(٨) كانت الحالات التى استخدم فيها اللحم طعاماً ، موضع ملاحظة كثير من الكتاب العصريين •

(٩) (الوارد فى النص اللاتينى المبكر هو خمسة عشر) •

(١٠) الراجع أن هذا هو تدرج أرجوس (Phasianus argus) الذى يقال ، رغم أنه يقطن سومطرة ، يوجد أيضا بالجزء الشمالى من الصين •

(١١) تنتشر عبادة اللامات ، وهى وثنية ، بالمنطقة المجاورة « لسى فنج » ، فضلا عن جميع الأقاليم المتاخمة لولايتى شن سى وسى تشوين فى الغرب •

(١٢) ونص النسخة اللاتينية المبكرة هو:
« (Non habent barbam nisi in mento) »

● هوامش الفصل الثالث والخمسين

(١) لا يوجد أى أثر لأسماء أجريجايا ولا اججايا ولا اجيجايا أو أجريجايا ولا أسماء كالانتشا أو كالاكيا أو كولاتيا أو كاتيا بأية خريطة يمكن اتخاذها سنداً يعتمد عليه . ومع هذا فلأسمـ الأول بعض المشابهة باسم أوجوريا وأيجوريا أو بلاد الأيغور ، وكما يشابه الثانى اسم المدينة التى يدعوها روبروكى كايلاك ويسمىها بـ . جويز كياليس ، التى من المظنون أن موقعها يوجد فى الخريطة الملحقـة بأول كتاب تاريخ تيموريك لشريف الدين ، الذى ترجمه بتيه ده لأكرواه ، على مسافة قريبة الى الغرب من تورقان باسم يولدوز كيساليس . يقول روبروكى : « وجدنا هنا مدينة عظيمة ، بها سوق ومخزن عظيم للتجار الذين يختلفون اليها كل هذا الاقليم كان يسمى عادة أوجانم ، كما كان لأناسه لغتهم الخاصة ونوع كتابتهم المعين » . « ويسمى أول نوع من هؤلاء الوثنيين الجوجور ، وهم الذين تتاخم أرضهم أرض أوجانم سالفـة الذكر ، باتجاه شرقى داخل الجبال المذكورة . وكان لأهالى مدينة كايلاك سالفـة الذكر ابداد : (معابد اصنام) ثلاثة ، وقد دخلت اثنين منهما لأشهد خرافاتهم الحمقاء ، انظر Purchas مج ٣ ص ٢٠ .

(٢) كان استخدام وبر الجمل فى نسج القماش من أى نوع موضع الشك (وذلك لأن من المعروف أن المادة المستخدمة فى صناعة الشيلان هى نوع معين من الغنم) ، بيد أننا نعلم من الفنستون أن « الأورموك ، وكذا قماش ناعم مصنوع من وبر الجمل ، وكمية من القطن ، وبعض جلود الحملان ، تستورد الى (كاربول) من اقليم بخارى » . ص ٢٩٥ .

● هوامش الفصل الرابع والخمسين

(١) أسلفنا اليك ذكر سهل تندوك (ف ٤٥ ، ه ٤) ، وأوضحنا أنه كان معترك واقعة شهيرة ، هزم فيها جنكيز خان جيش أنج خان وقضى عليه ومع أن الاسم لم يرد في خريطة الجزويت ، فإن موقعها حثثته خريطة اليروفسور جويل ، حيث أوردت أن رعى الواقعة دارت في المسافة الممتدة بين نهري تولاوكرتون ، اللذين يقع منبعاهما عند حوالى خط عرض ٤٨° أو ٤٩° . وفي نفس هذه الشقة وعلى الحد الشمالى للصحراء ، حلت الهزيمة بالكالدان أى أمير الألبوت على يد قسوات الامبراطور كانج هى ، فى عام ١٦٩٦ . وانى لأميل بقوة الى الاعتقاد ، بأن اسم تندوك ، الذى خلط بتيه ده لأكرواه بينه وبين تانجوت ، ان هو الا تانجوس ، كما نجد فى الخرائط ، قبائل التانجوس مقيمة بهذه المنطقة ، وبخاصة بين نهر عامور وبحيرة تايكال . حقا ان ادبلنج يلاحظ ان اسماء الحيوانات المستأنسة فى لغتهم هى نفسها اسماؤها عند المنغال ، التى تلقوها عنهم ، وهو برهان على قدم تجاورهم واختلاطهم .

(٢) انظر التذييل ١ .

(٣) حدث فى عهد أسرة السلاجقة فى فارس ، الذى بدأ فى القرن الحادى عشر ، أن وطن المسلمون أنفسهم بأعداد غفيرة بمدينة قشغر ، ومنها انتشروا رويدا رويدا فى كل أرجاء بلاد التتار بصفتهم المألوفة كتجار . على أنهم ما لبثوا فى أثناء عهود أباطرة الصين المغول أو المنغال ، أن ظهوروا متقلدين وظائف وصلاحيات أعلى ، حيث كثيراً ما قادوا الجيوش ورأسوا المحاكم . وان رينودوت لمبذل كدا شديدا لاثبات أن أبكر اتصال بينهم وبين ذلك القطر تم بطريق البحر ، هو امر قد يصدق على العرب وان لم ينطبق على مسلمى فارس وخراسان .

(٤) اسم أرجون هذا يبدو أنه هو أرجون عند الجزويت وأرتشون فى خريطة بل . والنهر المسمى بهذا الاسم يجرى من خلال قسم بلاد التتار الوارد وصفه هنا ، فاذا التقى به نهر تولا أفرغا مائهما المتحدتين

فى نهر السلفجا • وأنا لنجد على الضفة الشمالية الغربية لنهر
الأرجوان ما يسمى فى العصر الحديث باسم الأورجا • أى مركز اللاما
الأعظم للمنغال • وعلى نفس خط العرض تقريبا ، ولكن الى الشرق
أكثر ببضع درجات ، يظهر أيضا نهر آخر أشد ضخامة ، يسمى فى
خريطة الجزويت باسم أرجونه ، أو أرجون ، مكونا الحد الفاصل بين
ممتلكات الصين والروسيا فى هذا الصقع ، من العالم ، وتقع على قرب
منه مدينة أو بلدة تسمى أرجون ستكوى •

● هوامش الفصل الخامس والخمسين

(١) ينبغي لنا الاعتراف بأن هذه الفقرة ، غير مفهومة كلية على صورتها المذكورة الآن ، وعلينا أن نفترض أن كلمات مؤلفنا أساء فهمها وحرفت ، وربما ظن بعض الناس أنه من غير العملى اعساده صياغتها ، بحيث يصير لها معنى مستقيم . ومن الجلى أن غرضه هو تبيان الفرق بين الجنسنيين اللذين يأثلف منهما رعايا أونج خان ، وأعنى بذلك المنغال والترك ، اللذين أصبح يطلق عليهما فيما بعد على وجه القصر ، اسم التتار : وهو تمييز أضفى عليه الغموض ، رغم التباين الملحوظ فى اللغات ، نتيجة لخليط القبائل المشمولة بحكم الحكومة نفسها . وذلك أنه ترتب على السمعة الممتازة التى اكتسبها الحكام التابعون مباشرة لجنكيز خان أو القبائل الأجنبية المساعدة المتنوعة ادعت الانتساب الى المنغال (المغل) ، بينما من الواضح كذلك ان الصينيين أطلقوا عليهم بغير تمييز اسم تاتا أو التتار . وربما جاز لنا أن نلاحظ بصدد اسمى ياجوج ومأجوج ، اللواردين فى التوراة ، أن المؤلف يتحدث عنهما هنا على اعتبار أن الأوربيين أطلقوهما خطأ على هذين الشعبين ، وليس على أنهما تسميتان معروفتان بهذه البلاد . والمفهوم لدى الغالبية العامة من العرب والفرس ، اللذين ينطقون الاسمين ياجوج ومأجوج ، أنهما ينتسبان الى سكان المنطقة الجبلية الواقعة فى الجانب الشمالى الغربى لبحر قزوین ، أى الى الاسكيذيين القدماء ، اللذين أقيم ضد غاراتهم للسلب والنهب ، منذ عهد سحيق استحكام دريند القوى ، فضلا عن خط الحصون الممتد منه وهى التى تعد من الخوارق . على أن هناك مواقع أخرى لهؤلاء القوم الجوالين ذوى الصفات المرعبة ، نسبها اليهم المؤلفون الشرقيون فى العصور الوسطى ، وفيهم من يجعلهم فى الجزء الشمالى من بلاد التتار .

(٢) بنيت عدة مدن ضخمة فى ذلك الجزء من بلاد التتار الذى يقع بين نهر كرلون وولاية بيه تشيه لى الصينية ، فى اثناء العهود المتعاقبة لأباطرة المغول فى الصين ، ولكنها دمرت فيما بعد ، عند طرد أسرة منج لتلك الأسرة المغولية ، وكان هدف منج هو - محو كل اثر لسلطان سادتهم السابقين .

(٣) لم نتمكن من العثور فى خريطة الجزويت على اسم سنديسين أو سنديتشين ، الذى ورد فى طبعة بال سنداكوى وفى الخلاصات الايطالية سنداتوى وفى النسخة اللاتينية المبكرة سنداتوس ، ولعله ينبغي أن يكون سندى أو سنداتشيو (والمقطع الأخير من الاسم يدل على كلمة مدينة) ، لكن ربما كان اسما لأحد الأماكن التى دمرتها أسره منج ، كما هو وارد فى الهامشة السابقة . وكذلك الشأن فى ايديفا أو ايديفو أو ايديكا فانها ضللت أبحاثى ، وإن كان ظرف وجود منجم فضة فى جبرتها ربما ساعد على تحديد موقعها . والحق انه على وجه الجسلة ، وعلى نحو خاص من وصف المصنوعات التى قيل انها مزدهرة هناك فانى أميل الى الظن بأنه حدث نقل وتحريف للمكان فى هذه الحالة بالذات (وهو وضع سنشهدك فيما بعد على أمثلة منه لا شك فيها) ، وإن الفقرة البائدة بالكلمات : « وأنت حين تسافر مسافة سبعة أيام مخترقا هذه الولاية » ، حتى ختام الفصل ، لا تربطها علاقة صريحة لا بما سبقها مما يتعلق باقليم المغول ، ولا ما يعقبها ويتعلق بتشانجانور ، ولكن لابد انه يطلق على اقليم أكثر حضارة ، يقع أقرب الى تخوم الصين .

● هوامش الفصل السادس والخمسين

(١) من الجلى أن المقصود من سيانجانور أو تشانجانور عند راموسيو ، وكيانيجا فيورم فى طبعة بال ، وكيانجامورم فى الطبعة اللاتينية الأقدم وكيانجامور فى مخطوطتى برلين والمتحف البريطانى ، وتشيانجانورم فى الخلاصات الايطالية ، هو تساهان نور أو البحيرة البيضاء الواردة بالخرائط ، والمرجح أن جبال تشانجاي عند استراهلنبرج أو هانجاي الين عند الجزويت ، تستمد تسميتها من نفس صفة «البياض»، حقيقة كانت أو تخيلية . واللفظة الدالة على « أبيض » فى المعجم الكالموكتى – المغولى هى زاجان ولها نطق موقق لتشاجان (. كما انها فى « معجم المانشيو للانجلز » ، « Mancheu dict. of Langles » وردت « تشانجوين » .

(٢) ان هذا الطير الذى أطلق عليه اسم جرو فى النسخ الايطالية وجروس فى اللاتينية ، سميته الكركى Crane فى الترجمة الانجليزية ولكن يمكن الشك فى ان ما عناء وصف مؤلفنا هنا بالحرى مالك الحزين (ardea Heron) أو اللقلق (ciconia) . يقول مترجم أبى الغازى أو المعلق عليه : « توجد كمية ضخمة من الطيور ذات جمال ممتاز فى السهول الفسيحة لبلاد التتار الكبرى ، والطائر الذى تكلم عنه هنا يمكن أن يكون نوعا من مالك الحزين ، الذى يوجد ببلاد المغول قرب حدود بلاد الصين ، وهو طائر ناصع البياض كله ، فيما عدا منقاره وجناحيه وذيله وكلها ذات لون أحمر أيضا نوعا من اللقلق » . انظر : Hist. Gén. des Tartares ص ٢٠٥ . وهذا هو طائر Crus Leucogeranus أو الكركى السيبيرى عند بنانت .

(٣) ورد بالنسخة اللاتينية المبكرة ما نصه :
(Quarta generatio sunt parvae et habent ad aures pennas nigras.
Quinta generatio est quia sust omnes grigiae et maxime, et habent caput nigrum et album »).

(٣) ينتقل الصيد بمقادير ضخمة وفى حالة متجمدة من بلاد التتار الى بكين أثناء الشتاء . انظر Lettres édif. مج ٢٢ ص ١٧٧
اصدار ١٧٨١ .

● هوامش الفصل السابع والخمسين

(١) ان شاندى وهى تشانج تو : (شانجتو) الواردة فى خريطة الجزويت ، والتي أوردها البروفسور كويليه فى تهميشاته على «Observation Chronol» تأليف البروفسور جويل ، يجرى الحديث عنها بوصفها : مدينة مخربة ، وهى تقع باقليم كارتشن ببلاد التتار ، و على خط عرض ٢٢.٤٠ ° شمال شرقى بكين (ص ١٩٧) وفى عام ١٦٩١ تكلم عنها العلامة جرييون على هذا النحو : « كنا على ٤٠ فرسخا فى سهل يسمى سهل كاباي ، على ضفة نهر صغير يسمى شانتو ، بنيت على امتداده فيما مضى مدينة شانتو ، وكان جميع أباطرة أسرة يونون يعتقدون بها بلاطهم طوال الصيف » ولا تزال بقاياها قائمة يمكننا رؤيتها » (انظر دوهالد مج ٤ ص ٢٥٨) فان كانت المسافة بين شانجانور وهذا المكان مسيرة ثلاثة أيام فقط ، فان الأولى لا يمكن أن تكون على الجانب الشمالى من الصحراء ، بيد أن الأعداد مغلوطة غلطا شائنا بسبب عدم الدقة فى النقل ، كما أن الكسور العشرية حذفت فى هذه الحالة .

(٢) يقول بل متحدثا عن مقر الصيد للإمبراطور : « ان هذه الغاية انما هى والحق يقال مكان بهيج ، وهى مزودة بأضرب باللغة الكثرة من الصيد ، كما انها عظيمة الاتساع كما يمكن تصور ذلك بسهولة من البيان الذى قدسته حول اليومين اللذين قضيناهما فى الصيد » وهى محوطة بأجمعها بسور مرتفع من الطوب « انظر Travels مج ٢ ص ٨٤ »

(٣) ان لم يكن هذا الحيوان هو النمر الأبيض Ounce فانه هو فهد الصيد : Felis Jubata وهو أصغر كثيراً فى حجمه من النوع المعروف . وهو يسمى فى الهندوستان بالتشيتا ويستخدمه الأمراء الوطنيون فى صيد بقر الوحش . انظر بياننا عن « طريقة الصيد عند أمراء الهندوستان » فى Asiatic Miscellany مج ٢ ص ٦٨ ، حيث يسمى هذا الحيوان التشيتار أو البانثار (أى الفهد الصيد) .

(٤) من المعلوم جيدا أن التتئين ذا المخالب الخمسة (بدلا من أربعة ، كما تصوره الصور العادية) هو الرمز الامبراطورى ، ويشكل جزءاً ظاهراً فى كل قطعة من الملابس أو قطعة اثاث أو زخرفة تتصل ببلاط الصين بسبب .

(٥) طريقة التسقيف الموصوفة هنا معروفة تماما بالجزر الشرقية، وورد ذكرها فى الفقرة التالية المقتبسة من Hist. of Sumatra :
« هناك نوع آخر من المنازل ، يشاد فى الأغلب الأعم لغرض مؤقت ، وسقفه مسطح وهو مسقف بطريقة جد غريبة وبسيطة وبارعة . فان الخيزرانات الضخمة المستقيمة تقطع فى أطوال تكفى للامتداد عبر البيت ، حتى اذا تم شقها بالضبط الى اثنين وأزيلت منها العقد رصت منها طبقة أولى فى نظام وثيق مع جعل الجوانب الباطنية أو المجوفة الى أعلى ، وبعد ذلك توضع طبقة ثانية من الخيزران مع جعل الجانب الخارجى أو المحذب الى أعلى فوق الأخريات بحيث تقع كل محدبة داخل القطعتين المقعرتين المتجاورتين مغطية بذلك حافتيهما ، حيث تعمل الأخيرة أى المقعرة كبرايخ أى ميازيب الماء الذى يقع على الطبقة الفوقانية أو المحدبة » . ص ٥٨ الطبعة الثالثة .

✳️ الطنب : الحبل الذى تشد به الخيمة (المترجم) .

(٦) احتفظ من بعده من الأباطرة بأفراس وقحول للاستيلاء على نفس هذا المعيار الضخم . ولا يبدو أن اللون الأبيض الآن على نفس أهميته التى كانت له عند أباطرة التتار المغوليين .

(٧) تختلف طريقة كتابة اسم هذه الأسرة ما بين بوريات وهورياتش وهوريث وأوراتى وأورارى . ولا شك أنها الأسرة القترية الرفيعة الشأن التى تحدث عنها مالكولم فى Hist. of Persia حيث يقول : « فى الأصل جاءت قبيلة بيات Byât القوية من بلاد التتار مع جنكيز خان . وطال مكثهم بآسيا الصغرى ، وحارب عدد منهم قى جيش بايزيد ضد تيمورلنك » . مج ٢ ص ٢١٨ . ه .

(٨) ان لجوء امراء أسرة جنكيز خان على الجملة الى فنون السحر ، لشيء يتجلى من بيانات تاريخية أخرى .

(٩) يبدو أن هؤلاء كانوا من الهنود اتباع اليوجا أو الجوسان الذين من المعلوم انهم يسافرون الى التبت عن طريق كشمير ، ومنها كثيرا ما يختلفون الى الأصقاع الشمالية من بلاد التتار . وكان مظهرهم

العارى والقذر موضع الوصف فى كل العصور ، وكذلك شأن كفاراتهم غير العادية وما ينزلونه بأنفسهم من عذاب •

(١٠) ان الاتفاق بين البيان الوارد هنا عن هذه العادة الهسجية المتبريرة وبين ما يعرف عن شعب باطا Batta فى سومطرة ، الذى يلتهم اجسام المجرمين المحكوم عليهم بالاعدام لعجيب لافقت للأنظار ، بحيث لا يكاد يداخلنا شك فى أن نقلا وتحريفا حدث فى ترتيب مذكرات مؤلفنا ، ترتب عليه أن ملحوظة حول أخلاق شعب باطا ، الذين اقام بين ظهرانيهم عدة أشهر ، نزع من مكانها الصحيح ، وأدخلت فى هذا الفصل ، الذى يدور حول متوحشين ذوى أوصاف سخافة ، لم ينسب اليهم أكل لحوم البشر أى رحالة منذ زمانه •

(١١) وثانا لتجد فى الآيين الاكبرى لأبى الفضل ، تأكيد لما قيل هنا أنه معنى مصطلح باكس أو ياكشى أو بوكشى حسب النطق البنغالى للكلمة الفارسية ، وهى كلمة لم تزودنا بها المعاجم • فهو يقول تحت عنوان « مذهب البوذ » : « يطلق علماء الفرس والعرب على كهنة هذه الديانة اسم بوكشى ، كما أنهم يسمون باسم اللاما ببلاد التبت » • (مج ٣ ص ١٥٧) • ويلاحظ كلايروت فى كتابه (Abhandlung über die Surache und Schrift der Virguren) أن لفظة ياكشى من أصل مغولى وأنها هى الاسم الذى يطلق على حكماء (Gelehrten) البلاد الذين يسميهم الصينيون ستشو (شو) • ص ٣٧٧ هـ •

(١٢) ما يبدو أن ما ينسب هنا الى الشعوذة لم يكن الا حيلة بانتميمية (ايسائية) ، ولا يمكن تنفيذها بوسيلة خارقة • وفى تصورنا أنه ربما كان الامبراطور ولعل معه أيضا بعض ذوى الثقة من خدامه ممن كان لهم شرف الجلوس قرب سائنته المرتفعة ، على بيعة من الأجهزة والآلات المستخدمة ، ولكن ربما خدع الضيوف بوجه عام ، بل حتى رجال البلاط أو الموظفون (الماندارين) من ذوى المرتبة الدنيا ، وهم الذين كان مؤلفنا بينهم فيما يرجح ، وتحول المسافة البعيدة بينهم وبين تبين الأسلاك التى كانت تحرك الألوان ، حركة يخيّل اليهم أنها تلقائية ، من أحد جوانب قاعة الوليمة الى آخر • وخير مثال يوضح الخيال العجيب لدى هؤلاء الأمراء التتر من أجل جعل شئ أبهم (وهو أمر يعد دائما فى الدرجة الأولى من الأهمية) يقدم اليهم بصورة حب فيها اثارة العجب ، ما ورد فى أسفار روبروكس ، الذى يصف جهازا آليا عجيبا أنشاه فنان فرنسى لكى يحمل الى القاعة أضربا متنوعة من المشروبات كانت تنبعث من أفواه أسود من الفضة •

(١٣) يقول تيرنر : يبدو أن نوعا خاصا من الأغنام يقطن هذا المناخ ويمتاز دائما تقريبا بالرؤوس والأرجل السوداء . وهى صغيرة الحجم ، وصوفها ناعم ، كما أن لحمها يكاد يكون الغذاء الحيوانى الوحيد الذى يؤكل ببلاد التبت وفى رأى أنه أجود أنواع الضأن فى العالم . (ص ٣٠٢) . ويلاحظ هاملتون وجود نوع مماثل بسواحل بلاد اليمىن يقول أن أغنامهم ناصعة البياض مع رؤوس فاحمة السوداء وآذان صغيرة ، وأجسام كبيرة - كما أن لحمها شهى . (مج ١ ص ٥) .

(١٤) سبق الحديث عن الأديرة المتسعة بولاية تانجوت . وهناك وصف خاص لها ورد فى Alphabetum Tibetanum وتعداد فى Miémoires concernant les Chinois مج ١٤ ص ٢١٩ ، تحت عنوان « مياو Miao أو المعابد الموجودة داخل إقليم سى فان » مبتدأ بمعبد بوتالا قرب مدينة لاسا . وكان هناك أيضا كثير من المعابد بالأجزاء الشمالية أكثر ببلاد التتار ، ولكن هذه خرب معظمها أثناء الحروب التى نشبت عند إبادة الأسرة المنغولية فى الصين ، ليس فقط بين الأسرة المالكة الجديدة وأنصار أسلافها ، بل أيضا بين القبائل المستقلة نفسها ، والتى تسمى بالاييلوت والكلكا . أما قبيما يتعلق بعدد الأشخاص الذين تضمهم هذه المؤسسات الديرية ، فإنه يتوافق تماما والبيانات التى قدمها إلينا الرحالة المصريون . ويحدثنا ترنر أنه كان هناك الغان وخمسمائة جيلونج (أى راهب) فى أحد الأديرة التى زارها .

(١٥) نتحدث جميع ما لدينا من بيانات عن هؤلاء القوم عن الاهتمام بوحدة زى الملابس بين الأشخاص المكرسين للقيام بأعباء الخدمات الدينية والحياة الديرية ، وفقا لطبقاتهم ومراقبتهم المتعددة ، فضلا عن العناية باللونين (الأصفر والأحمر) اللذين ترتديهما الطائفتان الكبريان اللتان ينقسم اليهما اللامات . وتذكر مصابر ثقة مختلفة خلق رأس شعر المترهبين أيضا . يقول الآيين الأكبرى : « أن كهان هذا الدين ، يخلقون رؤوسهم ، ويرتدون أثوابا من الجلد (وهى كما هو واضح غلطة فى لفظة الأصفر) والقماش الأحمر » . (مج ٣ ص ١٥٨) . ويلاحظ روبروكى ، وهو يصف بدوره تقار قره قورم : « أن جميع كهانهم يخلقون رؤوسهم ولحاهم تماما ، كما أنهم يرتدون أثوابا بلون الزعفران » انظر Purchas مج ٣ ص ٢١ .

(١٦) مع أنه يبدو أن كهان بوذا أو شكيامونى أو فر تفرض عليهم العزوبة عادة ، فإنها ليست شيئا عاما . يقول البروفسور ماجالهايز : « أن هذا الماندرين قال لى ، بعد أن تحرى المعلومات بعناية ، أنه يوجد

بمدينة بكين وحدها والبلاط ١٠٦٦٨ رامبا غير متزوج ، وهم الذين
نسميهم هوكسام (هوشانج) ، و ٥٠٢٢ متزوجا ، انظر :
(Nouy. Relat. de la Chine) ص ٥٧ .

(١٧) يبدو أن المقصود من كلمة سنسيم أو سنسين هو المقطعان
الفرديان الصينيان سنج سن ، ومعنى المقطع الأول منهما (حسبما قال
ده جن) الرهبان البوذيون أو كهان « فو » . ونحن نقرا في قاموس
موريسون تحت سادة سانج . « كهان طائفة فوه الذين يسمون بالمثل
شا - من : ويسمون أيضا شانج - جن . وهناك أسماء عديدة أخرى
تطلق عليهم ، وأكثرها شيوعا هو هوشانج » . وبناء على ما لدينا من
بيان عن غذائهم ، يجوز لنا أن نستنتج أنهم من متبغلي الهند ، وربما
كانوا سانيازيين ، وهم قوم يمكن أن يعدوا من المنشقين بين شعوب
تنتشر فيه عقيدة بوذا .

(١٨) أن حالة الأردية القائمة اللون (وهي الأسود والكأبي
« nere e biave » التي تلبسها هذه الطائفة ، تبدو أنها ذكرت بقصد
تمييزهم من الهوشانج واللامات ، الذين يلبسون اللون الأصفر أو الأحمر
دواما ، حسب الطائفة التي ينتمون إليها ، وتزيد من احتمال أنهم لم
يكونوا بوذيين .

(١٩) أن النقشقات الصارمة ، التي يعرض لها اليجييون
والسنيازيون ، والجوزايتيون الهنود أنفسهم ، وغير هذه من طوائف
الزهاد ، سلفت الإشارة إليهما قبلا . وكثيرا ما تقلدهم حجاتهم إلى
حدود الصين وإلى ولايات التتار الخائية .

التعريف بالمترجم

- ولد بالقاهرة وتخرج فى كلية المعلمن العليا الأدبية ١٩٢٩ •
- اشتغل بالتدريس حتى رقى وكيلا لمدرسة مصر الجديدة الثانوية ١٩٥١ •
- مديراً للمركز الرئيسى للتدريب بمنشبة البكرى ١٩٦٢ •
- شغف بآداب العربية والانجليزية والفرنسية منذ حداثته ، انضم لعضوية لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦ •
- حاز جائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة ١٩٨١ ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى •

بعض أعماله :

- عنى بنقل أمهات الكتب الانجليزية وبعض الفرنسية
- ١ - فى التاريخ :
- معالم تاريخ الانسانية لويلز (١) فى اربعة أجزاء ،
- وصنوه « موجز تاريخ العالم » - « ويلز » •
- ٢ - فى تاريخ الحضارات :
- حضارة الاسلام (٢) (جرونى باوم) ، الحضارة البيزنطية (رنسيماى) ، الحضارة الهلنستية (تارن) ، ميلاد العصور الوسطى (موىس Moss) ، اضمحلال العصور الوسطى (هويزجا) •
- الطفل من الخامسة الى العاشرة (ارنولد جزل) (٢) •
- رحلات ماركو بولو (٤) وغيرها وغيرها •

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) : اصدرت هيئة الكتاب طبعة جديدة من هذه الكتب الاربعة •

رحلات ماركو بولو - ٣٠٥

اقرأ في هذه السلسلة

برتراند رسل	احلام الاعلام وقصص اخرى
ي . رادونسكايا	الاكترونيات والحياة الحديثة
الدس هكسلى	نقطة مقابل نقطة
ت . و . فريمان	الجغرافيا فى مائة عام
رايموند وليامز	الثقافة والمجتمع
ر . ج . فوريس	تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
ليسترديل راي	الأرض الغامضة
والتر ألن	الرواية الانجليزىة
لويس فارجاس	المرشد الى فن المسرح
فرانسوا دوماس	آلهة مصر
د . قدرى حفى وأخرون	الانسان المصرى على الشاشة
اولج فولكف	القاهرة مدينة لآل ليله
هاشم النحاس	الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليام ماكديال	مجموعات النقود
عزيز الشوان	الموسيقى - تعبير نفسى - ومنطق
د . محسن جاسم الموسوى	عصر الرواية - مقال فى النوع الادبى
اشراف س . بى . كوكس	ديلان توماس
جون لويس	الانسان ذلك الانسان الفريد
جول ويست	الرواية الحديثة
د . عبد المعطى شعراوى	المسرح المصرى المعاصر
أنور المعداوى	على محمود طه
بيل شول وادنبيت	القوة النفسية للآهرام
د . صفاء خلوصى	فن الترجمة
الف نى ماتسلر	تولستوى
فيكتور برومبير	سستدال

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات في مضمار	فيرنر هيرزبرج
الفيزياء الذرية)	
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائي عند تولستوى	ف . ع . أدنيكوف
أدب الأطفال	هادى نعمان الهيتى .
أحمد حسن الزيات	د . نعمة رحيم العزاوى
أعلام العرب فى الكيمياء	د . فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح .	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليموة
التطور الحضارى للإنسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د . روجر ستروجان
تربية الدواجن .	كسلى-ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا . سبنسر
النحل والطب	د . ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داموس .
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء	
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤	د . لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د . جسون شندلر
الصحافة .	بيير البيس
أثر الكوميديا الإلهية لدانتى فى الفن	
التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية	
وبعدما	د . رمسيس عوض .
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د . محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى	شوكت الربيعى
١٨٨٥ - ١٩٨٥	
المتشئة الأسرية والأبناء الصغار	د . محيى الدين أحمد حسين

تأليف : ج ٠ دادلى اندرو	تفريعات الفيلم الكيرى
جوزيف كورنراد	مختارات من الادب القصصى
د ٠ جوهان دروشنر	الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟
ملائقة من العلماء الأمريكيين	حرب الفضاء
د ٠ السيد عليوة	ادارة الصراعات الدولية
د ٠ مصطفى عنانى	الميكروكمبيوتر
صبرى الفضل	مختارات من الادب اليابانى
فرانكلين ل ٠ باومر	الفكر الاوروبى الحديث ٢ ج
جابريل باير	تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة
انطونى دى كرمبىنى	اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
دوايت سوين	كتابة السيناريو للسينما
زافيلسكى ف ٠ س	الزمن وقياسه
ابراهيم القرضاوى	اجهزة تكييف الهواء
بيتر رداى	الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
جوزيف دامموس	سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
س ٠ م بورا	التجربة اليونانية
د ٠ عاصم محمد رزق	مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية
رونالد د ٠ سمپسون	العلم والطلاب والمدارس
ونورمان د ٠ اندرسون	
د ٠ اثنور عبد الملك	الشارع المصرى والفكر
ولت وتيمان روستو	حوار حول التنمية الاقتصادية
فريد ٠ س ٠ هيس	تبسيط الكيمياء
جون بوركهات	العادات والتقاليد المصرية
الان كاسبيار	التذوق السينمائى
سامى عبد المعطى	التخطيط السياحى
فريد هويل	البذور الكونية
شاندر ا يكراماسينج	
حسين حلمى المهندس	دراما الشاشة (٢ ج)
روى روبرتسون	الهيرويين والايدز
دوركاس ماكلينتوك	صور افريقية
هاشم النحاس	نجيب محفوظ على الشاشة

- د . محمود سرى طه
بيتر لورى
بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
ويليام بينز
ديفيد الدرتون
احمد محمد الشنوانى
جميعها : جون ر . بورر
وملتون جولدينجر
ارنولد توينبى
د . صالح رضا
م . ه . كنج وآخرون
جورج جاموف
د . السيد طه ابو سديرة
جاليليو جاليليه
اريك موريس وآلان هو
سيريل الدريد
آرثر كيستلر
جون بورر
ب . كرملا
ر . ج . فوريس
توماس . هاريس
مجموعة من الباحثين
روى ارمز
ناجى متشيو
بول هاريسون
ميخائيل البى ، جيمس لفلوك
فيكتور مورجان
اعداد محمد كمال اسماعيل
أبو القاسم الفردوسى
بيرتون بورتر
محمد فؤاد ، كوبرلى
- الكمبيوتر فى مجالات الحياة
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء
الهندسة الوراثية
تربية أسماك الزينة
كتب غيرت الفكر الإنسانى (٣ ج)
الفلسفة وقضايا العصر (٢ ج)
الفكر التاريخى عند الاغريق
قضايا وملاح فى الفن التشكيل المعاصر
التغذية فى البلدان النامية
بداية بلا نهاية
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية
حوار حول النظامين الرئيسيين
للكون
الارهاب
اختاتون
القبيلة الثالثة عشرة
الفلسفة وقضايا العصر (ج)
الاساطير الاغريقية والرومانية
تاريخ العلم والتكنولوجيا
التوافق النفسى
الدليل البيولوجى فى
لغة الصورة
الثورة الاصلاحية فى اليابان
العالم الثالث غدا
الانقراض الكبير
تاريخ النقود
التحليل والتوزيع الاوركستراالى
الشاهنامه (٢ ج)
الحياة الكريمة (٢ ج)
قيام الدولة العثمانية

عن النقد السينمائي الأمريكي	ادوارد ميرى
قرايم زرادشت	اختيار / د. فيليب عطية
السينما العربية	اعداد / موني براج وآخرون
دليل تنظيم المتاحف .	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبتر
التاريخ من شتى جوانبه (٣١ ج)	ستيفن اوزمنت .
الحملة الصليبية الاولى	جوناثان ريلر سميت
التمثيل للسينما والتلفزيون	توني بار
العثمانيون في اوريا	بول كولنر
صناع الخلود	موريس بير براير
الكنائس القبطية القديمة في مصر (جزآن) ألفريد ج. بتلر	رودريجو فارتيما
رحلات فارتيما	فانس بكارد
انهم يصنعون البشر (٢ ج)	اختيار / د. رفيق الصبيان
في النقد السينمائي الفرنسي	بيتر نيكولز
السينما الخيالية	برتراند راصل
السلطة والفرد	بينارد دودج
الأزهر في ألف عام	ريتشارد شاختر
رواد الفلسفة الحديثة .	ناصر خسرو علوى
سفر تامه	نفتالى لويس
مصر الرومانية	كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر جاك كرابس جونيور
كتاب التاريخ في مصر القرن التاسع عشر جاك كرابس جونيور	هربرت شيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية .	اختيار / صبرى الفضل
مختارات من الآداب الآسيوية	

أحمد محمد الشنواني	كتب غيرت الفكر الانساني (٣ ج)
اسحق عظيموف	الشموس المتفجرة
لوريتو تود	مدخل الى علم اللغة
اعداد / سوريال عبد الملك	حديث النهر
د . ابرار كريم الله	من هم القطار
اعداد / جابر محمد الجزار	ماستريخت
هـ . ج . ولز	معالم تاريخ الانسانية ٤ ج
جوستاف جرونياوم	حضارة الاسلام
ستيفن رانسيما	الحملات الصليبية
ارنولد جزل	الطفل ٢ ج
بادى اونيمود	افريقيا الطريق الآخر
برنسلو مالمينوفسكى	السحر والعلم والدين
جلال عبد الفتاح	الكون . ذلك المجهول
محمد زينهم	تكنولوجيا فن الزجاج
مارتن فان كريفلد	حرب المستقبل
سوندارى	الفلسفة الجوهريّة
فرانسيس ج . برجين	الاعلام التطبيقي
جى كارفيل	تبسيط المفاهيم الهندسية
ألفين توفلد	تحول السلطة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٩٤٤٤ / ١٩٩٥

ISBN — 977 — 01 — 4559 — 9

في عام ١٢٧١ خرج ماركوبولو، وكان آنذاك في السابعة عشر من عمره، مع أبيه وعمه في رحلة عجيبة انطلقت بهم من مدينة البندقية في ايطاليا وحملتهم عبر قفار وجبال وسهول آسيا الشاسعة حتي أرض الصين في عصر الإمبراطور المغولي العظيم قبلاي خان الذي احتفي بهم وضمهم إلي حاشيته فعاشوا هناك سنوات طويلة...

وقد دون ماركوبولو اخبار رحلته هذه في ذلك الكتاب الذي يعد أشهر وأهم كتب الرحلات قاطبة، فهو سجل في نادر لحياة الكثير من الشعوب والحضارات القديمة التي إندثرت اليوم ولم تبق منها سوى تلك الصور التي التقطها ماركوبولو بقلمه عنها، فهو علي طرافته مرجع علمي عظيم عن تاريخ آسيا والصين في العصور الوسطى..

وقد ترجم هذا الكتاب إلي العربية مترجم قدير هو الأستاذ عبدالعزيز توفيق جويد ضمن إسهاماته المتعددة في إثراء المكتبة العربية بالنفيس والهام من الكتب..

وفي الجزء الأول من الرحلة ننتقل مع رحالتنا عبر أراضي فارس وأرمينيا وتركستان و ممالك التتار...

